إليزابت ايبرهارت
الأعمال الكاملة ج1
جمال غلاب
ترجمة و تحقيق

الأعمال الكامـــــــلة لإبـــرهاردت

الإهـــــداء

الى كل من تفاعل معي و زودني بملاحظاته

و اقتراحته في الفيس بوك .....

اهدي مؤلفي هذا محبتي

تقديـــــــــــــم

****

حامت الكثير, من الشكوك حول الكاتبة الجزائرية . ازابيل ابرهاردت . ...شكوك ما زالت الى يوم الناس هذا محل قلق و بحث .أرهقت به محبي مغامراتها و عشاق كتاباتها الأدبية ؟إ . وفي نقاش جانبي (في الفيسبوك) ..قلت للروائي الجزائري لحبيب السائح :(الكاتبة ازابيل ابرهاردت لم ينصفها التاريخ ..فلو مكنتنا فرنسا من إسترجاع أرشيفنا قصد إزالة كل الشكوك عنها . لأن الكاتبة تستحق تمثالا من ذهب نظير مجهوداتها في التأريخ للجزائر) .

و تكاد تتطابق وجهة نظري مع وجهة نظر الأديب و المترجم الجزائري . حسن داوس . الذي نادى الباحثين و المؤرخين الى انصافها لتبديد الشكوك من حولها ؟. ...

.....و الحق و من وجهة نظري . أن الكاتبة . إزابيل ابرهاردت . لوحاولنا قراءة ما حام حولها من شكوك .فإنه لا يجب حصره في دائرة الخيانة عبر مسار التجسس لصالح الاحتلال الفرنسي ؟ بحكم أن هذا الأخير يتهمها هو أيضا بالجوسسة لفائدة الألمان ؟إ ؟ . ففي سؤال خبيث لمدير جريدة (للجريان) مضمونه إتهامها بالجوسسة كان ردها بقولها :

لا يا سيدي المدير, إنني لست سياسية ولا عميلة لأي حزب ما, لأنني لا أراهم إلا مغرورين في نضالهم, إنني أريد العيش بعيدًا عن العالم المتحضر!! أريد حياة حرة وبدوية وهذا حلمي, لأجل أن أنقل كل ما أراه, وأنقل قشعريرة الحزن والسحر الذي أحسّ به أمام العظائم المحزنة للصحراء, هذا كل ما في الأمر) ..؟.

قلت من وجهة نظري أن مثل هذه الشكوك يمكن ايعازها الى سؤال مشروع. مفاده من تكون . اليزابات ابرهاردت . إمرأة تزيت بزي رجل ؟ و كانت لها علاقة مع الجنرال الفرنسي (ليوتي) ..و تتنقل بكل حرية بين الزوايا الجزائرية و تقيم فيها , وتكتب التقارير الصحفية ؟إ ..و تقارير أخرى لم يكشف عنها في الأرشيف و تحديدا المتعلق بحقبة

الإحتلال الفرنسي للجزائر ؟إ ....كل هذه التمظهرات جعلتها محل الريبة ؟إ. و هو ما أطلق العنان لإثارة الجدل من حولها ؟إ و يجب تقبل مثل هذا الجدل و الخوض فيه للوصول الى الحقيقة ؟.

قرأت كتاب (يومياتي) . لإزابيل ابرهاردت . ولم أفهم منه شيئا و تحديدا ..في الفصل المتعلق بزيارتها لمدينة المسيلة .بتاريخ جويلية 1902م .. ..فهي مثلا في تدويناتها لا تتطرق الى التفاصيل بل تتعمد في تدوينها على أسلوب الإختصار المنتهج في كتابة البرقيات ؟إ..و المطلوب من المتلقي الاطلاع المسبق على المحيط الذي تتحرك فيه و تكتب منه لفهم ما تكتب؟ ' مثل هذه الرؤية زودني بها الرسام . درسان جون لوي البلجيكي التقيته رفقة زوجته في العاصمة التونسية في منتصف التسعينيات ,أين قضيت معه أكثر من اسبوع في باب السويقة وكان حينها يقتفي أثار(أندري جيد)..

لإعادة رسم ما دونه قي كتابه رحلة . في شمال أفريقيا . الرؤية مفادها :(أنه يصعب إستيعاب كتابة الرحالة (ازابيل ابرهاردت) و الإلمام بها, اذا لم يتبع بالتنقل الى أماكنها لإعادة رسم وقائع ما تكتب) .

...و تكاد تتطابق وجهة نظره مع وجهة نظر الكاتب . ميهي عبد القادر (لا تراعي إيزابيل في هذا النوع من الكتابة الجانب الفني للجمل، بل تقتصر في بعض الأحيان على كلمة واحدة للدلالة على موقف معيّنٍ،) و اصارحكم القول .أنه قبل ترجمة فصول من كتابها , تعمدت زيارة الأماكن التي تجولت فيها الكاتبة . ازابيل ابرهاردت . شبرا شبرا في مدينة المسيلة (حي العرقوب و اسطبلاته و مساجده و حاراته و جنيناته ,و الجسر الذي يربط هذا الحي بحي خربت اليس ...الكدية حاليا لأن الحي اندثر عن آخره في زلزال 1965)

..ومقهى الذي أقامت فيه الكاتبة ...و مسجد النخلة الذي كانت تصلي فيه .. ونهر القصب الذي كانت تقضي فيه أماسيها طيلة إقامتها ...)..لعلي أعثر على مؤشر يساعدني على الوصول الى حقيقتها ؟إ و الى تفسير الشكوك التي حامت حولها ؟إ و اليكم التفاصيل و كل رجائي أن لا تعتبروني مِؤرخا بل مجرد باحث في تفاصيل غامضة قصد إنارتها تبعا لما توفر لدي من معلومات إستقيتها من عائلات قديمة في مدينة المسيلة و أخرى وجدتها مبثوثة في كتبات بعض الرحالة الغربيين مروا على الجزائر ؟. وكل رجائي أنكم تشاركونني في استقرائي لحقيقة الكاتبة . ازابيل ابرهاردت ..

اليزابت ابرهاردت / سيرتها الذاتية و تاريخ أسرتها

تنبيه : لقد نبهني صديقي . ابراهيم قار علي . الى عرض السيرة الذاتية للكاتبة الجزائرية اليزابات ابرهاردت حتى يتمكن القراء من التعرف أكثر على هذه الشخصية العالمية و نظرا لأهمية ما يحيط بسيرتها الذاتية فقد ذيلتها بتاريخ أسرتها و هذا لغاية مفادها : حتى يتمكن اعلاميين الشباب أيضا من التزود بكثير من المعلومات عنها عند تناولها في كتابة مقالاتهم...

. أما الصورة الأولى و هي آخر صورة التقطت لها أثنا نقلها من منزلها الذي داهمته الفيضانات الى المقبرة للصلاة عليها و دفنها و هي صورة نادرة .

. و الصورة الثانية المرفقة أيضا : فهي تشتمل على نماذج من الأدعية لإليزابت ابرهاردت باللغة العربية و بخط يدها و ما يجدر التذكير به أن الكاتبة كتبت نصوصا باللغة العربية و تمت ترجمتها الى اللغة الفرنسية و سنعود اليها في حينها ... و في الأخير نشير أيضا الى صورة التي التقطت لـ . علي عبد الوهاب من المهدية تونس . صديق عائلة اليزابت ابرهاردت....

كثر الجدل حول تاريخ أسرة اليزابيت إبرهاردت . وهذا ما دفعنا الى البحث في الكثير من المراجع و المصادر وما نقدمه في هذه الوثيقة هو خلاصة خلاصات ما وصلت اليه أدينا بكل أمانة ... ومنه فإن هذه الرواية جزائرية مئة بالمئة و يمكن إعتمادها لأنها خلاصة خلاصات عشرات الكتب .و لأول مرة تنشر باللغة العربية ...و عملا بأمانة العلمية و شروطها فعلى كل الدارسين و الباحثين و المهتمين ذكر مرجع هذه الرواية و هي تحت تصرفهم.....

عائلة اليزابيت ابرهاردت و سيرتها الذاتية

1838م الى 1860م

. نتالي شارلوت ...(Nathalie charlote dorothé) و هي الإبنة الحقيقة للأم . ابرهاردت . Eberhardt de liesen. حيث ولدت في سان بترسبورغ الروسية . saint– spétersbourg Russe –. من خلال تعرفها على المسمى نيكولوس كورف .Korff Nicolas . و الذي تزوجته فيما بعد و حازت على لقبه.

. نتالي (Nathalie) تزوجت من بول كارلوفيتش موإردار de Moerder Paul) (carlovitchو هو ضابط عسكري في جيش تزار (Tsar) و عمره 41 سنة , و أخوه الأكبر

ليتريان (Luthérien) ذو الجنسية الأصلية الألمانية , و أنجب معها 4 أولاد (أولقا ' نقولاس , نتاليا , ولدمير . (Olga ; Nicolas ; Natalia ; Wladimir...

1860 م الى 1871م.

. نتالي (Nathalie) تفر الى روسيا , (مع الكسندر نيكولا ليفيتش Alexandre ,,, (Nicolaiévitchو مدرس أولادها أرميني الأصل الذي إستقال من وظيفة الكهنة هو أيضا متزوج و أب لأسرة و الذي ينقل معه اولاده الثلاثة (اولقا , باولوا, اليزابات Olga ; pawlawa (Elizabeth ;يفضل بقاءهم في روسيا ...و في 10 ديسمبر يولد الطفل الخامس في جنيف (اوغستان . (Augustin ; t

. 1873م الى 1877م

و في 27 أفريل 1877م.. يتوفى الجنرال (دو مواردر (de Moerder و (تروفيموفسكي (trophimovskiيصير الوصي على أولاد (نتالي) من (دو مواردر) و أيضا المتصرف الوحيد في ثروتها التي ورثتها من زوجها المتوفي ...و في السنة نفسها إشتروا فلة مرفوقة بحديقة ببلدية (ميرين .. (meyrin ... بالقرب من فرني و على حافة جنيف و التي صارت تسمى بالفلة الجديدة....

و بتاريخ 27فيفري 1877م ميلاد (اليزابات ابرهاردت) .. الإبنة الحقيقية (لنتالي)..لكن والدتها لم تصرح بإسم والدها ؟إ ... لأسباب أمنية ؟إ.

. 1883م الى 1887م

و في بداية سنة 1883م الإبن الأكبر لـ (نتالي دو مواردر) de Moerder و المسمى ب (نيقولاس) ينضم الى صفوف الفيالق الأجنبية , و بعدها يفر خوفا من إفاده في حملة (طونكا ,, (tonkin..و يلجأ الى روسيا ... و (نتاليا دو مواردر (Natalia de Moerder ; الإبنة الثانية لـــ (نتالي (Nathalie تهرب مع حبيبها...

1887م الى 1894م

و في سنة 1887م يتم القبض على (الفريد درايفيس (Alfred Dreyfus وهو نقيب في الجيش الفرنسي بعد تكييف اتهامه بالخيانة العظمى لصالح المانيا تم الحكم عليه من طرف المجلس الأعلى العسكري بباريس...

1895م الى 1896م

و (أوغيستان (Augustin .... ينضم مثل أخيه في صفوف الفيالق الأجنبية حيث يتم تعيينه في مدينة سيدي بلعباس الجزائرية ... وفي أكتوبر 1895م تظهر اليزابات ابرهارت لأول مرة على صفاحات مجلة جديدة بمقال . رؤية للمغرب . باسم مستعار (نيقولاس بودولنسكي ;

(Nicolas podolinskyو في 4فيفري 1896م يتم إعفاء (أوغيستان (Augustin .... بسبب ضعف بنيته ثم عاد من جديد و إنضم الى فيلق (انكي.... (Annecy ثم العودة الى الفلة الجديدة بجنيف حيث وجدوها في حالة يرثى لها . و في 19 أكتوبر 1896م تختم مراسلاتها مع الشيخ (ابو ندارة) الرجل صاحب النظارات الزرقاء و هو عالم جليل مصري في الفقه و الاقتصاد و السياسة و الذي يعيش في المنفى بباريس .. و في هذه السنة (1896) بدأت الهجرة الى فلسطين من طرف الكثير من الشباب و أغلبهم من بولونيا...

1897م الى 1898م

و في ربيع 1897م علي عبد الوهاب الإبن الأكبر لحاكم المهدية التونسية و عمره 21سنة يبادر الى مراسلة اليزابات إبرهاردت بعد أن يرى صورتها على صفحة المجلة الجديدة التي عثر عليها على مكتب صديقها أبو ندارة ... و في شهر ماي 1897م اليزابات ابرهاردت و والدتها يختران الاقامة في مدينة عنابة الجزائرية في هذه السنة شرع الجزائريون في معاداتهم للسامية بشكل عنيف بسبب المخططات الصهيونية لإحتلال القدس (و في هذا التاريخ بدأت ازمة استفحال العداء لليهود من طرف الجزائريين) و هذا العداء ينتقل من عنابة و يبلغ أوجه في وهران و بشكل رهيب ...و المتظاهرون من اليهود في هذه السنة دائما يطالبون بتفعيل قانون التجريم (الصادر سنة 1871م) كما يطالبون بتجنيسهم بالجنسية الفرنسية مع احتفاظهم جنسيتهم اليهودية ...و في جويلية 1897م علي عبد الوهاب يزور مدينة عنابة لأول مرة و زيارته الثانية في أكتوبر من نفس السنة ,,,و في 28نوفمبر 1897م و توفيت (نتالي (Nathalie والدة اليزابات ابرهارت في عنابة و تم دفنها طبقا لتعاليم الشريعة الإسلامية و في مقبرة إسلامية بعد أن تسمت بإسم فاطمة منوبيا ...و في بداية شهر ديسمبر1897م عادت اليزابت ابرهاردت الى الفلة الجديدة بجنيف ...و في 13جانفي 1898م (إميل زولا (Emile zola ينشر مؤلفه . أنا أتهم . ومنه محاكمة (إميل زولا) يتم من خلاله تسيس قضية (الفريد درايفيس (Alfred Dreyfus و في شهر مارس من نفس السنة (أوغيستان (Augustin .... يسرح من الخدمة العسكرية و حيث يكون إتجاهه منزل علي عبد الوهاب في المهدية بتونس .. في هذه الفترة أيضا اليزابت تنشر ثاني مقال لها على مجلة الباريسيان الفرنسية بعنوان :ظلال افريقيا و تعلن اعتناقها للاسلام ,,,و توقعه باسم مستعار . سي محمود ... و في 13أفريل 1898م ينتحر(ولديمير ; .. (Wladimirبسبب اضطهاده من طرف أخيه (نقولاس ,,, (Nicolas ... و في جويلية 1898م مشروع الزواج لإليزابت مع أحمد رشيد التركي و المناضل في الحركة الشبانية التركية و الدبلوماسي في جنيف و الذي يم تعيينه في لاهاي يكون مآله الفشل .. و في نوفمبر 1898م أوغسان يعود الى الفلة الجديدة في جنيف ,,,أما اليزابات ابرهاردت فتشتغل على كتابة رواية . راخيل . ثم تتوقف و تستأنف كتابتها في سنة 1900م....

1899الى 1900م

و في 15ماي1899م يتوفي الوصي على العائلة في الفلة الجديدة (الكسندر alexandre ...

...(و في 12جوان 1899م اليزابات ابرهاردت رفقة أخيها أوغستان يرحلان من مرسيليا الى تونس و هناك يلتقيان على عبد الوهاب و في (2 جوان 1899م اوغستان يعود الى مرسيليا .. و 8جويلية ترحل اليزابات ابرهاردت من تونس الى مدينة باتنة الجزائرية ...و في 3أوت تقيم في مدينة واد سوف الواقعة في الجنوب الشرقي للجزائر و في 29 أوت 1899م اليزابت تلتقي بأخيها أوغستان في مقبرة عنابة حيث ترقد والدتهما .... و في 2سبتمبر العودة الى تونس و خلال شهر سبتمبر و اكتوبر اليزابات تقضي شهرا في الساحل التونسي ....و في شهر نوفمبر تعود الى مرسيليا ثم تنتقل الى باريس و بعدها يحدث الانقطاع بينها و بين علي عبد الوهاب و في 29ديسمبر تعود الى مرسيليا ... و في الفاتح من جانفي 1900م تتجه الى كالكاري السردينية من فيفري الى جويلية من سنة 1900م تتنقل اليزابات ابرهاردت بين باريس و جنيف ثم تدخل الى الجزائر وفي 13جويلية 1900م تصل الى مدينة تقرت الجزائرية و بتاريخ 3 أوت 1900م تقيم في مدينة واد سوف و هناك تلتقي بسليمان هني ثم تنضم الى الطريقة القادرية ...و تتزوج من سليمان هني...

1901م الى 1902م

يتم تعيين سليمان في الحامية العسكرية للمحتل الفرنسي بباتنة بسبب نزاعه مع اليزابات ابرهاردت سنة 1901م.... وبتاريخ 29جانفي اليزابات ابرهاردت تتعرض الى محاولة اغتيال و سنعود الى ملف القضية في الحلقات القادمة وفي 25 فيفري 1901م يتم نقل اليزابات ابرهاردت الى مستشفى الواد ثم تلتحق بسليمان في باتنة و تبقى لمدة شهرين تحت الرقابة العسكرية في انتظار نفيها الى مرسيليا عبر ميناء مدينة عنابة في 18 جوان مثول اليزابات ابرهاردت أمام المحكمة العسكرية لقسنطينة و في هذه المحاكمة صدر حكما يقضي بمعاقبة الجاني و نفي اليزابات ابرهاردت من الجزائر .....بعدها تقيم عند أخيها أوغستان في مرسيليا ...و في نهاية شهر أوت 1901م سليمان هني يلتحق بها في مرسيليا و في 17جوان 1901م اليزابات تسجل عقد الزواج المدني مع سليمان و تتمكن من حيازة الجنسية الفرنسية ثم ترحل معه الى مدينة الواد و تعيش مع زوجها رفقة أسرته ثم الزوجان ينتقلان الى العاصمة الجزائرية و يقيمان في حي القصبة ...و في هذا الحيز الزمني اليزابات ابرهاردت تتكفل بسليمان لاعداد مسابقة مترجم....

و في ربيع 1902م تلتقي اليزابات ابرهاردت (فكتور بريكوند (Victor Brrucond مدير جريدة * الجديد* كانت تصدر في الجزائر ثم أسس عنوان بدل الأول : جريدة الأخبار و المشار اليه نفسه كان عضوا بجامعة حقوق الانسان و قد أرسل في اطار مكافحة معادة السامية و في شهر جوان 1902م انتقلت اليزابات الى زاوية الهامل عبر مديني المسيلة و بوسعادة و هناك

أقامت أياما في خلوة لالا زينب شيخة الزاوية الرحمانية ....و في 7جويلية 1902م تم تعيين سليمان هني سكريتير مترجم بلبدية المختلطة لمدينة التنس في المقاطعة الشمالية للجزائر ,,, و في نفس الفترة تتعاون اليزابات ابرهاردت مع جريدتي الجزائر و الاخبار و هذه الأخيرة كانت تصدر باللغتين العربية و الفرنسية و ذات الاتجاه التحرري ....و في جانفي 1903م ثاني انتقال لها الى مدينة بوسعادة التي تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 240كلم لزيارة لالا زينب .... وبدءا من شهر أفريل الى شهر جوان من سنة 1903م تتعرض اليزابات ابرهاردت مع زوجها الى حملة كلونيالية عبر الصحافة ,,,بعدها سليمان ينتقل للاقامة في سطيف بينما اليزابات ابرهاردت تنتقل الى الجزائر العاصمة .... ثم تنتقل الى الجنوب الوهراني و تحديدا الى الحدود الجزائرية المغربية لنقل وقائع حرب المنقار للشيخ بوعمامة من تاغيت ....و في أكتوبر تلتقي الجنرال اليوت في عين الصفراء و قد تم تأسيس هذه الحامية العسكرية سنة 1882م لمراقبة الشيخ بوعمامة و ثواره لأكثر من 20سنة . 1881م الى 1908م . و في نهاية ديسمبر 1903م عادت الى الجزائر العاصمة .... في جانفي 1904م سافرت الى مدينة وجدة المغربية ..... و في شهري مارس و أفريل 1904م عادت الى الجزائر العاصمة و في شهر ماي 1904م عادت الى الجنوب الوهرني حيث أقامت أياما في زواية الشيخ بوعمامة بالحمام الفوقاني التي يسيرها سيدي محمد بن لمنور إبن عم الشقيق للشيخ بوعمامة و في شهري جويلية و أوت 1904م أقامت في زاوية سيدي ابراهيم ولد محمد و في شهر سبتمبر 1904م تعود اليزابات ابرهاردت الى عين الصفراء بسبب مرضها و للعلاج في شهر اكتوبر 1904م وصول (إرنست جيرلوت و لويس ميشال (Ernest Girault et luise Michel ,,, الى الجزائر جاءا لتنظيم دورة من الندوات في كامل الجزائر للأستنكار و التنديد بالعمل العسكري و الاضطهاد و استغلال الكلونياليين للجزائريين و حيث كانت اليزابت ابرهاردت هي دليلهما من خلال مدهم بكل المعلومات ؟إ و هنا تكون اليزابات ابرهاردت قد تجاوزت الخطوط الحمراء و لا بد من تصفيتها ؟ ,,,و في 20 سبتمبر 19904م سليمان ينتقل الى عين الصفراء و في 21 اكتوبر 1904م تتوفى اليزابات ابرهاردت على اثر فيضانات عين الصفراء ؟إ ..... و تدفن طبقا لتعاليم الشريعة الاسلامية بمقبرة عين الصفراء باسم اليزابات ابرهاردت زوجة سليمان هني و في 14 أفريل 1908م يلتحق بها سليمان الى الرفيق الأعلى و في سنة 1920م أوغستان أخ اليزابت ينتحر في مرسيليا و تنتحر أيضا ابنته هيلين

علي عبد الوهاب التونسي

جثمان اليزابيت على الأكتاف

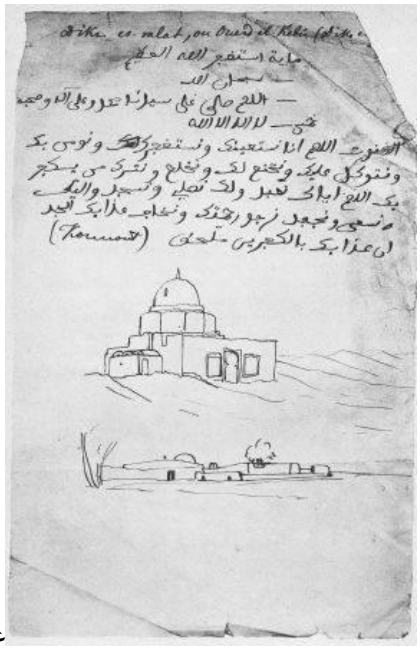

عينة من أدعية اليزابيت

عينة من كتابات اليزابيت بيدها

لالا اليزابات : وفاة شوشينا (...جيرا ...سويسرا)

كان مساء هذا اليوم دافئا ...باستثناء سحب بيضاء طفت فوق مرتفعات جبال (جيرا) التي مازالت تغطيها الثلوج والجو المعكر في إنتظار الصفاء المزدحم بحيوية شهر ماي ..و أعلم مسبقا أنني سأركن خلف النافذة لتمضية ساعات مشدودة الى المناظر الطبيعية المألوفة لهذه الضواحي بأحزانها و حزني الخاص ...و سأفقد ثمار العمل الشاق تقريبا للفصل الدراسي الشتائي ويبقى الملل و الرتابة يكتسحان روحي على الدوام ومنه أضطر الى الغطس في حياتي التأملية من جديد.....

في حين أفكر في كل شيء عديم الجدوى بذاكرتي و المتراكم من حولي والذي لا يتوقف عن وخزي ...إنها فتاة مجهولة الهوية . و صغيرة و ضعيفة البنية بملامحها الشاحبة و الحزينة ذات الشعر البني و المجعد و بابتسامتها العذبة..

. جئت من طرف لجنة النجدة لطلبة الروس ... جئت من روسيا لإتمام دراستي في الطب ..ولا أحوز مصادر مالية ؟إ...وقيل لي بما أنك سكريتيرة هذه اللجنة و يمكن التعويل عليك لإيجاد لي شقة ؟.

في هذا العالم الصغير جدا و بصرف النظر عن الطلبة الروس المشدودين الى عشق الحلم الإشتراكي و الذي ينم عن فوضى عارمة ..ومع ذلك هناك صدق كبير من القناعات مثل الواجب الاجتماعي و التكافل المتبادل و المتمظهر صراحة كضرورة مطلقة في الحياة.... و فقط الزيف الظالم هو الذي يتم عن طريقه تدمير الفقراء وعليه لابد من أن يحل محل هذا الزيف الجائر كل ما هو شعور إنساني في هذه الحياة حتى يكتب لها البقاء.

ومن هذا المنطلق إذن (شوشينا).. تقدمت بطلبها و بدون حرج..ولا تردد وفي منتهى البساطة ؟إ...لقد سارعت الى منحها غرفة بجوار غرفتي و ستشغلها الى غاية الإنتهاء من دراستها و شوشانة أصيلة مدينة سيبريا و تنحدر من عائلة متواضعة (لنيسئسك) وكل هدفها أنها تحوز شهادة الدكتوراه .. و العودة الى بلدها من أجل إسعاف اخوانها قالت ذلك بعاطفة جياشة ؟إ ...و ما عرفته عنها أنها فتاة بسيطة و يكتنفها الغموض و هي سعيدة على ما هي عليه .. أه هذه السعادة المتطرفة التي تجعلها تمضي وجودها في حلم مطلق ؟

ففي مخيال(شوشينا)... لا تر في الرجل إلا وحشيته ...ومع ذلك فهي تحوز هامش من الإحسا س و اللطف والليونة وعلى الدوام لا تقبل النقاش ومختلفة ...و بطباع كلها جد وتواضع ووداعة ... و خلاصة خلاصاتها فهي صديقة جميلة و لن أدخل معها في نزاع.

و (شوشينا) أيضا تمتلك كاريزما و لبقة في حياتها اليومية فهي تراعي أحلامي كما تراعي مزاجي المتقلب و تستقبله بابتسامة ولا تدخر جهدا في تلطيف أجوائي حينما تسود الحياة في عيناي بسب الحزن و أشياء أخرى غير واضحة المعالم من التي تجتاحني ..

هي أزمات صعبة أمر بها منذ مدة ... و قد تمخض عن تآلفنا الكثير من الأسرار المعبرة ومن التي ليس لها اعتبارات و لا أمل يرجى من ورائها لأننا في كلمة واحدة مختلفين ومع ذلك تبقى (شوشينا) من النوادر الحاضرة من حولي ومن التي لا تزعج ولا تحسسني بالملل و تعلقي بها مبعثه . و باعتراف الجميع . مشاعر كلها أنانية تتلخص في التفوق ولا أحد يعرفها بإستثناء (شوشينا)...

و بالنسبة (لشوشينا).. دراستنا للطب الذي لايعد مهنة و لا فنا بل هو وظيفة من وظائف الكهنة لخدمة الإنسانية وفي بعض الأحيان تتفاجأ عند رؤيتها لي و انا مبتسمة وغير مكترثة بمعاناتي الأليمة كالتي تجتاحها ....وكأنها تريد مني أن أستسلم ؟. و أعتقد أنه اذا أرادت مني مثل هذا الاستسلام فهي واهية .. فهي تعتقد أن أي طارئ صغير يمكنه أن يطفئ التوهج الذي يسكن عمقها ؟إ و في نشاط النملة الصغيرة الكثير من العبر التي لا شيء يحبط حماسها و اقبالها على الحياة بنهم ؟

وتقلقني الحياة الصحية المهتزة (لشوشينا) فهي منذ أيام تعاني ضعفا و تعاني أرقا شديدا وقليلة النوم و تستيقظ لإستحمام بغية التخلص من العرق البارد الذي يغمر جسدها و كثيرة السعال و في بعض الأحيان وعندما أنظر اليها بعناية أكتشف سكونا في عينيها الكبيرتين ذات اللون الارجواني.... نظرات مخوفة و محزنة و مع ذلك لا تشتكي و تبقى متشبثة بضميرها الحي و كل قصدها هو مواصلة عملها من أجل مناقشة رسالتها للدكتوارة في شهر أكتوبر القادم ... و تبعا لهذا القلق الذي ينتابني أرى شيئا فشيئا و دون وعي و حيث أجد نفسي متعلقا بهذا الكائن الصغير الذي يحوز مكانا ضيقا و الذي خارج ضعفه يسكنه تصميم يفوق الروعة...

لقد حدثتها عن حالتها الصحية و بابتسامة ردت:

. نعم أنا مصابة بداء السل منذ مدة طويلة عندما كنت ممرضة في مصحة . تؤمان . حيث معبر المهاجرين الروس الى سيبريا ومنذ أن شعرت بالأعراض الأولى بدأت في معالجة نفسي و كنت أود مناقشة رسالتي للدكتوراه بنجاح وبعدها كان كل أملي انني أعمل بعض السنوات....

وقد تخللت هذه الكلمات نظرة رمادية و أنها لا تريد التعمق في مثل هذه المسألة ولا تريد ترك المجال لحزنها لكي يتشكل إنها خائفة ... هناك صراع متناقض بين وجودها و حالة صحتها المتردية لأنها تجتاز أزمة صعبة و خطيرة مفادها العمل الشاق و المعقد الذي يتوجب عليها.

وكم كنت معجبة بشجاعتها الهادئة و هي كلها رغبة من أن تكون مفيدة في الظرف الذي لا أستطيع مساعدتها .. فهي ليست بحاجة الى تشجيع ولا الى عزاء ... فهي لاتريد طبيبا لمعالجتها مادامت على دراية بضرها وعلى دراية بما يقوم به الطبيب إتجاهها ففي حدود تخميناتي أن السر الذي تريد الاحتفاظ به حجته ضعيفة فهي ليست خائفة أن تسمع من أحد لكي يقول بصوت عال و بكلمات يائسة و حادة بما تفكر به ؟

وخلال الثلاثة أشهر المنصرمة كانت حالتها الصحية مستقرة تبعا للعلاج الذي تلقته و تحديدا ما كنت أوفره لها من مقويات في حدود إمكانات مواردي المالية بسبب خلاف عابر ما عائلتي و الذي سبب لي الكثير من الحرمان من الدعم ومن جهتها (شوشينا) إستطاعت الوقوف على رجليها بإستثناء نظراتها المربكة أحيانا و التي تبدو مضطربة.

مع ذلك صفاء طباعها لم يتضاءل ولا حضورها الى العمل و ما يبدو عليها أنها صارت هزيلة أكثر من السابق و السعال الجاف صار أيضا لا يبارحها و منذ أيام و في إستشارتها لصديقتنا (إدوارد وانا) الطبيبة الخبيرة الراعية لها :

. أعتني بنفسك وحذار من ضربة برد و تغذي جيدا و تناولي الكثير من المقويات و الكريوزوت أيضا ...

وقالت لي ماري (ادواردوانا) قولا ينم عن خطورة محزنة ...

. نهايتها قريبة جدا ؟إ ,, هذه الفتاة تمتلك إرادة كبيرة وتموت ببطء و موتها محزنة لأن نهايتها ستكون متزامنة مع الإنتهاء من عملها الشاق و حيث تعتقد أنها تبدأ عملها الفعلي و الذي كان كل هدفها في حياتها.

. هل انت واثقة من أن وضعها الصحي سيؤهلها الى غاية تاريخ مناقشة اطروحتها ؟إ

حينها (ماري ادواردوانا) أومأت برأسها بطريقة مريبة ... و عندما التحقت بشوشانة وجدتها جالسة على سريرها و متلاشية في حالة استثنائية من الإنتظار الى درجة صدمتني بنظراتها المتلهفة الى استنطاقي حيث إندفعت في وجهي ..منعشة لنضالها المؤلم الذي تكبدته بعناد من أجل التمسك بالحياة والرغبة في العيش و الأمل الدائم ...وحينها كان من الصعب علي مقاومة أحاسيسها التي غزتني تحت نظراتها لأقول لها:

. ماري ادواروانا ... وجدتك هزيلة ومع ذلك لا شيء يدعو الى القلق و عليه أبقي متماسكة و أعتني
بنفسك

و لأول مرة(شوشينا) أمامي تثور و في آن واحد تنهار ...وبعد أن تشبك أصابع يداها بشكل متشنج

. أه مزيدا .. مزيدا.. من سنوات العمل ....؟.

و بعدها تصمت ؟إ وتنهض باسمة من جديد

. أنا في مداومة ليلية في مصحة التوليد و التي تبدو ليتها سيئة لا تقلقي ؟

. ممكن استخلفك اذا شئت

. آه .. لا ... تعرفين أنني أعد أطروحتي ,,,ولا يجب أن افقد الكثير من الملاظات هي مفيدة في بحثي ....

ومنذ ذلك الوقت دأبت دائما على الرغم من هزالها من ساعة الى أخرى ,,,إنني أحس مسبقا أن الفراغ الذي ستتركه لي سيكون عميقا ؟ .. و أعمق من الذي اتصوره بعد موتها.

*شوشانة .... ماتت في حدود منتصف الليل ...؟

كانت طريحة الفراش قرابة ثمانية أيام ؟إ و يوم الجمعة الفارط كانت منهكة جدا ...تحت ضغط السعال وكانت تأمل أن تحضر درسا مهما ... لقد عادت في وقت متأخر الى غرفتها وقالت لي :

. أنا مرهقة جدا ...و سأنام و غدا أشرع في تلخيص كل ما احتاجه في الإمتحان ...لم يبق الا ثمانية أيام على مناقشة الأطروحة.

*حينها قرأت....؟.

وفجأة سمعت أنينا من غرفة (شوشينا ....)

*دخلت ....؟.

وجدتها جالسة و يداها ممسكتين ببطانية وعينيها مشرقتين و نظراتها كلها غموض و بعد أن لمحتني قالت:

. متى ؟ متى ؟ في أي تاريخ نحن ؟.

كنت خائفة من التغير الذي حدث على صوتها ؟ فقد كان متشنجا و محموما...

. نحن في اليوم السادس من هذا الشهر ؟إ... في اليوم السادس ..؟إ ولم يبق إلا ثمانية أيام ... ولم أنجز أي شيء أي شيء ؟إ...

كانت في هذيان ...وفجأة سقطت برأسها على الوسادة مغمضة العينين ..حينها أستغليت الحيز الزمني لهدؤها و صعدت أبحث عن صديق في المستشفى ...و قضينا بقية الليل عند حافة رجليها اللذين كانا مددين و تتقلصان من حين لآخر حيث زادت من روعنا بعد أن فقدت وعيها و تلتها هلوسة داكنة و تجمد لعضلات وجهها حيث أيضا أحدث تشوها يشبه الزهرة الذابلة المحجبة باللون الأزرق الذي ليس له شكلا وكلما خرجت من غيبوبتها الثقيلة تبدي حزنا أكثر و كله يأسا وتحاول التحقق من التاريخ من خلال الجرائد اليومية و عبر الضبابية التي إجتاحت ذكاءها ...

. يا إلاهي أنتما تقولان أشياء غير دقيقة فمنذ يومين كنتما تقولان لي أننا في اليوم السابع اه أعطوني الجرائد و لا تفوتاني علي فرصة إجراء الإمتحان.....

وفي اللحظات التي كانت فيها هادئة أخذت يد (فلسوف) و خاطبته بتوسل وبنظرة حزينة جدا : (فلسوف) صديقي العزيز قل لي بصدق أنت تعرف أنني لا أعيش طويلا ....أرجوك لا تفوت علي هذه الفرصة ..؟إ اخبرني عشية الامتحان و أعدك انني سأقوم على رجلاي..

إن إرادة الأستمرارية في إنجاز عملها كانت قوية جدا لديها حتى و إن كان وهما تبعا لصحتها المتردية و مع ذلك تبقى مسرة وقوية ....ومع ذلك تبقى أيضا هذه اللحظات المطبوعة بالهدؤ بمثابة السكرات التي تسبق الموت ...لتعود ثانية الى الهذيان ؟إ ففي هذه اللحظات تخشى الوحدة كأي كائن ينفث آخر نفس له إنها ترغب أن تبقى دائما يقظة وكأنها ترى بالفعل شبحا و حظورنا يمنعه من الوصول اليه .....

و في هذه اللحظات تتوهم أنها في حجرة الإمتحان ,وفي صمت الليالي التي كلها ضجر ولا تتوقف على ترديد نظريات محاولة شرحها و تفسيرها و استخراجها بألم الواحدة تلوى الأخرى في هالة كبيرة من الفكر ومع كامل الحضور لذهنها...

شيء يدعو الى الغرابة حيث ولا لحظة ضاعت منها الا وكانت منطوية على الحاحها لمواصلة العلاج الذي ظلت متشبثة به الى آخر لحظة و في اليوم الأخير الذي سبق خروج روحها كانت صامتة و هادئة و نظراتها بكماء ومختلفة كأنها تطفو من بعيد ...ولا تسطيع تحديد ملامحنا وهذا على الرغم من التحديق فينا فمثلها كمثل الذي ينظر الى أجسادنا من الأقاصي البعيدة ....جسدها الهزيل و الواهن ...

.ووجهها صار مثل الزاوية الحادة يظهر بالكاد من تحت ستار أبيض على سرير قديم مزدوج و رأسها على وسادة لينة كلها كأبة و عديمة الإحساس....

*قالت ادواروانا لنا:

. لا تتركانها لوحدها فقد قربت نهايتها ؟.

وفعلا بقيت أنا و(فلسوف) الى جانبها في صمت رهيب مثل الذي يسهر مع الموتى ... كان يوما طويلا من الإنتظار للحصول على شيء مرغوب فيه، ولكنه عنيد ؟!

منذ عدة أيام(شوشانة) لم تعد تكلمنا عن إمتحاناتها و لا بموعد تاريخ اجرائها وحينها كنا مرتاحين لهذا النسيان و في حدود الخامسة مساءا و في الحيز الزمني للغسق الخريفي البارد المخيم على الغرفة حينها (شوشينا) نطقت بهذه الكلمات ففي البدء كان همسا متقاطعا ثم تماسكت و تكلمت بوضوح

يوم الأحد .. كان تاريخه ..8 .. نعم 8؟...و يوم الأثنين ؟... الأثنين ...9 ؟!

ومع وضوح من الإستغراب ...وعلى الرغم من خداعنا لها ومع ذلك كانت واعية بالأيام و تواريخها ...وعندما إقتربت من التاريخ الحاسم لقدرها : 15..وهنا ترقى إثارتها فقد هبت من مكانها وجلست ممددة ذراعيها أمامها .. و عيناها كانتا مفتوحتين وخديها ملونين و شفتيها يغمرهما الجفاف وفي هالة من الإرتعاش ..

. لكن تاريخ اليوم هو :15.....وهو يوم إجراء الإمتحانات ...و نحن في حيز المساء .. و لماذا لم تخبران بذلك ؟! ... أوغاد ... آه أوغاد ... سأخبرهم ... سأذهب .... أعطوني ملابسي.....

و رمت بالأغطية التي كانت تتدثر بها محاولة القيام لكنها لم تقو على ذلك و سقطت على السرير في حالة يرثى لها من شحوب ساخط و بعينين منغلقتين و و ارتعاش لجسدها

ماتت قالها (سفلوس) و مال بإتجاهها

ثم سكنت (شوشانة) و بعينين مفتوحتين ثم نظرت الينا للمرة الأولى ومنذ أن كانت طريحة الفراش ... و نظرتها الأخيرة هذه كانت مشابهة لسابقتها و كلها وعي و عمق ... ابتسمت في وجوهنا ابتسامة هادئة

. حسنا إنتهى كل شيء ...أنا التي كنت دائما متشبثة بالحياة ...و العمل ....إنتهى كل شيء ....و أضافت مفارقة رهيبة من المرارة....

. تخطيت الدكتوراه.....؟

ثم ألقت بيدها البيضاء ... يدها الصغيرة الآيلة للموت ... تمددت باتجاه الكتب ..التي تركناها قرب سريرها ..وبذلت جهدا كبير في أخذ واحدا و سحبته على صدرها و أغلقت عينيها و و احتفظت بصمتها ... ثم ضمت الكتاب الى صدرها مثل الشيء الثمين و ببطء نزلت دمعتان ثقيلاتان .... دموع طفولية سالت على وجنتيها ...ووجهها كان معبرا عن نهاية ....؟إ ثم أيضا تمدد جسدها قليلا ... و يداها بقيت متشبة بالكتاب ...ثم صارت خاملة ...و عينيها النصف فارغة كانتا مفتوحتين ....بعدها ساد الغرفة صمتا و من جهته (فلسوف) بكى في صمت تحت ظلال توهج مصباح ... وهناك في الشارع طلبة المان يرددون أغني ابتهاجا بنجحاهم في الامتحانات.

اليزابيت عمرها 18سنة حينما كانت طنالبة في جامعة جيرا سويسرا

مدينة جيرا

لالا اليزابات : حب بذوق طعم العرعار (تمقاد 1900م)...

==========

لقد ترعرت بالقرب من مقبرة .. حيث الخربة المحيطة بها و من آلاف السنين الفارطة ,, و حيث أيضا طفت روحها الغامضة .. وهنا كبرت و عاشت طفولتها بين الأطلال الرومانية ووسط الركام و الغبار وهي لا تعلم شيئا عن عظمة المكان الكئيب فهي رهينة القضاء و القدر.. ؟إ.. غريبة بحزنها بين كل فتيات قبيلتها كونها يسمينة و فقط...

أكواخ قريتها منبعثة من الآثار الرومانية (لتمقاد) وسط سهل مترامي الأطراف تناثرت به حصى تعود الى عهد تواجدها ... و أنقاض منتشرة هنا و هناك في فضاءات من الأشواك البرية الشائكة ووحدها الأعشاب التي تتحمل حرارة الصيف التي بإمكانها المقاومة ... وفي هذا المكان تتواجد هذه الأشواك بمختلف القياسات و الأحجام و الألوان بما في ذلك الزواحف,, و الكثير من الأزهار التي جففتها أشعة الشمس..

و قوس قزح الذي مازال ماثلا و مفتوحا على أفق حارق ,و أعمدة ضخمة مكللة بها رؤسها و أخرى متداعية وحشد من الأعمدة أيضا صاعد الى عنان السماء كأنه غاضب في ثورة لا طائل من ورائها و ضد الموت الذي , لا مفر منه ...ومدرجات في تدرجها تم كنسها حديثا ومنبر صامت و مسارات مهجورة هو موقع بات يشبه الهيكل العظمي بعد أن كان كله مجدا و إنتصارات لقياصرة تقهقروا مع مرور الزمن نظير ما تحويه هذه الأرض الإفريقية من غيرة و التي تلتهم ببطء كل الحضارات الأجنبية المعادية لروح المكان ؟إ.

بدءا من إشراقة الفجر و الى أبعد من جبل الأوراس المتوهج بقزحيته.... يسمينة تخرج من كوخها المتواضع و تسير ببطء عبر السهول و هي تدفع بقطيعها من الخراف و النعاج و المعز الهزيلين صوب حلق الواد البعيد عن الدوار بما فيه الكفاية . وحيث يتجمع عدد قليل من رعاة القبيلة و بعدها يسمينة تنزوي في مكان مفضلة عدم الإختلاط بالأطفال ... و تمضي معظم أيامها في صمت بعيدا عن أي شيء من شأنه يقلق أو يثير تفكيرها أو أثغاث أحلام يتعذر عليها تحديدها ...قد تكون غير قابلة للترجمة لأي لغة من اللغات الإنسانية.....

وفي بعض الأحيان و توسلا للمتعة . تقوم بقطف بعض الزهور الغريبة من عمق الواد الجاف و بمنأى عن الشمس ... و تارة تغني أغاني عربية ... ووالد ياسمينة الحاج سلمان المسن و أمها حبيبة لم تعد في ريعان شبابها بل هي الأخرى صارت عجوزا مثل المومياء بعد أن قدمت الكثير من الاعمال للكوخ و للحقل الشعير الصغير.....

و يسمينة لها إثنان من الأخوة الكبار التحقا بالعمل في صفوف السبايسية و تم إرسالهما الى الصحراء بعيدا ....و أختها الأكبرمنها فاظمة تزوجت بدوار أولاد (مريم) و لم يبق في الكوخ الا أخوتها الصغار.....

و أكبرهم لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره .. و بالتالي إشراقة الفجر في شفق حزين يسمينة الصغيرة مازالت ترى مرور ربيع مشابه لما هو في ذاكرتها .... و ذات مساء ومع بدء حلول فصل الصيف عادت يسمينة صاعدة هضبة (تمقاد) ... بقطيعها مع آخر إشعاع للشمس .. و حينها يسمينة كانت تغني أغنية صحراوية مضمونها كلمات تعزي بها نفسها عن غياب أخيها سليمان الذي لم تره منذ سنة و الذي تحبه كثيرا (يا القسمطينية / واش جابك هنا / أنت الي مكيش من بلادي / يا الي معيشتك مهيش في الرملة تعميك / يا القسمطينية جيت ومني أخذيت قلبي / و لوطنك أديتيه /حلفت ترجعي / وبإسم العالي / وقتاش ترجعي للنخلة / وقتاش ترجعي للواد / واذا ملقيتنيش في البيت البكاية / فتشي عني في دار الدايمة.

و تدريجيا تعلو الأغنية الحزينة الفضاءات الغير محدودة و ببطء أشعة الشمس تتلاشى في ربوع السهل ....وحينها كانت روح يسمينة البسيطة ساكنة ... نعم كانت روحها هادئة و عذبة و تشبه برك الغدير التي تتركها أمطار الربيع في المراعي الإفريقية و الذي لا يعكسه أي شيء ماعدا زرقة السماء اللامتناهية بدون ضباب.....

و عند دخولها أخبرتها أمها بأنها ستتزوج بمحمد لعور . القهواجي . من باتنة و حينها يسمينة بكت لأن محمد (أعور) و سيء الأخلاق ... و لم تتحمل صدمة المفاجأة الغير المتوقعة لهذا الزواج ... ثم هدأت من روعها و إبتسمت مستسلمة الى ما يعرف بالمكتوب و تمضي الأيام و يسمينة صارت لا تتردد على الرعي و صارت تكر س جل وقتها في إعداد لباس الزفاف ...و لا أحد فكر في معرفة إنطباعها إزاء هذا الزواج ان كانت سعيدة به أو لا ... و الذي حدث أنهم

زوجوها (بالأعور) و لا فرق بينه و بين أي مسلم آخر و هو ما هو معمول به أنه لا مكان للرضاء أو إعتبارات أخرى....

و أيضا يسمينة سيكون مصيرها أفضل من رفيقاتها في القبيلة التي سوف تغادرها فهي على الأقل سوف تسكن في المدينة و تصبح مثل الحضريات من اللائي تتوفرن لهن الرعاية و العلاج و التربية الراقية للاولاد.....

ومع ذلك يبقى إرتياحها منقوصا ... لأن الأطفال الرعاة صاروا يعيرونها ب . امرأة لعور . و تجنبا لهذه الاهانات صارت لا تذهب برفقة النساء لجلب الماء من الواد عند مغيب الشمس ... و ما تجدر الإشارة اليه وجود نافورة في ساحة البرج لكن الحارس الرومي يمنع السكان الأصليين من التقرب منها لجلب الماء العذب و الصافي ,, و مسموح للسكان بالتزود من ماء الواد المالح فقط و الذي تنجر عنه الكثير من الأمراض الحمى الخبيثة من جراء دوسه من كل البهائم صباحا و مساءا وتبولهم عليه و ذات يوم إتصل الأعور بوالد يسمينة و أخبره بانه ليس جاهزا لإقامة العرس قبل نهاية الخريف فقد تعذر عليه توفير المال المطلوب لدفع الصداق و تغطية مصاريف العرس و في هذا الحيز الزمني يسمينة أكملت ما يتطلبه الزفاف من إستعدادات و صارت جاهزة ...

و من جهته أحمد إستخلف أخته في رعي الغنم و لكن ما سلف ذكره لم يدم طويلا بسبب مرضه فعادت يسمينة ثانية الى الرعي.....

وسارت في ركاب أحلامها الغامضة بعذريتها البدائية حيث لم يغير قرب زفافها أي شيء في حياتها فيما يتعلق بالأمال و الطموحات و في كلمة واحدة فهي تبدو مثل فاقد الوعي ....

و فجأة يطرأ طارئ في حياتها وهو ظهور شاب فرنسي تم إنتدابه الى المكاتب العربية حيث إنتقل حديثا من فرنسا الى باتنة بناءا على طلبه بسبب قرفه من العيش في الثكنات العسكرية في مدينة . سان كير الفرنسية . و هو الذي كانت روحه مشدود ة الى خوض المغامرات الحالمة ...و سريعا صار هذا الشاب الفرنسي في مدينة باتنة صيادا ...يقطع المسافات الطويلة في البراري الجزائرية التي سحرته طبيعتها و بجمالها الفريد من نوعه ... فقد كان في أيام عطله و من كل يوم أحد يفضل أن يكون وحيدا عند بزوغ كل فجر في الممرات الجبلية الوعرة.

و في يوم غمرته أشعة الشمس حيث كان يدفع بحصانه في واد موحش و حيث أيضا كانت يسمينة ترعى بقطيعها ... حينها كانت جالسة على صخرة ومتظللة بأخرى تحيط بها أشجار العرعار وحينها أيضا كانت تداعب أغصان الأشجار بأناملها و وحنجرتها تصدع بأغنية بدوية مضمونها مزيج يجمع بين الفرح و القرح .. و الضابط الفرنسي من جهته شده لحن يسمينه و تماهى معه و لم يتأخر في اقتفاء أثره عبر الواد الى أن وصل الى مصدره و هو الذي لا يجيد ولا كلمة باللغة العربية.

. آ لا يوجد ماءا بهذا المكان ....؟إ

يسمينة لا ترد و تفضل مغادرة مكانها ؟إ.

. لماذا خفت مني ... أنا لا أريد الحاق بك أي ضرر ... ان لقاءنا هذا من باب الاستئناس فقط

لكن يسمينة هربت من عدو أبناء وطنها ؟إ و الضابط بقي يتابعها بنظره ... لقد بدت له رقيقة القوام متوارية في خرق زرقاء بوجهها الأسمر اللون و المنبعث منه عينين كبيرتين و سودويتين من العرق البربري و بمحياها المنطوي على الحزن كله غرابة في أحاسيسه التي تنم عن الطفولة بشفتيها السميكتين قليلا .. و أذنين رشيقتين يزينهما حلقان فيزيدانها سحرا لوجهها الجميل و على جبينها وشم ثلاثي بربري أزرق اللون وهو رمز الذي ليس له أي تفسير عند هؤلاء السكان الأصليين من الذين لم يكونوا أبدا مسحيين .. وجاء الإسلام ليغمرهم بالإيمان ..ورأسها مغطى بقناع صوفي ثقيل أسود اللون و ملفوف بفولارة حمراء اللون على شكل عمامة و مشبعة بالسحر الصوفي حيث صعب على الضابط الفرنسي جاك تفسيره و الإطلاع على خفياه.

بقي جاك متسمرا في مكانه حيث كانت جالسة يسمينة و هو في حالة تفكير و تدبر إزاء حياة هؤلاء البدو ... و إفريقيا هذه التي جاءها عن طواعية بدت له مثل العالم الغارق في الخيال المجهول في عمقه و الشعب العربي بكل تمظهراته الخاريجية و طباعه كان له الأثر البليغ برعايته في الوقت المناسب حيث لم تصدر أية معادة بين ما هو عربي و مسلم وحينها فهم أن هذا العمق هو مجرد تبليغ رسالة و فقط ...و هو على هذا الحال من صدمة المكان المبهج و بين وصوله وما قد ينجر عنه عند المغادرة ؟إ.

جاك الذي ينحدر من عائلة من طبقة النبلاء (لأردن) ...في وسط كله تقشف و المتمثل في معهد ديني ... قضى سنوات عديدة في (سان كير) و بروح أيضا ك متحفظة و منغلقة و لم تنفتح بعد على الحداثة الرامية على حد إعتقاده الى التداعي الأخلاقي .

ومع ذلك يحاول التخلي عن كل هذه الانطباعات التي تطغى عليه و هو بالفعل لا يعرف عن الجزائر و في الجزائر سوى الملحمة الرائعة و الدفاع البطولي و الذي لا أحد توقف عن نشرها خلال ثلاثين سنة ... وإزاء هذه الصدمة دائما أنه يحاول تحليل ما يتملكه من مشاعر و تصنيفها بطريقة أو أخرى فكريا.

و ذات يوم أحد و عندما وجد نفسه عبر مسار(تمقاد)... كان يكتنفه شعورا واضحا لرؤية البدوية الصغيرة التي مازالت محتفظة بطهرها و نقائها و من جهته سوف يبقى وفيا لضميره و لن يخونه في تعامله معها ... و لم يخف اعتراف التعلق بها و قد إشترى لها بعض الحلويات وفي مخياله أنه يبقى في تواصل معها ....مستغربا أمر أسرها له و هو الذي قضى اسبوعه الفارط يفكير فيها.....

لقد شد الرحال اليها عبر طريق جميلة (لومنباز) حيث سرع من مشي حصانه للقائها بفارغ من الصبر و بقلب يخرج من عالم المراهقة ....وحيدا و بعيدا عن الوطن و بعقل مازال محتفظا بعذريته لم يشوهه فجور باريس إنه الفراغ الذي يدفعه الى المجهول المثير للقلق و الذي بدأ يتمظهر في مغامرة مع هذه البدوية و أخيرا إندفع في حلق الواد الضيق و العميق و من هناك لمح قطيعا من المعز و الغنم و بين الفينة و الأخرى كان ينتظر ظهور يسمينة...

. ما إسمها ؟ كم عمرها ؟ هل ستكلمني هذه المرة ؟ أم ستفر من وجهي مثل المرة السابقة ؟

كان جاك يطرح على نفسه الكثير من الأسئلة المقلقة ....و الى جانب ذلك فهي لا تجيد اللغة الفرنسية و هو أيضا لا يجيد العربية ؟... ثم في الجهة العارية من الواد لمح يسمينة مستلقية على بطنها بين خرافها و واضعة رأسها بين يديها و ما أن رأته لم تتأخر في القيام من مكانها بطريقة عدائية من جديد ...

وتبعا لما تعودت عليه من خشونة في إبدائها للعمال الفرنسيين التابعين للفنون الجميلة و الذين يشتغلون في الموقع الأثري و حقدها و كرهها لكل ما هو مسيحي ؟

لكن جاك كان يتودد بابتسامته محاولا إقناعها بأنه لا يريد بها شرا ... ثم هو يراها صغيرة وجميلة بلباسها الأبيض و بالقرب منها (قربة) ماء تتدلى من ثلاثة أعمدة منتصبة .. حينها جاك أشار بأصبعه الى (قربة الماء) بأنه يريد إطفاء ضمأه و بعد أن شرب سلم لها كمشة من قطع الحلوى ... و يسمينة بدورها و بدون ان تمدد يدها و هي في حالة خجل و بنصف ابتسامة و بعد ان نهضت من مكانها و لأول مرة تحدق في عيني الرومي

. واش هوا (ماذا هذا ؟)

. حلوى قال ذلك متجاهلا بضحكته و كان سعيدا بذوبان الجليد الذي كان يفصلهما و عندما إنتهت يسمينة من مضغ حبة الحلوى قالت له بجفاء

. مرسي

. لا لا خذي كل الحلوى

. مرسي ... مرسي ... مرسي مسيو

. ما إسمك

و لكنها لم تفهمه و بعد أن تلى عليها قائمة طويلة من أسماء العربيات التي يعرفها ابتسمت وردت بقولها

. سمينة (يسمينة)

وعندما أراد الجلوس بالقرب منها لموصلة الحديث ,,, تخوفت منه وهربت .... و كل الأسابيع و تحديدا حينما يقترب يوم الأحد جاك كان يشعر بأنه .. يقوم بأعمال خاطئة ومن واجبه ترك هذه المخلوقة البريئة في سلام و لا يجعلها تعاني بسببه ومع ذلك فهو لا يمتلك قرار نفسه لمنعها من التوجه الى تمقاد ؟....

ومع مرور الأيام لم تعد يسمينة خائفة من الضابط جاك بل صارت تجالسه باستمرار محاولة شرح له بعض الأشياء باذلة في ذلك جهدا مضنيا و مع ذلك لا تسطيع إصالها له و عندما

يعجز جاك على فهمها تطلق يسمينة العنان لضحكها المبحوح الذي يجبرها على عكس رأسها الى الوراء فتتكشف أسنانها البيضاء التي أعطت لجاك الإحساس بالرغبة و متعة لانظير لها...ا

و تجاوزا لعدم الفهم ... قرر جاك تعلم اللغة الدارجة الجزائرية .. بحماس و هو ما أثار ضحك أصدقاءه الذي لا يخلو من السخرية : يجب عليه مقاطعتها ؟إ

ولكن جاك أحب يسمينة بجنون إنه حبه الأول لها, و هو الحساس و الحالم على الدوام و أيضا حبه ليسمينة أخذ شكل الحنان النابع من الروح ... و ما أحبه أيضا في يسمينة هو روحها البدوية لقد سكنت خياله الذي يشبه الواقع تقريبا المتمثل في إبتسامتها و إشعاعات نظراتها المنبعثة من عينيها الحزينتين و استماعه لأغانيها التي كلها نشاز في تسلسلها و أوازنها في بعض الأحيان.....

. من المستحيل ..... قالت ذلك و في صوتها نبرة حزن : أنت رومي ... أنت كافر ... و أنا مسلمة ... و كما تعرف أنه حرام عندنا مسلمة تتزوج بمسيحي ... أو يهودي ؟إ ومع ذلك فأنت جميل و طيب ؟

. أحبك

و ذات يوم و بكل سذاجة أخذته من ذراه وبعد أن نظرت فيه بحنو قالت له : أعتنق الديانة الإسلامية ... الأمر في غاية السهولة إرفع يدك اليمنى هكذا و ردد معي : لا اله الا الله محمدا رسول الله ... و ببطء و نزولا عند رغبتها ... راح جاك يردد ما طلبت منه .. لكن يسمينة لا تعرف أنه يمكن ترديد الشهادتين و بدون الإعتقاد بهما ...و كان كل ظنها أنه بمجرد أن ينطق الرومي بشهادتين يصير مؤمنا.....

و معتنقا للإسلام و جاك من جهته يجهل تماما كل هذه الأفكار البدائية من شعب أمي لا يعرف ماذا يفعل حسب فهمه.....

و ذات يوم وتلقائيا ..يسمينة منحته قبلة مطبوعة بالسعادة .. تركت في جاك أثرها البالغ بل جعلت كيانه ينقلب رأسا عن عقب .... حاليا و تبعا لما توفر له من ساعات مارس فيها حريته المطلقة ثم عاد مستعجلا على فرسه الى تمقاد و بالنسبة ليسمينة فإن جاك لم يعد رومي ولا

كافرا لأنه شهد بوحدانية الله و أن محمدا رسوله .... فقد كانت لديهما لحظة الفناء لا توصف ثم استيقظا بروح مستنيرة بضؤ جديد كانه منبعث من الظلام و الآن يمكن لجاك أن يقول ليسمينة كل الأشياء اللذيذة التي ملأت روحه و تعلمه للغة العربية كان مطردا ... و في بعض الأحيان يترجاها لكي تغني له و هو نائم بالقرب منها متوسدا ساقيها و عيناه مغلقتين ليسيح في في أحلامه الغامضة و العذبة.....

وفي المدة الأخيرة بدأت تخطر على باله فكرة فريدة من نوعها ...و حتى و إن كانت هذه الفكرة من بنات أفكار الطفولة و غير قابلة للتجسيد ومع ذلك فيها الكثير من المتعة ...فهو يفكر بجد في الإستقالة من هذه الحياة و يعلم أسرته في فرنسا بأنه لن يعود نهائيا و يبقى في الجزائر بجانب يسمينة ...و أيضا يستقيل من وظيفته و يغير لباسه ليصير مرتديا للبرنوس و العمامة توسلا لكسب وجوده في قصر من قصور الجنوب المشوب بالطء و الغفلة ... و عندما كان جاك بعيدا عن يسمينة بدأت تتضح له الكثير من الأمور بما فيها تحليلاته و انطباعاته و كان دائما يبتسم أمام ضبابيتها المشحونة بالحزن ...في حين و عندما يكون أمامها يتماهى معها بطريقة سهلة للاستمتاع بما يختلج في لواعج صدره فيحتضنها و يحدق في عينيها و يردد هذه الكلمات بالعربية:

. عزيزة عزيزة عزيزة.

ويسمينة لم تنتظر أبدا أن يكون جاك هو آخر حبها ؟إ ...وهي تعرف أن الكثير من بنات قريتها يخفين حبهن عن أسرهن بعناية ومع ذلك كل هذه المحاولات في الحب تنتهي الى الزواج ؟.....و اذن هي تعيش و سعيدة بدون تفكير و بدون أية رغبة التي تجلب لها السعادة الأبدية ....؟

أما بالنسبة لجاك فهو يرى بوضوح أن حبه ليسمينة لا يستمر و الى ما لا نهاية ... ففي تصوره يستحيل الزواج من شخص له عائلة هناك مع بدوية صغيرة التي يستحيل عليها التفكير في الإنتقال الى وسط آخر بعيدا و غريبا عنها ؟إ وهي التي أخبرته بأنها ستتزوج (بقهواجي) في المدينة في نهاية فصل الخريف.

. ولكن الوقت مازال مبكرا عن نهاية فصل الخريف.....

. عندما يقدمون على تزويجي من (الأعور) ... حينها قم بإخفائي في مكان في الجبل ...بعيدا عن المدينة حتى لا يتسن لهم العثور علي نهائيا ,,,أفضل السكن في الجبل ...حيث الأشجار الضخمة و التي يفوق عمرها عمر أي مسن ...و حيث الماء الصافي و المنعش و الدائم الجريان و الظلال و أيضا في الجبل طيور ريشها أحمر و أخضر و أصفر و التي على الدوام تصدح و أريد أسمع تغريداتها ..و النوم تحت ظلال الأشجار ,, و شرب مياه الينابيع المنعش ,,و بعد أن تخفيني في الجبل تأتي كل يوم لتراني .. و سأتعلم الغناء من الطيور لكي أغني لك كل ما حفظته منها .و بعد ها أقوم بتحفيظ إسمك للطيور ...لكي يرددونه عندما تكون غائبا...

و في بعض الأحيان كانت يسمينه تحدثه و هي تحبلق فيه بنظراتها الغريبة و التي تنطوي على الجد ؟إ...

. و لكن قل لي : طيور الجبل كلهم مسلمون و لا يغنون باسمك الرومي ...فهم لا ينطقون الا بالأسماء الاسلامية ...و أنا يجب علي أن اعطيك إسما حتى يتسنى لهم حفظه ...سوف أسميك ب (مبروك) .. الذي سيجلب لنا الحظ و السعادة ؟إ

و بالنسبة لجاك صارت له اللغة العربية مثل الموسيقى لأنها لسان حال يسمينة لقد كانت تحدثه و كأنها في حالة هذيان و من جهته جاك لم يعد يفكر في أي شيء بل كان سعيدا و فقط...

وذات يوم علم جاك أنه تم تعينه في الجنوب الوهراني ... و حينها إختلطت عليه الأمور فقد كان يقرأ نص برقية التعيين و يعيد قراءته و الذي يعتبره ظلما لأنه سيحرمه من يسمينة ...و بعدها يتزوجها القهواجي (الأعور) و لن يراها بعد ذلك ... و خلال أيام و أيام قضاها كلها في إحباط و يأس .. و كان كل أمله أنه يهتدي الى وسيلة تؤهله على عدم المغادرة ....مثل القيام بعملية التبادل مع صديق إلا أن كل جهوده بأت بالفشل .... .

و كم حاول جاك إخفاء عليها ما طرأ عليه من أزمات و عدم الظهور أمامها بملامح الضعيف ومع ذلك إجتاحته حمى و مرض على أثرها ...و في اللحظات و في الحيز الزمني الذي كان يعاني فيه خيبته فقد خطر بباله أن يتخذ قرارا حاسما و متطرفا : و هو القيام بتهريب يسمينة و الزواج بها ...و يصير بذلك مبروك الذي حلمت به ... لكن في آخر لحظة يأتي من يكبحه ؟إ ...: فهناك في(اردون) أب مسن و أم غزى شعرها الشيب و سيموتان حزنا على ابنهما .

الضابط الجميل جاك . مثل ما ينادونه في بلاده ومثل هذه التجوسات شغلت باله طيلة الليل .... .؟

و يسمينة من جهتها لاحظت الكثير من الحزن و القلق المتزايد على (مبروكها) ...و مع ذلك لم يكشف لها حقيقة حزنه بل قال لها فقط أن أمه مريضة (في فرنسا) و يسمينة تجتهد في تهدئته و إقناعه بأنه لا مفر من ما يقدره الله لنا.....ا...

. مبروك : كلنا بين يدي الله ...و كلنا نموت للعودة اليه ... لا تبكي يا مبروك هذا مكتوب ...

ـ نعم . معتقدا بمرارة . كلنا و من يوم لآخر سننفصل عن كل ما هو عزيز علينا . ثم واصل الحديث بينه و بيم نفسه . و من يكون هذا المصير و هذا المكتوب ... الذي تحدثني عنه ؟ هل فعلا سننفصل و نحن على قيد الحياة و الى الابد ؟إ

و أخيرا و بعد أن ثبت أمر تحويله قرر جاك التوجه الى تيمقاد و هو مثقل بأعباء الحزن و القلق لإخبار يسمينة بالحقيقة و أنه سيجتهد في إقناعها بأن رحيلة لن يكون بمثابة إنفصال نهائي .. لقد أخبرها بأنه لن يغيب عنها طويلا و أن رحلته هي مجرد غياب في مهمة لا تستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر وحينها كان ينتظر منها إنفجارا كله يأس و تمزق ...و على الرغم من أنها كانت واقفة أمامه و لكنها لم تكن مهتمة به ...بل كانت تنظر في وجهه فقط و كأنها تريد قراءة ما يدور بخلده من أفكار بنظرات بكماء ...إنه يتفهم حالتها و هو ما يؤرقه كثيرا يا إلاهي إنها تعتقد بانني تخليت عنها و عن طواعية وكم حاول شرح لها وضعه و أنه لا يمتلك قرار نفسه لكن بالنسبة ليسمينة أن أي ضابط فرنسي فهو من علية الناس و يستطيع فعل ما يريد.....؟.

و تبقى يسمينة محدقة في عيني جاك و تظل محتفظة بصمتها لكن جاك لا يستطيع تحمل سهام نظراتها و يبادر الى احتضانها.....ا

. اه عزيزة عزيزة أنت غاضبة مني آلا تريني ,,, إن قلبي مجروح و أنني أرغب في البقاء معك عوض الرحيل لكن ... يسمينة قابلت استعطافه بعينين عابستين

. أنت تكذب أنت تكذب أنت لا تحب يسمينة و أنت تكذب عندما تعدني بعودتك قريبا لا أنت لن تعود ابدا ابدا ابدا .....؟

لقد كررت يسمينة هذه الكلمات بصفة رسمية و تلقاها جاك بمثابة صدمة عنيفة:

. أبدا أبدا أبدا . انها تعني الموت بالنسبة له بل الموت النهائي...

. نعم أنت مغادر ...و ستتزوج برومية هناك في فرنسا

و فجأة لهب مظلم ينبعث في عيني سمية ثم أزاحت ذراعي جاك اللذين كان يحتضنانها بعنف و بصقت على الأرض و بإزدراء وبحركة كلها سخط إزاء موقف جاك معها ...

. كلاب و أبناء كلاب أبناء الرومية ؟

. أوه ياسمينة كم أنت ظلمة أقسم لك أنني ترجيت كل أصدقائي لكي يستخلفونني في هذه المهمة و لكنهم لم يستجبوا لي ....؟إ.

. أنت ترى بأن أمر الضابط لا يستجاب له ..؟إ .

. لكن أنا من ترجيت أصدقائي لكي يذهب أي واحد بدلي و هم لا يخضعون الى أوامري و لكن أنا أخضع لأوامر الجنرال من وزارة الحرب..... ....

و لكن يسمينة ظلت على موقفها مستولية عليها الشكوك و الذي كله عداء و إنغلاق وجاك من جهته لم يكن ينتظر كل هذا الإنفجار من يسمينة و هو في طريقه إليها و ظل الأثنان في صمت ...و تفصلهما هوة الأشياء الإستبدادية الأروبية المهمنة عليه و على حياته و التي لا يمكن ليسمينة فهمها أبدا ...

أخيرا و بقلب يطفح بالمرارة جاك بكى و سجد برأسه أمام رجلي يسمينة و عندما رأته على هذا الحال المزري تأكدت أنه كان ولا يزال صادقا معها ... ضمت رأسه الى صدرها و بكت معه طويلا.....

. مبروك قرة عيني و نور بصري و آخر نقطة في قلبي لا تبكي... مولاي لا ترحل يا سيدي .. إذا صممت على الرحيل فسوف ألقي بنفسي في طريق فرسك لكي أموت ....و إذا صممت على الرحيل خذني معك , و سأكون آمتك و أعتني بخدمة منزلك و خدمة فرسك ,,,و إذا مرضت سوف أمنحك دم عروقي لكي تشفى ...و أموت من أجلك يا مبروك.... يا سيدي خذني معك ؟ .

و يبقى جاك ملتزما الصمت بقلب مكسور أمام الإستحالة للإستجابة لطلبها .. و تستأنف يسمينة ترجياتها له: :

. تعالى و أرتدي الملابس العربية , و أنقذني و أنقذ نفسك ...حيث يكون ملاذنا الجبل أو أبعد من ذلك ....في الفيافي ببلاد(الشعابمة).. أو حتى التوارق , و ستصير مسلما وتنسى فرنسا ؟.

. لا أستطيع ... لا تطلبي مني المستحيل ... لدي هناك أم و أب مسنان ... في فرنسا و يموتان حزنا ,,,, أه الله وحده من يعلم كم أرغب في إبقائك الى جانبي الى لأبد .....؟.

.....

.....وأخيرا ساعة الوداع رنت ... و في هذا الوداع هناك إحساس لدى واحد منهما أنه سيكون أبدي ...لقد ضمنا قبلتهما الأخيرة كل ما تنطويه الروح ...؟إ ...و بقيت يسمينة تتصنت لوقع خطوات فرس جاك, و هو عائد الى المدينة .. و عندما إختفى في السهل و عاد الصمت المعتاد من جديد إستلقت يسمينة على الأرض و راحت تبكي حرقة على غياب مبروكها...

وبعد مرور شهر على غيابه عاشت يسمينة في سبات ممل ...كانت تقضي أيامها في واد موحش

مستلقية على الأرض بدون حراك ..و هي التي تعرف أن لا شيء يدار خارج المكتوب , و عليها تقبل كل ما يصادفها بحلوه ومره و يبقى ما تعانيه مجرد آلام مجبرة على تحملها نعم معاناة مستمرة بدون توقف معاناة قاسية و غير منصفة من كائنات فاقدة للوعي سواء كانوا أطفالا أو حيوانات من المحرمين , من العزاء لفهم سبب المعاناة ...؟إ.

ومثل كل البدو هناك مزيج غير مميز حيث الدم الأسيوي تفرق بين قبائل الشوية و البربر ... الخ و يسمينة لا تحوز من التعاليم الاسلامية إلا بعض المفاهيم المبهمة .. فهي ما تعرفه عن

الإسلام سوى أن الله واحد الأحد ..وهو الخالق ورب العلمين ,,, و هو رب الكون ...و أن محمدا رسوله (ص) و أن القرآن كتابه ... و تحفظ سورتان أو ثلاثة سور كالتي لا يجهلها أي مسلم,,,

و يسمينة لا تعرف من الفرنسيين إلا الذين يحرسون آثار(تمقاد).. و يعملون بحفرياتها ...و أن أفراد قبيلتها عانوا منهم الإضطهاد و القهر و هم أعداء و لا يمكن المصالحة بينهم و بين العرب ... و كم حاول جاك عبثا تغيير نظرتها إتجاه الفرنسيين بأن فيهم من لا يكرهون المسلمين ... لكن في قرارة نفسه كان يعلم أن بعض المسؤلين الفرنسيين بمعاملاتهم الوحشية , هم من جعلوا الفرنسيين و كل الفرنسيين في نظر هؤلاء البدويين سيئين ؟إ.

و يسمينة أيضا كانت تسمع تشكيات عرب الضواحي من أعباء الضرائب التي كانت تسحقهم و تروعهم , و التي يفرضها المحتل الفرنسي عليهم اضافة الى سلب الإدارة الإستعمارية لممتلكاتهم ... وعليه لو كان هؤلاء الفرنسيين من الطبيين لبقوا في بلدهم و لا يأتون من بعيد ....و كل ما سلف ذكره تتعاطى معه يسمينة بذكائها المحدود و هذا كل ما يشغلها...ا....

بدأت يسمينة تفكر فيما يحيط بها بشكل واسع ومن اليوم الذي عرفت فيه الحب ومنذ أن عاد جاك الى باتنة لقد بقيت في حالة تأمل و تدبر متسائلة حول ما يفعله جاك و كيف يعيش و هل يخلاط النساء الروميات اللائي يخرجن بدون حجاب , و يرتدين فساتين الحرير, و يضعن على رؤسهن القبعات كاللواتي يزرن آثار (تمقاد) ثم تغمرها موجة من الغيرة سرعان ما تلهب قلبها . لقد عانت يسمينة الكثير و منذ أن غادر جاك الى وهران البعيدة ومنه بدأت تتأكد لها بعض الظنون؟إ.

و في بعض الأحيان و في عزلتها الموحشة ...تغني بعض القصائد التي أحبتها تتخللها تنهيدات محزنة ثم لا تتوقف عن البكاء ... و لسانها ينفث اسم مبروك بكل التسميات العذبة و الناعمة , مترجية إياه لكي يعود اليها و كأنه حاضر أمامها و يسمعها ؟إ ..وسمية أمية لا تجيد القراءة و الكتابة و جاك لا يستطيع الكتابة و هو الضابط الذي لا يمكن أن يطلع أحد على رسائله أو ترجمتها ...و إذن فهي لا تستطيع معرفة أي جديد عنه ؟إ

و ذات يوم أحد كانت فيه مشدودة الى أحلامها المحزنة ... و إذا بها ترى فارسا من الأهالي مقبلا من جهة باتنة .. الفارس كان يرتدي بذلة السبايسي يدفع بحصانه في حلق الواد و كأنه يبحث عن شيء و فجأة يرى الفتاة البدوية الصغيرة ... فيناديها:

. الست سمينة بنت الحاج سالم ؟إ

. من أنت ؟ و كيف عرفتني ؟

. إذن أنت ؟إ ... أنا شريف بن علي الشاعمبي .. ضابط في صف السبايسية و صديق جاك ...اذن أنت حبيبته .....؟إ .

حينها يسمينة تملكها الخوف , لأن سرها صار مكشوفا من مسلم و من أبناء جلدتها ...و حاولت الهرب لكن الفارس سارع الى مسك ذراعها بالقوة.....

. الى أين أنت ذاهبة يا إبنة الآثمة ؟إ قطعت كل هذه المسافات , من أجل الوصول اليك و تريدين الفرار ..؟إ.

وعلى الرغم من كل ما بذلته من جهود لتخلص منه ومع ذلك باءت كلها بالفشل .

. أتركني ... أتركني أنا لا أعرف الذي تتكلم عنه و لم أحب أحدا.....ا...

و بعدها أطلق شريف العنان لضحكه؟إ....

. أكيد أنت تحبيه يا إبنة الآثمة ,,,و كنت سأقطع لك رأسك لو لم يكن جاك صديقي هيا إتبعيني الى أسفل الواد حتى لا يرانا أحدا ... عندي رسالة من جاك اليك سأقرأها لك ؟إ

و بفرح صفقت يسمينة .. وفي مضمونة الرسالة أخبرها بأنه يمكنها أن تثق في شريف ..و أنها لا تتعرض الى أي أذى منه و هو من أرسله اليها و قال أيضا أنه لا يفكر إلا فيها ...و سيبقى وفيا لها ..و أقسم لها في آخر الرسالة بأنه يحبها دائما ...و لن ينساها أبدا و أنه سيعود للعيش معها الى الأبد.....إ....

ما أقسم به جاك كان رائعا ...و قراره غير قابل للنقض ...و أخيرا يتغير كل شيء و تزول كل المخاوف و الأحزان ومنه روح يسمينة يعمها الصفاء ... بعدها ترجت يسمينة شريف لكي يخبر

جاك بأنها مازالت تحبه هي أيضا و تبقى وفية له مادام على قيد الحياة ...و ستبقى له الآمة المنقادة له وأنها مستعدة أن تكون التراب الذي يمشي عليه

شريف بعد أن يبتسم يخاطبها

. لو حبيت رجلا مسلما .. كان سيتزوجك طبقا للشرع ... و لن تكوني على هذه الحالة من ذرف الدمع ..؟إ

. مكتوب .....؟إ

بعدها يمتطي شريف فرسه الرمادي تاركا وراءه غبارا ؟؟؟؟

ثم تتعقد أمور جاك مع يسمينة إنطلاقا من إعادة تعيين شريف في الصحراء وهو الذي كان كل ثقته و بالتالي فهو لا يجرأ على مراسلتها خوفا عليها من أذى سكان الدوار من الذين إذا علموا فإن الأمور ستكون كارثية على يسمينة و تدريجيا و بعد يأس إستولى عليه من الساعات الاولى ثم فجاة بدأ السلام يعم قلبه , و في الجنوبي الوهرني و في إحدى القصور تعرف على بعض الأصدقاء الفرنسيين المهذبين و المميزين جدا.....

حيث يحوزون مكتبة حينها جاك وجد ما يقرأ و من هنا بدأ يفكر في أشياء كانت تبدو له غريبة و صارت له أفاقا جديدة ... و بعدها عين بجري فيل (البيض) ثم تعرف على فتاة اسبانية و تحابا.....إ.

ومنه الصورة الساحرة ليسمينة بدأت تتقهقر الى الوراء فقد صارت مجرد ذكرى آيلة الى الزوال ... و أخيرا ظهر محمد القهواجي (الأعور) ليخبر أسرتها بأنه صار جاهزا لإقامة العرس ...و بقيت يسمينة تواجه مصيرها لوحدها ... لأنه بغريزتها شعرت أن جاك تخلى عنها وعليه من اليوم فصاعدا فقد صار لها الأمر سيان.....؟إ.

ثم بدأ يجتاح قلبها الكثير من القلق ازاء زواجها و هي التي صارت فعلا زوجة للقهواجي (الأعور) . فجاة طفت على السطح مشاجرة بين محمد (الأعور) ووالد يسمينة سببها مصلحة . حيث تم على إثرها طرد (الأعور) ومنه لم تعد يسمينة من نصيبه بل صارت من نصيب رجل آخر و المسمى عبد القادر بن إسماعيل السبايسي...فهو جميل و أنيق و لكن سيرته في وظيفته لست بالمحمودة و مع ذلك رؤساءه كثيرين الإعجاب به لذكائه و و شجاعته وجرأته ؟إ.

ومن جهته عبدالقادر السبايسي كان سعيدا بسمينة ذات الخمس عشرة سنة , و سعيدا بها لأنه وجدها جميلة و المرأة التي تليق به و مقابل هذه المواصفات فقد ضاعف قيمة المهر الذي لن يكون بمقدور محمد (لعور) منافسته أو الصمود في المزاد ومثل هذا المبلغ المالي المغري ترك العجوز والد يسمينة لا يتردد في تفضيل عبد القادر عن الأعور الهواجي ؟إ ...

إضافة الى ذلك فالعريس الجديد ينتمي الى عائلة كبيرة في مدينة قالمة و ما تجدر الإشارة اليه أن عبد القادر . دخل في خصومة مع أسرته إزاء اختياره الأحادي هذا الذي لم يكن لهم فيه رأيا ؟إ.

وفي البدء فقد دام العرس في الدوار ثلاثة أيام ثم تم اسئنافه في المدينة ... ففي الدوار أطلقت الكثير من العيارات النارية و في المدينة حيث نظم حفل مهيب و كله عظمة و لعب الفرسان الكثير من المشاوير على خيولهم في جو مخمور بالفرح و السعادة و الذي كان متمظهرا في طلقات مدوية و صرخات لا أول لها و لا آخر و رقصات النساء على إيقاعات البندير و نغمات الغايطة.....؟إ

و زينت يسمينة بأبهى الملابس المتمثلة في فساتين من (الموسلين) الأبيض الطويل و العريض و ذات الكمام أيضا في قياساتها , و القفطان المخملي الأزرق و المذهب و قندورة من الحرير المورد , وحيث تصدرت على كرسي وحيد في القاعة بين النساء بشيشية مطرزة بالكرز الأخضر و بمجوهرات من معدن الذهب و الفضة أما الرجال فقد كانوا في الشارع يمارسون العابهم في المقهى المقابل للمنزل المقام به حفل الزفاف.....إ..

و ما علمته يسمينة من بعض النساء أن شريف الشعامبي الذي حمل لها أول رسالة يكون قد رحل الى غير رجعة و منه تأكدت من إنعدام آخر بريق أمل مع جاك ....ومساءا و حينما كانت

يسمينة رفقة عبد القادر لوحدهما لم تجرأ على رفع راسها في وجهه..؟إفهي لازالت وفية بحبها للرومي ؟إ .. و حتى و إن إستخلف السبايسي الأعور و مع ذلك لم يتغير فيها شيئا و لم يترتب عن هذا التغيير أي فرح ....فعلى العكس فهي لم تعرف من الأعور الا الطيبة بينما السبايسي فكله رعونة لا تطاق .... و حينما علم أن يسمينة تخفي عنه سرا حينها تملك عبد القادر الغضب و راح يضربها بعنف ... محاولا إستنطاقها تحت التعذيب و أخيرا كشفت له عن حقيقة سرها.....ا

. إنه ضابط .... مسلم ...وهذا منذ فترة طويلة ....و رحل و لن يعود ....؟إ. و إنقاذا من ما تعانيه من الرعب من زوجها نطقت بإسم الشريف الضابط في صفوف السبايسية و لم تصدقه القول بأن من كانت معه في علاقة هو الرومي ...؟إ...و ذلك تجنبا لغضب أكثر من عبد القادر ... و هنا بدأ غضبه يتلاشى شيئا فشيئا مقنعا نفسه بالتالي : أكيد شريف لن يفضحها ... و مادام قد رحل فمن المؤكد لا أحد يعلم بهذا السر في القبيلة....

وبقي عبد القادر محتفظا بيسمينة كرهينة حيث كان دائما يبث الرعب في دوار سالم والد يسمينة مطالبا إياه باعادة له مال المهر الذي أخذه منه ؟إ ... وكم ندم الحاج سالم ساعة لا ينفع الندم من عدم تزويج إبنته الى محمد (الأعور) الرجل الطيب و بقيت يسمينة حزينة و صامتة تقضي معظم وقتها في خياطة الأقمشة لعمة عبد القادر المساة (دوجة) بغية بيعها للتاجر المزابي و كانت أيضا يسمينة تعيش رفقة أخت عبد القادر في المنزل و التي ستتزوج قريبا...؟إ.

وكان عبد القادر حينما يكون هادئا و ليس سكرانا يشتري ليسمينة الكثير من الهدايا و الحلويات و الألبسة و المجوهرات لكن عند ما يكون في حالة سكر فهو لا يتوقف عن ضربها بدون سبب و تماشيا مع هذا التعنيف فقد صارت يسمينة مع الأيام و الشهور غير مكترثة لضربه ...؟إ.. ظلت محتفظة بصمتها و مخنوقة بين أربعة جدران و منغلقة على نفسها معربة عن حزنها و أسفها على السهل و الأثار و الواد مكان مسقط رأسها الذي اجتثت منه عنوة ... و عندما تأكد عبد القادر من حقد و كره يسمينة له زاد من وتيرة ضربه لها و حينما يراها تتلوى من آلآم الضرب وهي في هالة من الصراخ و البكاء يضمها الى صدره و يغطيها بقبلاته لمواساتها ؟إ.....إ.

وواصلت يسمينة حبها (لمبروكها الرومي) ...و أفكارها لا تتوقف عن التحليق في الجنوب الوهراني , و هي لا تعرف أبدا هل مازال على العهد ؟ سائلة نفسها سؤالا واحدا هل سيعود ؟إ ...و متى إختلت بنفسها و حيث لا يرها أحدا تشرع في البكاء في صمت ؟إ

أما جاك فقد نسي مغامرة حبه التي خاضها ذات فجر في حياته و في سهل موحش في تمقاد و التي لم تعمر إلا صيفا واحدا ... و لم يمر عاما كاملا على زواجها من عبد القادر و بعدها تحدث الكارثة حيث قام عبد القادر بضرب رئيسه خارج الوظيفة و بعد المحاكمة أدين بعشرة سنوات سجن ... و بسرعة البرق صار المنزل خاويا على عروشه حيث تزوجت أخت عبد القادر و ماتت عمته فيما بعد ...و على الرغم أن يسمينة بقيت وحدها في المنزل و ليس من يعيلها الا أنها رفضت الرجوع الى قبيلتها في تمقاد.....؟إ.

... و بقيت على طباع كلها غرابة في متهات الحزن و الصمت الرهيب و صار كل ما يشغلها هو جاك فهي لا تريد اعادة تجربة الزواج ثانية و تريد ان تبقى حرة لإنتظار مبروك و تريد أيضا إستغلال هذا الحيز الزمني من أجل إستعاب الراحة لقلبها و على الرغم من أنها لم تعثر على أي شيء مقابل حبها ومع ذلك تبقى وفية للغائب و لن تجرأ على نسيانه...

و بعد أن استنفذت يسمينة كل ما تركه لها عبد القادر من مال... اضطرت لى جمع ملابسها و تسليم المفاتيح الى المؤجر مالك المنزل و عندما أسدل الليل نقابه توجهت الى (الفلاج لكحل) الذي لا يبعد عن مدينة باتنة سوى ب خمسمائة متر في وسط مقفهر و لا يبعد عن المسجد و هذا الفلاج هو عبارة عن كتلة من الاكواخ المبنية من الطين و الخشب و تحوفه القذرات و يحيوي نساء مالطيات و يهوديات و بدويات من اللواتي لهن سوابق قضائية و يوجد بهذا الفلاج مقاهي بمواصفات ملاهي ليلية .. حيث تنظم بها سهرات بها نساء يغنين و يرقصن الى غاية العاشرة ليلا ... و في هذه المقاهي يتم تعاطي فيها الكيف و هي أماكن محمية و موظفة لترفيه العسكر ؟..

بقيت يسمينة و حيدة في هذا الفلاج ثم تعرفت على إمراة تعيش مع واحدة من (واد ريغ) و هما : سمرة وزهرة .. يعملان في إحدى المقاهي التي يديرها علي فرانك و الذي يدعي أنه مسلم تونسي. .....

لكن إسمه يعني جنسية أجنبية أخرى .. و سجله مثقل بالسوابق القضائية و مراقب من طرف الشرطة ... المغنيتان الإثنتان إقترحا على يسمينة لكي تقسمهما الغرفة و عندما تيقنت يسمينة أنها صارت و حيدة و مشردة تجاوبت مع اقتراح المغنيتين ؟إ

و مساءا ظهرت يسمينة لأول مرة في المقهى و هي تغني في قاعة فسيحة و منخفضة و مدخنة و منتشرة بها العقارب اللاسعة و مبنى المقهى من الطين و جدرانه مطلية بالجير وتزينه نقوش و رسومات و في الهامش الفاصل بين جدارين مقاعد وطاولات مصففة و في منتصف القاعة مساحة واسعة و في آخر القاعة مصرف خشبي و خلفه مصطبة من مادة التراب مغطاة بسجاد قديم من الحلفة....إ.

و يبدأ المشهد حيث سبعة مغنيات في جلستهن القرفصائية و هم على التوالي : الصديقتان ليسمينة ... سمرة و زهرة و حفصية من واد ريغ و عيشة من عنابة و يهوديتان : ستيترا و رحيل و الأخيرة أصيلة الكاف مرتدية للباس الرقص تونسي ومتمظهرة بالمظهر المصري : سروال طويل و سترة من الحرير المطرز وشعرها مسترسل في خفقانه و مشدود بشريط أحمر و تنتعل حذاءا من السطان ذو اللون الأبيض و العالي الكعب ..

وكل جسدها تغمره المجوهرات و يزين أذنيها حلقان متدليان على عنقها و خواتم في اصابعها ثقيلة ... بينما البدوية و المرأة ذات البشرة السوداء فهما يرتديان فساتين صحروية و هو نوع من اللحاف الأزرق الداكن مسترسلا على الكتفين مشكلا سترة , و على رأسهما مبنى معقد مكون من ضفائر مضفورة بخيوط حمراء و فولارات متناسقة البناء من الجبهة الى أعلى الرأس و مشدودة الى بعضها البعض في شكل دائري و مجوهرات مشدودة أيضا بسلاسل ذهبية....

و عندما تقوم واحدة منهن لترقص في القاعة بين المتفرجين الأخريات من المصطبة يصاحبنها بالغناء و تصفيق و الضرب على الدف بينما الصبي الصغير فيسترسل في العزف على الناي العربي برفقة الشاب اليهودي الذي يعزف على آلة المندلين ... و كل هذا الغناء المرفوق بالنغم و الرقص يضفي الحماس على القاعة بالصراخ و التنكيت و الضحك الى الحد الذي يصير كل ما فيها ملتهبا من كلمات بالفرنسية من هنا و أخرى بالعربية من هناك و في آخر المطاف يمتزج الصراخ باللغتين....إ.

. أنت حميلة جدا ...قالها سعيد شاب من البيض نفي الى أفريقيا و الذي أعجب بيسمينة التي حان دورها للرقص.....

كانت تبدو عليها الصرامة و الإنحياز الكلي لصمتها و حزنها لأن الوسط ليس بوسطها و لكنها صارت فريستة اللا إراديا ثم عميد السبايسية الذي يعرف عبد القادر بن اسماعيل و الذي يعرف يسمينة ...

. هذه زوجة عبدالقادر و ماذا تفعل هنا ؟إ

ثم الحتق بها و و عرف منها كامل قصتها ... ؟إ.

.....

.....

في وسط التضاريس القاحلة التي تلامس جزءا من جدران المدينة و أمام باب سجن (لنبيس) .ومن الجهة الأخرى الى حدود سفح الجبل .يقف المسجد شامخا ومعزولا بدون طراز و لا نعم ..تحت ضياء القمر السحري .. بدت ليسمينة شفافية عارمة للمكان و تقريبا كأنه يغتسل بإشعاعات ضؤ القمر....إ..

ومن جانب الفلاج (الأكحل) ...هناك ضجيج خافت للبند ير و القصبة أمام مقهى علي فرانك ... و حيث إمرأة تجلس على مقعد خشبي أبيض في وضعية مرفقيها على ساقيها و رأسها بين يديها ...تتابع المارة بنظراتها بعدم الإكتراث العميق و الاشمئزاز تقريبا .. و يبدو عليها الوهن و الضعف و خديها المحمرتين و الداكنتين و عينيها الغائرتين , و شفتين نحيفتين و مشدودتين من آثار الألم كانت تبدو و كانها تجاوزت عمرها الحقيقي بعشر سنوات و هي البدوية الصغيرة التي إنبعثت ذات يوم من آثار تمقاد بيد أنه و في قناعها الحزين و الذي كله معناة و عذاب لأن الثلاث سنوات الأخيرة التي قادتها الى هذا المستنقع لم يتون الحزن عن أي نقطة في ظلالها الا و شغله ومع ذلك ما زالت يسمينة محتفظة بجمالها ... جمال كله طلاوة و إثارة...إ....

و في كثير من الأحيان كان صدر يسمينة يهتز من سعال رهيب طال أمده .... مرت خمس سنوات على رحيل جاك الى الجنوب الوهراني ... و تبعا لتقلبات الحياة العسكرية. عاد جاك

الى باتنة برفقة زوجته الباريسية المشحونة بالإحساس و الحياة و التي تعرف عليها بمقاطعة نيس الفرنسية حينما تم نقله للعلاج هناك و لقضاء فترة نقاهة.....

..جاك الآن تغير و لم يعد مبروك ...؟إ. فقد صار متنكرا للبدو و لكل ذكرياته و للعلم لم يتون في إطلاع زوجته الباريسية عليها و لتبرير موقفه قال:

. كنت مجرد مراهق و حالم و مغامر ... آه لو تعرفين يا غاليتي كم كانت تنتابني الكثير من الأفكار السخيفة و التي كانت ملغمة ...فعلا كنت على وشك الإفلاس بسبب هذه الفتاة البدوية المتوحشة ... فلو سمحت لنفسي للولوج في هذا الجنون ...إنني أتساءل الآن كيف سيكون مصيري ... الله وحده الذي يعرف هذا المصير ؟إ.

و ذات مساء و حينما كان جاك في تجوال برفقة زوجته في نطاق شوارع تعد على أصابع اليد الواحدة والخالية من أي سحر جاذب قال لزوجته:

. تعالي أوريك فضاء الثكنات العسكرية و تحديدا البساطة التي تغمره و الذي يبدو لك أنه مازال محافظا على عذريته الطبيعية.....

و أثناء سيرهما التقى جاك بأحد أصدقائه الذي اقترح عليهما الذهاب الى فلاج الأكحل ...لأن ما يحوزه هذا الفلاج فيه ما يفرح ومن جهته قبل جاك الاقتراح و ذهبوا جميعا ووصولا الى هناك ترك جاك زوجته مع صديقه و عند مروره أمام مقهى فرانك يسمينة لم تتمالك نفسها حيث قفت من مكانها و صرخت.....؟إ.

. مبروك ....مبروك ... نعم أنت ؟

حينها جاك لم يعرفها لو لم تنطق باسم مبروك ؟إ و مع ذلك لم يبادلها حماسة اللقاء بل كان ينظر اليها بقلب تغزوه البرودة و لم يجد ما يقوله لها ؟ لقد لعن نفسه لأنه جاء بزوجته الى هنا ... ما هذه الفضيحة قال بينه و بين نفسه ؟إ

. مبروك مبروك آلا تعرفني انا سمينة ؟إ انظر الي جيدا ؟ إحتضني .. أعرف أنني تغيرت كثيرا ؟إ و لكن لا تحمل هما سأبرأ من أجلك .. لأنك هنا ؟إ

حينها جاك قرر أن ينهي هذه المغامرة الغير سارة على الفور ؟إ و سنده في ذلك اللغة العربية التي تعلمها من أجلها سابقا و قال::

. إسمعي لا تعولي علي لقد إنتهى كل شيء بيننا ... فأنا حاليا متزوج و أحب زوجتي ؟إ أتركوني و لا تبحثي عني بعد اليوم ؟إ أنسيني فهذا في صالحنا ؟إ

نظرت اليه بعينين مفتوحتين على مصرعيهما و في هالة من الذهول وقالت بينها و بين نفسها : و إذن هاهو آخر أمل الذي كان يمدني بالحياة فاذا به ينطفئ و الى الأبد ؟إ

نسي كل شيء ؟ لقد أحب الرومية زوجته ؟ ... هي من أحب ؟إ و ما عليها إلا أن تنعزل و تموت مثل الكلبة التي تم هجرها ؟ في صدرها حكم و في نفسها غليان إزاء هذا الجور ثم إندفعت بكلامها الذي كله تهديد ؟

. و اذن لماذا جئت تبحث عني في حلق الواد ؟ حيث كنت آمنة و مطمئنة بين خرافي و نعاجي و عنزاتي ؟ لماذا لم تتوقف على تقتفي أثري ؟ لماذا وظفت معي كل حيلك القذرة ؟وكل كذبك لإغوائي ؟ أين هي وعودك البراقة التي كنت تعدني بها بأنك ستعود و تأخذني معك ؟ لماذا كذبت علي حينما نطقت بشهادتين مدعيا اعتناقك للإسلام ؟ آلا تعلم أنني مازالت أحتفظ برسالتك التي أرسلتها لي مع الضابط الشعامبي (و اخرجت الرسالة من صدرها) لماذا أيها الرومي الكلب يا إبن الكلبة عدت من جديد و مع زوجتك الرومية في هذا الظرف لتجعلني محل سخرية بعد أن هجرتني و رميت بي ؟إ

ثم تنهدت و أجهشت بالبكاء وهي تسعل بمقذوفات من الدم ؟إ و بعد أن نظفت فمها بمنديلها رمته على وجه جاك قائلة:

. خذ أيها الثعلب و أشرب دمي ؟ أشرب و كن سعيدا أيها المجرم ؟

حينها جاك كان يتألم و في هالة من العار و الخجل من نفسه لأنه سبب لها كل هذه المعاناة ؟ و لكن ماذا باستطعاته فعله بينه و بين هذه البدوية البريئة ؟إ و قد إتسعت الهوة بينهما أكثر من أي وقت مضى ؟إ و تجاوزا لما هو فيه من رخس , و في الوقت نفسه لكي يتخلص من هذه المخلوقة .. حيث كان يعتقد أنه بكمشة من القطع النقدية يمكنه إنهاء الأزمة التي هو فيها ؟إ

. حسنا ...أنت فقيرة و مريضة و في أمس الحاجة الى العلاج ...خذي هذا المبلغ المالي ووداعا ؟إ

و بدا متلعثما و الخزي يطارده الى الأبد في الظرف الذي لا يجرأ على فعل أي شيء ؟إ أما يسمينة فقد بقيت جامدة بلا حراك ثم فجأة أمسكت بكمشة النقود و رمت بها على الأرض

وقالت:

. كلب ... جبان ... كافر ؟إ

أما جاك فقد طأطأ برأسه ...و التحق بزوجته و صديقه اللذين تخفيهما الأكواخ ؟

و بعدها سقطت يسمينة على مقعدها بعد أن تأوهت الكثير من التنهيدات المتشنجة ؟إ وسمرة ذات البشرة السوداء من جهتها بعد أن سمعت رنين القطع النقدية سارعت الى جمعها ثم ضمت يسمينة الى صدرها و راحت تخفف عنها بقولها:

. سمينة أختي لا تبكي ...كلهم هكذا ؟إ الروامة الكلاب أبناء الكلاب ؟إ لكن بالمال الذي منحه لك سنشتري به فساتين و مجوهرات ....و ستعالجين صدرك من المرض ... فقط لا تخبري علي فرانك ؟إ لأنه سيأخذ منك هذه النقود ؟ و لكن لا شيء يواسي أو يعزي يسمينة في مصابها ؟ ثم توقفت عن البكاء و النحيب و راحت تنتظر و تنتظر ما يجب فعله ؟إ يسمينة لم يبق لها شيئا تنتظره سوى الموت ؟إ و هكذا تستريح من معاناتها التي صارت لا تطاق ؟إ.

ما جرى لها هو مكتوب على جبينها ؟إ و لا فائدة ترجى من الرثاء و عليه يجب الإستلام الى النهاية مادام كل شيء إنهار فهي لم تعد بحاجة الى قلبها لتلمس منه الفرح أو الحزن ؟فما تحوزه من آلام و أحزان لا نهاية له ... وكم تألمت و هي ترى جاك حيا بجانب زوجته ؟ هي قريبة منه و لكنها بعيدة عنه كل البعد ....آه كم تمنته أن يكون ميتا في مقبرة الرومي و خلف باب

قسنطينة ...لم تكن تدري أن ساعات الفرح و الحزن التي قضتها في الواد في السنوات الخوالي ,,, تتحول الى عذاب رهيب في وقتها الراهن ... لقد أحب الرومية ؟! ... شعرت أن العذاب البشع سيقتلها و أملها الوحيد كان هو اليوم الذي ترى فيه جاك ؟ كانت تحدوها إرادة قوية من أجل الحياة لرؤيته و هذه الإرادة هي التي مكنتها من الصمود أمام كل الاحباطات ؟!

يسمينة الآن هي مجرد أشلاء تتحرك و فريسة للموت و دون مقاومة ؟! و فجأة مات الربيع الذي كان يملأ قلبها ؟! ...نعم إنطفأ كل شيء في روحها ؟! إنه المكتوب و لا مفر من المكتوب ؟!

و في حدود الحادية عشرة صباحا مر سبايسي بالقرب منها فوجدها لم تبارح مكانها فأحتار في أمرها و هي مسندة ظهرها الى الجدار و ذراعيها متدليتان وراسها مطأطأ

. هاي سمينة ما بك ؟

و لما ترد عليه وعاود السبايسي مخاطبتها:

. خوفتيني ... ما يقلقك إ بنتي ...هل أنت مخمورة ؟!

ثم أخذ يسمينة من يدها و أنحنى عليها ؟! و بعدها عاد الى وضعه ووجهه مقفهرا قائلا:

. لا حول ولا قوة الا بالله

يسمينة البدوية كأنها لم تكن ؟!!!

سمية البدوية

فلاج النيقرو

تيمقاد الأثرية

لالا اليزابت : تونس موطن العطر سنة 1889 م

==========

BLED EL –ATTAR ….(LA CITé DES PARFUMS)

إن حي العطارين , هو واحد من أعتق الأحياء لتونس ... و يقع على مقربة من جامع الزيتونة , الذي يعد متنفسا للإيمان و بجواره يوجد حي غارق في الظلال و البهجة ومنتعش على الدوام بالأحاسيس الجميلة و الألوان اللذيذة و بأرقى روائح العطور ... إنه سوق العطر ..الذي أسفل أعمدته المصففة و الملونة بالأحمر و الأخضر و أزقته الظلية في تتقاطع و استغاثة مليئة بالدهشة.....إ

و ممرات القصبة تبدو لك يمينا و يسارا مثل الخزانات الصغيرة المفتوحة ..متمظهرة في أكشاك العطر حيث يجلس بها الباعة التونسيين بوجوههم البراقة و عيونهم المشحونة بنظرات اللطف متأثرة بظلام المكان و انتعاش عطره . وبين التجار الشباب هناك واحد كله تميزا بفطنته الطبيعية . انه الشاذلي بن سهيلي الفقيه التقي و خريج جامع الزيتونة . ..و سي الشاذلي ودود و محبوب بأناقة سر لباسه الذي يعرفه بعض التونسيين و الموغل في العراقة .. لباس حرير ي وذو الوان منقرضة.....

كان سي الشاذلي متكئا بلا مبالاة على صندوق مصنوع من الأصداف الراقية .. و سي الشاذلي من عادته يطالع الكتب العربية في الشعر و الرواية .. و هي الكتب التي كانت موضوعة على مائدة أمامه ونرى عند مدخل كشكه فنجان قهوة بماء الزهر وقليون تبغ وفي مزهرية شفافة زرقاء اللون عليها اللمسات الزخرفية لأسطمبول و وردة منغولية مستقيمة التي سريعا ما تلف قلبك بأريعة أوراقها السميكة و العطرة:...

. فيما أنت سرحان سي الشاذلي ؟

غالبا ما يسائلونه أصدقاءه من التجار السوق بهكذا أسئلة ..لأنه دائما منزويا عنهم و لكن بدون ازدراء....

. أعتقد أن كل سعادتي في التدخين ولا شيء يسليني غيره و ما فيه الكفاية...إ.

وذات يوم توقفت عربة عند مدخل السوق ..

حيث نزلت منها نساء محجبات و دخلنا الى الزقاق التجاري المظلل ... بخطا متمايلة و أثناء تقدمهن التلقائي وصلن الى متجر سي الشاذلي الذي لفت إنتباههم لأنه كان ماثلا أمام صندوق خشبي منقوش ... الشاب لاحظ منذ دخولهن أنهن أجانب لأنهن كن يرتدين قبعات قسنطينية في وضع مائل ...و أصغرهن جلست على(بونك) و بدأت تتحدث بصوت رقيق يشبه زقزقة العصافير بعد أن اظهرت أصابعها الطويلة المصبوغة بالحنة و هي تلاعب قنينات العطر و علب العاج و قوالب المسك ... و بعد المفاوضات في أسعارها نهضت و جمعت مشترياتها التي اختارتها وخاطبته بغنج غير مكترثة.....

. إرسل مشترياتي الى منزل (لالا حنيني).. بحي الحلفوين ؟إ... لا ترسلها مع مرسول لأنها ثمينة ... بل أنت من ينقلها شخصيا ؟

وهي مغادرة حدقت في عيني سي الشاذلي بنظرة كلها هيام و إلحاح ...نظرة منبعثة من عينين واسعتين و سودويتين تركت فيه احساسا لذيذا و مطبوعا بالقلق و بدون أن يتمكن من تحريك رأسه حينها ... ورد عليها بابتسامة قائلا:

. متى ؟

. مساءا بعد المغرب

و اذن سي الشاذلي ؟إ لقد حان موعد أداء الصلاة .. و التي لا يتأخر على أدائها في المسجد كالمعتاد .. غادر متجره و هو غير راض على نفسه و صلى على عجل وروحه مضطربة بانشغالات أخرى ؟إ و في هذا الحيز الزمني كان لايزال الانعكاس أديم السماء من الغرب محمرا بضوئه بأعلى المدينة من جهة باب (القرجاني) .. و سكون عام يلف تونس في آخر إشعاع ملون .... و بحيوية أكثر من المعتادة سي شاذلي نزل الى حي (الحفلوين)..... و دخل في زقاق مقبب و بدون مخرج ثم توقف عند باب صغير ومنخفض و طرق الباب البيت الذي غزته الأعشاب المتوحشة.

. أشكون ؟ (من الطارق)

. حل (أفتح)

أبدا... العربي لا يعلن عن هويته في الشارع ولو أمام منزله .. الباب يفتح و تظهر من ورائه عجوز مرتدية الفوتة الزرقاء و التي عادة ما تظهرن بها النساء الفقيرات التونسيات...

. أنت قادم من سوق العطارين ؟

. نعم إإإإ

ثم قادته في فناء رحب غرست به ثلاث أشجار برتقال و في رواق الطابق الاول الذي قوسه ذو باب يحجب حريرا لماع مثل زهر الرومان,

. هنا إصعد ؟إ قالت مرشدته...

و في ظل منعش لسلم مزين بالزخرف الأزرق .... سي الشاذلي صعد و صدره منتفخا بالرغبة ...و أزاح الستار المرن الملتوي على يده مثل اللهب الدافء و هنا على سجاد سميك جريدي و بين وسائد مطرزة بالطرز المذهب حيث أمرأة نحيفة القوام ترتدي فستان من الشاش الأبيض و بكمامتين طويلتين و قفطان مخملي أخضر و الصياغة من معدن الذهب و عدة فساتين حريرية و قبعة . شيشية قسمطيني . مائلة و منمقة بفولارة ووشاح من سلسلتين ذهبيتين مثنيتين و متدلين على وجهها مما يزيدهما توهجا الى حد نصف سترتها...

. مرحبا بك أجلس إإإ

كانت جميلة .. ومن ذات المحاسن الغير دقيقة و إشعاع و سر دافئين نوعا ما مطبوع بالخيانة ... جلس بجانبها و العجوز تقدم لهما القهوة من باب واجب الضيافة في سينية منقوشة..

. هل النساء التونسيات جميلات مثل منوبة ؟ تساءلت العجوز ضاحكة بثغر عديم الأسنان...

. سي الشاذلي : منوبة تشبه الزهرة التي تخفيها الأوراق ؟

. منوبة : و أنت أيضا جميل سي الشاذلي...

منوبة و هي تلاعب مروحيتها محدثة رنينا بأساورها في كل حركة ..و خواتمها الثمينة و رديف رجليها يحدثان جلجلة خفيفة من تمدد جسدها الماكر على الصوف الناعم و هي لا تمتلك جرأة من محظيات تونس ..و سي شاذلي وعلى الرغم عنه.. لم يجد أمامها النغمة التي جذبته مع أخرى فقد كان بينهما تقريبا خشية بغية الإجتهاد للوصول المتعة...

. أسمع قالت له مخاطبة : ذهبت لشراء العطر قصد صرف الانتباه .. لكن عندما رأيتك قلبي تمناك مثل الجوهرة الثمينة ... و اذن لما لا تقول لي أي شيء ؟ لماذا تريد أن أكون خجولة منك ؟

. و لكن من أنت ؟إ ..ومن أين أتيت حتى تزعزعي راحة حزني هكذا ؟

. عنابة هي مدينتي ...و لكني ترعرعت في مدينة قسنطينة ...عند عمتي شقيقة أخت والدتي وجئت الى تونس لأنني أحسست بالملل ... و سي الشاذلي مال أكثر خفية للمس ساقي منوبة و محاولا اجتذابها بعينيه ... و حمحم:

. لا أنت مثل الحمامة التي جاءت صوب الحمام...

حينها إرتعدت السلاسل الذهبية المتدلية على خدي منوبة و العجوز من جهتها غادرت المكان و بقيا الاثنان في صمت نشوة الليل الذي اسدل ستاره في اطالة لأجل غير مسمى كله عذوبة و لذة تحدوهما الرغبة ..

الآن رأس منوبة منهكا و عنقها الجميل ممدد وكل ثراء حلقها في حركة للبحث عن قوة لمقاومة قهر صدر سي الشاذلي المتمادي في عناقها شيئا فشيئا الى الريتم النهائي للتقبيل في الرياض الأبدية الموعودة...

ومنذ ذلك اليوم صار سي الشاذلي كثير الغياب عن محله ... و نسي فتح كتبه مفضلا العيش في الأحلام ... سي الشاذلي الصاحب الخمسة والعشرين ربيعا يقول : لقد جرب كل الأشياء الممتعة و الى التخمة و لم يتشابه عليه الأمر أبدا أن الحب يمكن له ما يكفي من القوة لتغيير مكوينات الكون ... لقد اعطته الحياة الزهو و الطرف عندما إنساق في زقاق (الحلفوين..).

و عند حلول الظلام و في الصباح تسلل منهكا من اللذة متوجها الى الحمام ....كأن غشاء ا رقيقا تمزق على أرض ازهار اليسامين و حتى قبل الصلاة قال انه في الهواء إنتعش برائحة حبه .... سي الشاذلي لم يكشف عن سره الى أي كان مفضلا الإختناق به و متمظهرا بالشحوب الى الحد الذي اعتبره البعض مصاب بداء السل لكن والده الصارم سي مصطفى السهيلي لاحظ الكثير من التغيرات الاستثنائية على إبنه وهو ما دفعه وضعه الى التجسس عليه بذكاء و سريعا فضح سر مخبأ منوبة.. و صار معروفا من لدن والد سي الشاذلي...

وذات مساء و عندما طرق سي الشاذلي باب العجوز التونسية ردت عليه باكية

. لقد استولوا على حمامتك

. ماذا قلت ؟إ

. نعم سيدي .. اليوم رجال الباي جاؤا و قبضوا عليها و هي الآن في تيبورة القديمة و هذا على الرغم من مناداتها للاستنجاد بك و تشكياتها و قد قادوها الى محطة القطار لترحيلها الى الجزائر سي الشاذلي بقي جامدا في مكانه متوقفا عن مواصلة السؤال و مشككا في كل ما سمعه ولا يفهم شيئا .. ثم دخل الى الفناء المهجور و صعد في السلم المزخرف بالأزرق و بعنف مزق الستار حيث وجد الغرفة فارغة ثم جحظت عيناه بشكل رهيب و صرخ قائلا :

. سأعيدها ؟إ ... أقسم بالله الواحد الأحد .. و برسوله الكريم و ببركات الشيخ مصطفى بن عزوز شيخي في الدنيا و الآخرة أنني سأعثر عليها و أعيدها

ومنذ فترة طويلة و بصبر لا يطاق ظل سي الشاذلي يبحث عن أثر أو إستدلال يساعده للوصول الى منوبة و أخيرا علم من بعض الاصدقاء بأن منوبة فعلا رحلت الى عنابة . و أنها تعيش حياة المحظيات ومثل هذا الجديد عن منوبة ترك قلب سي الشاذلي يقفز أملا متجاوزا كل غضب ..؟إ . و سيتجه الى صديقته و سيمسح كل دموعها الصادقة و يغسل كل ما ألم بها من عار متخذا منها شريكا لحياته ..و يزيل عنها كل الأوجاع لكن والده الذي على قيد الحياة و الذي توجب طاعته توسل له عبثا من أجل الترخيص له بالسفر...

وبعدها سي الشاذلي أغلق محله و صار مسكونا تطارده أشباح منوبة و ملازما للمقابر و خرائب الضواحي وذات مرة قرر عدم العودة و عبثا حاول والده البحث عنه في كل مكان ؟إ لكن سي الشاذلي رحل مدفوعا بقوة حب ظل على الدوام يعصر قلبه ... و بقي الوالد يبكي حرقة الفراق ... منذ فترة طويلة و سي الشاذلي لا يتوقف في بحثه في الشوارع و المقاهي البيضاء لمدينة عنابة عن أي جديد و ما آلت اليه منوبة بحث عنها بين الذين لا علاقة لهم بالنساء ورافق أيضا بين كل من يترددون على الملاهي ؟إ

لقد مر عام على اختفاء منوبة ... عام كله تضليل و معلومات متضاربة حول مكان تواجدها و مصيرها ...و أخير سي الشاذلي جنح الى مدينة الجزائر وذات مساء في مقهى بباب الواد كان مزدحما من كل الأجناس و هناك التقي بصديق قديم له في تونس الذي صار نقيب في الجيش المحتل الفرنسي للمشاة وراحا يسترجعان الذكريات.

. منوبة بنت الخروبي ؟ عرفتها...

. كيف صار وضعها ؟

. ربي يرحمها ؟إ

ومن هول الصدمة سي الشاذلي أنهار في تلك اللحظة ... لقد تملكه إحساس بالإنغلاق على نفسه و عدم الخروج منها الى الأبد .... و هكذا تخلى عن وطنه و أسرته و ثروته وصار متشردا .. لقد بحث عن صديقته خلال سنة كاملة جمعت بين الخيبة و الأمل و لينتهي به المطاف هنا لكي يعلم بخبر وفاتها ؟

. ولكن متى ماتت ؟ و أين ماتت ؟

. بعد عودتها الى مدينة عنابة ... و قد مر على وفاتها شهرا تقريبا ..نعم بعد أن قضت بعض الوقت في الجزائر ... كله حزن و إحباط عميقين ... لقد كانت صاخرة و ضاحكة من كل شيء ... و أخيرا ماتت بعد أن إحترقت رئتها من الإدمان على الشرب ؟إ

. علي .. و هل تعرف مكان قبرها ؟

. لا و لكن الأخت الثانية لتيبورة حونية تعرفك على قبرها لأن تيبورة ماتت أيضا ؟

هنا ووراء الجبال المسننة الزرقاء و المغشاة بالكأبة تغيب الشمس معانقة التلة المقدسة المشجرة بأشجار السرو الأسود و أشجار التين الضخمة ذات الأغصان الملتوية ...هنا أيضا و أسفل الأحجار المنحوتة و الملونة ... المؤمنون الموتى من المسلمين يدفنون لنوم نومتهم التي لا توصف . فلا قتامة ولا حزن في هذه المقبرة المزدحمة بالأزهار و الكروم و الشجيرات حيث القبور المزينة بالرخام و الخزف الأبيضين و اللذين لا وجود لهم بين الأرض الحية ... الكل يتنفس الصمت اللا متناهي .. أمام حديقة السلام الأبدية المحفوفة بالحلم ... يتمدد الخليج الهائل بدون حراك في شكل مضلع بلون الوردي و الازرق و المذهب لأديم السماء و الغارق في الضياء...

تحت الأجنحة لأشرعتها اللآتينية و الأراجيح المالطية في فرار تبدو و كأنها مفصولة في الأثير بين مرآتين ما لا نهاية لهما ...هنا على التلة المقدسة تحت ظل شجرة صغيرة .. أنه قبر مزخرف باللون الأزرق و اللون الأبيض حيث ترقد امرأة بين صفيحتين حجريتين منتصبتين يمكننا قراءة العبارات التالية باللغة العربية على شاهدها :

. منوبة بنت محمد القسنطينية , الى الله تعود ودائعه , و لا إلاه إلآ الله ومحمد رسول الله .

في ساعة المغرب المشحونة بالصفا وعندما يتلون المساء باللون الوردي ... هناك رجل مرتدي للباس خشن بتمظهره العادي و الصارم يصعد الى حيث المقبرة الغارقة في الصمت لإنتظار سدول الليل ستاره مستذكرا ...الرجل بلباسه الأزرق لعسكر المشاة و بشيشيته الحمراء ووجهه الذي غلبت عليه السمرة و الهزيل الجسم ولا أحد بمقدوره معرفته بملامحه الشاحبة أنه عسكري من تونس ؟إ..

في ظل العطر الفواح و الصمت الثقيل لسوق العطر ...و في ظل كل هذا جامع الزيتونة الذي هو الآخر يلقي بظلاله الاسلامية الحزينة على الكشك الصغير متوهج بشموع متعددة الألوان حيث يجلس عجوز متكئا بمرفقه على صندوق من الصدف و المحتفظ بكثير من الذكريات لساعات , و ما تبقى له من أيام فيه غارقا في أحلامه الجامدة منتظرا و عيناه الجريحة و الذابلة و التي تغيرملمحها من جراء الدموع و ما يتألم منه ... هو باق على هذا الحال ... ومن حوله

يتغير من حال الى حال مثل تمثال مثير للصخرية ... باق يستمع الى دقات قلبه الخاوي متأملا عودة ابنه الذي لن يعود ... باق على قيد الحياة بقوة بقايا ما يتوفر عليه من قوة .

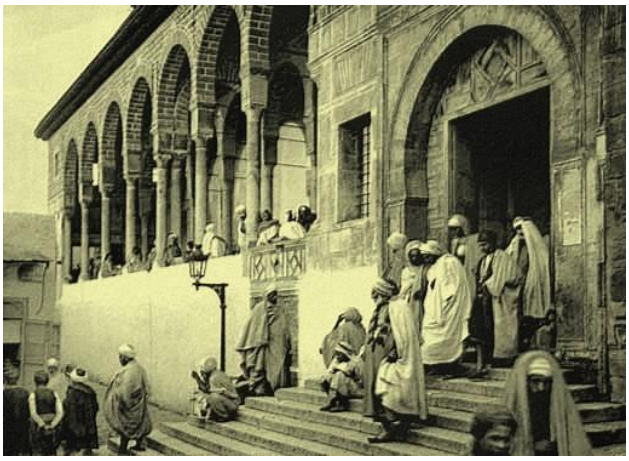

جامع الزيتونة

تونس

نساء من تونس

لالا اليزابات : بين سوسة و المنستير سنة 1889م

==========

مررت بواحدة من الأزمات النفسية التي تركت روحي محبطة , و منطوية على نفسها . و غير مهيأة لرؤية إنطباعاتها السارة ...بل هي فقط جانحة كل الجنوح الى الأوجاع ...ومع ذلك كل الرحلات التي قمت بها .. بدءا من منطقة الساحل التونسي .. و الذي كان أكثر هدوءا ... فبمجرد إمتطائي لقطار سوسة . حيث شعرت بإحساس فريد من الرضا المفاجئ ,, وهذا الإحساس العظيم بسعادته مرده مغادرة تونس العاصمة ؟!

يندفع القطار ببطء مثل المتكاسل ... حيث كان يتوقف عند كل المنعطفات .. و المحطات المزينة والمخضرة . مكسيلا رحيدس . أولا ,, و على مقربة من جديد من مباني بيضاء و المصارعة لأمواج البحر الآتية من بعيد ,, في حين الشمال الشرقي مازال يضيء البحيرة الراكدة .. ثم المنتجع الأرستوقراطي للمسلمين الأثرياء لحمام الليف.

و بعيدا ....طريق السكك الحديدية المخترقة للريف و المتمادية في نأيها عن الساحل ,, و من هنا تبدأ أجوائي المألوفة في موطن البدو كلها تلال محمرة , و حقول محصودة ترك بها الحصادون العرب بقايا القصب المذهب لإستثماره من رعاة البدو في رعي قطعان الغنم ,,,و هنا و هناك صور ظلية غريبة للبعير, و في بعض الأحيان جسر حديدي صغير يقطعه القطار و كذا الكثير من الوديان التي تعاني جفاف فصل الصيف و الغير معروفة تغزوها أشجار الدفلة.

لكن بعد بئر(بورقبة) وكلما إقترب القطار من الساحل البحر الذي يبدو هادئ بلونه البنفسجي و عاليا بلا هوادة تحت أديم السماء بعد الظهر , و على حافتي المسلك المسيج بمروج خضراء و غابات أشجار الزيتون التي تكون قد تجردت من غطائها المغبر من جراء الأمطار الأولى لفصل الخريف ,,و الساحل المنخفض يقسم عرضيا العراء الأخضر اللون و المسنن و المتمدد على المشهد المتزرق الساكن لخليج الحمامات هنا و هناك ثم فلاج صغير لصيادين متموقعا على صرح في الجزئي السفلي للمرفأ المطلي بالجير الأبيض الأصيل والمتجلي بلونه على المياه العميقة.

هو موطن جوانبه ساكنة لا تاريخ له و لا طباع ...فهو من الصعب معرفة بأي نقطة من الحيز سنتواجد ففي كل معبر نلمح الجمود على خيولهم الهزيلة و ذات الرؤس الحادة . فالبدويون هم ملتفون في اللباس التونسي . السفيري . و هو المظهر المغاير للجزائريين و المتمثل في البرنوس فشكل البدو التونسيين الذي تغلب عليه السمرة و جفاف على جوههم و حلقي الرؤس من جنس البربر.. بنظراتهم الغير مكترثة و الداكنة عند أغلبيتهم . حيث من(بوشيفة) ندخل الى بساتين

الزيتون المغطية للساحل التونسي في ليلة حارة و يطغى عليها السكون بعد منزل دار(بلعور) الكائن بقرية نائمة بدأت تلوح منها روائح عطرة .. و لكنها ثقيلة و مقززة و بعدها نقترب من معامل إستخراج الزيوت لسوسة.....

سأدخل مدينة سوسة التي لا أعرف فيها أحدا .. نعم سأدخلها بدون هدف محدد لدي و أيضا ولا مستعجلة لمسار ثابت ..خاصة و أن روحي هادئة و مفتوحة على كل الأحاسيس المعانقة لوصولي الى مدينة سوسة الجديدة بالنسبة لي.

سوسة هي مدينة عربية ملتوية و ساحرة .. و مبانيها متدرجة على تلة عالية و مسيجة بجدران ذات الطابع الشرقي.. و أسوارها مطلية باللون الأبيض الثلجي , و على منحدر التلة ومن خارجها بقايا مباني الأغريق ومقابر واسعة و مسيجة بالتين الشوكي (الهندي) المتمظهر بلوني الأحمر و الأصفر من جراء أنعكاس اشعة الشمس و في الأعلى أيضا مباني طويلة ومنخفضة و أسقفها حمراء و هذا الحيز يتلخص في ثكنة عسكرية..

سوسة مدينة جميلة و قديما كانت تسمى الجوهرة و حاليا صارت تسمى سوسة و التي معناها دودة القز و من سوسة الى المنستير الطريق ينحدر عبر البحر تحوفه الحدائق و الاكواخ الإيطالية ثم يواصل الطريق انحداره في ريف مقفهر كله كأبة مكون من حقول جدباء و مقطوعة بسبخة ناصعة البياض و لأول مرة تتمظهر لي هذه المنطقة تحت سماء منخفضة و تطغى عليها الغيوم و تتمدد في زرقتها الكئيبة في ليل خريفي أسدل ستاره لكن عما قريب تبدأ الحدائق في الظهور و نمر بين غابات الزيتون و برك مياه الغدير حيث البدويين يدفعون بقطعانهم و خيولهم نحوها.....زا

و تبقى مدينة المنستير فريدة من نوعها تجمع بين الجمال و الحزن متقهقرة على سطح البحر مثل كل مدنها ذات الطابع العربي بأضلاعها المنخفضة و مبعث أساساتها من أرض صخرية مالحة و بمنازلها ذات طابق و الرمادية و شوارع عديمة الأرصفة متشبهة بالواحات الصحروية الحزينة و متموقعة على حافة الشط لواد (غيغ) الغريب لكن الساحل بني به حزام لتكسير الامواج العاتية ومنه نسمع بإستمرار ضجيج امواج البحر الصادر من الخلجان المتصاعدة من(الكحلية) التي تفصل المدينة القديمة عن المرسى الجديد هذا الهمس الأبدي و الأنين العميق و الناعم يبدو لي متماديا و بعد سنوات الى حد بعيد و موسيقاه ستسحرني إذن طيلة تنقلاتي الإنفرادية لليالي الحالمة.....ا.

و المنستريون لا يشبهون مواطني تونس و مواطني سوسة الذين يتصفون بالكرم و اللطافة و دماثة الأخلاق ولا يمتلكون رفعة العظمة لا في السلم ولا في الحرب للجنس العربي و مثل مدينة سوسة مدينة المنستير تحوز في الجزء السفلي منها خليج رحب ذو حواف مقوسة ومفتوحة من الجهة الشرقية....ا...

وبدءا من المنستير الى قصر هلال الطريق يساير الساحل للحقول المحصودة و بساتين الزيتون هناك و في الصباح تتمظهر الشمس من أعالي البحر الأرجواني اللون و حيث يتحول كامل المشهد الى لون قزحي و في هذا الحيز الزمني نرى حشدا من الصيادين بكامل ملابسهم في الماء و الذهاب بعيدا في اندفاعهم في وسط الخليج بقفافهم و سلالهم و شباكهم و معداتهم البدائية للصيد...ا..

وفي افق هذا المكان المبهم غالبا ما يكون هادئا .. هؤلاء الصيادين في مساء بلا حدود بأشرعتهم اللاتينية الذات اللون الأرجواني انها قواربهم للصيد و هي تتصاعد من بعيد من صفاقص أو زرزيس و في خضم إنعكاس غروب الشمس ... و هناك قصر هلال و هي قرية مطلية بالجير الأبيض بين زرقة الماء و غابة من الزيتون الداكن اللون فوق مدرجات مسطحة و قباب صغيرة وهناك أيضا منارة بيضاء تقف شامخة بجانب أشجار نخيل منزوية في إنحناء كئيب و في حين المئذنة و النخيل يخترقان وهج ضياء السماء...ا...

ووراء سقف دائري تجمع لقرية صغيرة للصيادين وقبالة جزيرة(كريتين) حيث منارة تشع في الأفق بلهيب أحمر لمدينة المنستير و الذي في دورانه من بعيد باتجاه سوسة و بالكاد رؤيته وفقط أثناء هدؤ البحر ... قرية الصيادة هي ضائعة بين أشجار الزيتون و المفصولة بتحوطات الصبار التي يصعب إختراقها بإستثناء أبناء أوى وحراس البدو..؟إ....

و بنات قرية صيادة على كل لسان و على طول الساحل نظير ما يتمتعن به من جمال ساحر و شباب موكنين على الدوام يتوددون لجيرانهم بالكلام الجميل بقولهم (الذي يتنفس مرة واحدة هواء ملح البحر الصيادة و ينتعش بعطر بناتها المسكر ينسى مسقط راسه)...

و موكنين تبعد كثيرا عن البحر في واد خصب و موكنين مدينة تجارية صغيرة وهائمة في غنجها و على الرغم من أن ساكنتها كلهم من العرب ... وهنا أيضا أجد أماكن مطلية بالجير الأبيض و جدران متداعية و صخور رملية و صمت ثقيل الذي يذكرني بوطني الصحراوي الغالي ... و في المدن الداخلية التونسية ناس البوادي لا يرتدون البرانيس الفخمة مثل التي يرتديها الجزائريون و إنما يرتدون قمصان خشنة ...

و فقراء و بدو هذه المدن الداخلية يرتدون (السفيري) . الأبيض ..أو الأسود اللون و هو عبارة عن قطعة من الصوف الطويلة التي تلقى عادة على عمامة صغيرة و ترتيب طياتها يعطي في ضؤ القمر في الشوارع المعزولة و الساحات العامة جانب جمالي لشبح ملفوف . مثل كفن . لقبر ... النساء البدويات أو الحضريات الفقيرات هنا و كما في أماكن أخرى يرتدين اللحاف نفسه أزرق داكن اللون أو أحمر و على رأسهن مبنى من الفولارات معقد و مثقل بشعر أسود و ضفائر من الصوف و مجوهرات ومناديل حريرية و حزام فضفاض معقود عند الوركين.

قضيت ساعات ذات لذة شرقية في موكنين ... ساعات حالمة في ديكور قديم في رحاب النغم و آلاته و الطرب القديم ... و كل قرى الساحل التونسي مدهشة بجمالها و متلألئة ببياضها و مخملية بساتينها لأشجار الزيتون فكل شيء فيها له اشتهاهاته بما في ذلك اسمائها الجرسية (واردنين يعني الوردتان) ..و (سويسة يعني سوسة الصغيرة)و (ومنزل بئر الطيب يعني منزل البئر العذب) واد سايا , جمال , سيدي الهاني , الجم , بني حسان...

و جمال هذه البلاد فريد من نوعه و هذا على الرغم من وعورة أرضها الأفريقية فكل شيء فيها ناعم و مشرق وبما في ذلك أفاقها الحزين فهي لا بالمهددة ولا المعتذرة في كل ربوعها و منطقة الساحل هواؤها منعش و نقي و سماؤها صافية....

وما بعد موكنين تتراءئ أراضي لتتضح من معالم البرية التي كلها غرابة حيث غابات الزيتون و أحيانا تقطعها الهضاب العليا المقفهرة إنه موطن الأميرية .. حيث المزارعين أو الرعاة وكلهم خشية من اللصوص.

محطة القطار لسوسة تونس

شاطئ سوسة

لالا اليزابت : موكنين تحت اضطهاد تحصيل الضرائب

==========

جئت رفقة الشاب خليفة أصيل مدينة المنستير . و سي العربي الشابي لتحصيل الضرائب التي يدفعها الأهالي التونسيون في كل موسم .. و سي العربي لم يشك أبدا أنني إمرأة فهو دائما يناديني ب : أخي محمود ....لقد شاركته حياته و أعماله قرابة الشهرين , في نجوع القبائل الفقيرة التي كان وجودنا غير مرغوب فيه عندهم ..

لولا تدخل البرانيس الحمراء للسبايسية و الزرقاء (للدايرة) .. الذين فرضونا عليهم وهم يتضورون جوعا من شدة الفقر المدقع لما امتثلوا الى طاعتنا ... حينها قلت لسي العربي الطيب القلب : آلا نخجل من انفسنا و نحن نقوم بتحصيل الضرائب من هؤلاء المساكين ؟ . للتذكير سي العربي يلزمه الواجب للقيام بالتحصيل و أنا رفقته من باب الفضول لتوثيق ما يجري و في كلتا الحالتين ما نقوم به هو عمل سيء .

ومع ذلك فقد قضيت ساعات ممتعة ... لأن بعض الأسماء في هذا الوطن تثير في نفسي ذكريات جميلة لا تعد و لا تحص . و لدى مغادرتنا(لموكنين) المعزولة بأشجار الزيتون و التين الشوكي (الهندي) و في طريق مغبر و مستقيم و مسيج بأشجار الزيتون التي تبدو ما لا نهاية لها في تموجها مثل الأمواج و فضية اللون في أعلى قمتها.....ا.

و في طريقنا صادفنا مسجد صغير غير منتهي البناء .. مبني بمادة التراب الأبيض و بقوالب الطوب كالتي تستعمل في الجنوب . وعدد قليل من المنازل و خرائب و قبور منتشرة بشكل عشوائي و أول ذريح لهذه القبور هو ذريح . الأميرة النعيجة . ..

و أمام المسجد فناء صغير تغزوه الأعشاب و في أسفله مبني منخفض مقبب و بجانبها شجرة تين تغطيه بأوراقها المخملية وهنا أيضا يتواجد بئر عميق بمائه الزلال و على حصير من الحلفة استلقينا ... و ربحا للوقت سي العربي ترجاني لمساعدته من أجل أن أكون كاتبه . محضر .

و من جهتهم السبايسية و الدايرة شرعوا في عرض سكان القرية أمامنا المصحوبين بأبنائهم الكبار و المرتدين للباس . سفاسري . الخشن و وجوههم المحترقة بلفح الشمس و ريح السيروكو و رؤسهم التي توحي بالعنف و نظراتهم التي يتطاير منها الغضب و التي تكاد تكون مغلقة ومن بينهم عجوز طويل القامة الذي ملامحه تشبه النسر و عينين ينبعث منهما الغضب أيضا ....

كان حينها يقدم تفسيرات تنطوي على تشكيات و بكائيات كلها تعبر عن وضعهم المزري و بعدها أشرع في مناداتهم واحدا واحدا حسب القائمة

. محمد بن محمد الضو

. أنعم (حاضر)

. بكم أنت مدين

. اربعون فرنك.

. و لماذا لا تسدد الضريبة التي عليك

. راني في (الروج) سيدي (هو مصطلح تونسي للتعبير عن الفقر(

. ولا تمتلك منزلا ولا حديقة ولا أي شيء ؟إ

. الحال حال الله ...

. إنصرف الى جهة اليسار

الرجل بعد ان يبتعد يجلس مطاطئ الرأس امام لسبايسي لقيوم بقيده و غدا يحول مع بقية نظرائه من اللذين تعسر عليهم دفع الضرائب الى موكنين ثم الى سجن المنستير للقيام بأعمال الشاقة مثل العبيد و بهذه طريقة المتوحشة يتم استخلاص الضرائب .

أما الذين يعترفون بامتلاكهم لأكواخ وبعض الأغنام فهؤلاء يطلق سراحهم بعد أن يتم سلبها منهم و سي خليفة و الدايرة بدورهما يقومان ببيعها مقابل تسديد ما عليهم من ضرائب .. حينها قلبي

ينزف ألما أمام نساء بدموعهن عند جلبهن آخر ما تبقى لهن من معز و خراف و هن يودعهن الوداع الأخير.....؟إ..

ثم يسحب من تعسر عليهم دفع الضرائب و هم مقيدون بالسلاسل و راجلين بين خيولنا و نتجه بعيدا ...و في طريقنا تصادفنا بعض البيوت المتناثرة بين الأشجار المورقة أكثر من أي مكان آخر ..

حينها نقوم بنصب خيمتنا البدوية من منسوجات شعر المعز و السبايسية ببذلاتهم البراقة يقومون بإشعال النار و القيام بواجب الضيافة التي يتقزز منها القلب....

أما أنا و سي العربي و أحمد السبايسي سنهيم على وجوهنا في الفلاج في حيز الغسق ...حيث التقينا مع إمرأة في ريعان الشباب و وحيدة كانت تقطف الهندي .. و أحمد يتقدم منها و يخاطبها قائلا::

. أعطينا حبات هندي ...و أزيلي منه الشوك أيتها الجميلة؟.

البدوية جميلة جدا و الشرسة جدا ... حدقت فينا بعد أن أظهرت . الأحمر من عينيها و ردت بقولها :

. لعنة الله عليكم جئتم لسلب خيراتنا.....ا

و أفرغت قفتها بعنف من الهندي بين أرجلنا و أنصرفت.....

و الفارس المرتدي للبزة الحمراء حاول المساس بها لكننا منعناه؟إ.

. كفى ظلما للفقراء و لم يبق لنا الا إقاف النساء . رد الخليفة ؟إ

. آه سيدي لا أريد بها شرا.....ا

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال ببزاتهم الحمراء خرجوا من هذا الشعب و يعرفون معاناته في دائرة الفقر المدقع فعوض تقاسمها معه ... لكن السبايسي لا يعتبر نفسه بدويا بل يعتقد نفسه من علية الناس وفي منأى عن إخوانه من أبناء القبائل لأنه يرتدي البزة العسكرية ؟إ.

ما زلنا نقضي حوالي ربع ساعة في حديث مع طفل صغير أسود البشرة صادفناه في الطريق حيث جعلنا ننفجر بالضحك بارتجاليته و عفويته و ذكائه القردي .. و بعدها عدنا و تناولنا عشاءنا و تمددنا على حصير و رحنا نستمع للجواق الذي كان يعزف عليه أحد الشباب و سكان الساحل أغلبهم من الموسقيين و رعاة نواحي الساحل أيضا مازالوا الى أيامنا هذه يحفظون أغاني لها إيقاعات راقية منسجمة و متناغمة مع الكلمات و اللحن.

. يا أما يا أما الحنينة

. منلي دفنوك

. ولا حد ضحكلي في هاذي الدنيا

. الحزن في قلبي أسكن

. الدموع من عيوني مرة سيالة

و في هذه السهرة سمعت منهم أيضا

. ببرنسي غطيت راسي

. و أبكيت على جيناتا

. و قلتلها

. بعديني ربما نموت قبلك

. و سعتها إذا بكيتي علي

. الناس أعليك تقول

. هذا حب من العشيق .. و زيادة ...

. و من حبيتيه غادر

. حلفتلو على حب دايم

. لكنك نسيتيه في عامو لول

. وقتها العار عليك موش علي

و في حدود منتصف الليل عدنا الى خيامنا.

خريطة تونس و عليها موقع موكنين

ريف موكنين

لالا اليزابت . موكنين عاصمة الأميرة ؟

==========

إجتاحت ريح عاصفة مصحوبة بأمطار غزيرة الهضبة الطينية حيث مخيمنا و الحقول العارية و أسفلها أشجار الزيتون المحاطة بأشجار الهندي ... و ترتب عن هذه العاصفة أن خيمنا أثقلتها مياه الأمطار و صارت تشبه البهائم الضخمة الخائفة و الطريحة على أرض حمراء...

ففي إشراقة فجر خريفي رتيب , و حزين على بادية أفريقية شوهت هضباتها حيث صارت كل أفاقها عائمة , و تجتاحها برودة لا تطاق .. وحول نار شاحبة و كثيفة الدخان كنا ننتظر في صمت إبريق القهوة لإعادة لنا الدفء و القوة ..و بعد وعد لتسجيل إنطباعتي ازاء هذا الوطن .. و كان أوله هذا الحيز البطيء و الشاحب حين تبدو الروح فيه ممتلئة بما تدخره و تشعر به من أحزان قاسية و قاتمة و الذي تنهار أمامه أية قوة بشرية ومهما يكون عنفوانها.

منذ قرابة الشهرين و بمحض الصدفة من تيهاني , و أنا مخيمة مع القبائل في أعالي أراضي (الأميرة) المطلة على المروج و الغابات الظلية و بتكليف من السلطات التونسية , للقيام بتحقيقات و تحصيل الضرائب المتأخرة ....

وهنا مع خليفة الصغير إبن قايد المنستير النحيف البنية , و العادل بما فيه الكفاية و صارم و ليس جشعا خاصة... و رفقة أيضا مسنين و وظيفتهما المتمثلة في كتاب عدل مازالا متشبثين بأفكارهما و مواقفهما القديمة و لينين جدا في معاملتهما و على الدوام تعلوالإبتسامة محياهما ... وأيضا الرئيس أحمد السبايسي من وهران فريد بطبعه يجمع في معاملاته بين الرحمة و العنف الوحشي في بعض الأحيان و متهور في تفكيره تبعا لوضعه الاجتماعي ...و أخيرا حشد من البدويين ببرانسهم الحمراء و الزرقاء و المشكلين من السبايسية و(الدايرة) للمخزن

و لمدة شهرين كان حضوري مجرد متفرج على ما يفعلونه هؤلاء الناس الذين عرفتهم منذ أن أستلمت مهامي التي أشرت اليها سالفا . لقد عشت حياتهم في الظرف الذي لا يعرفون عني أي شيء فأنا بالنسبة لهم و في حدود معرفتهم : سي محمود السعدي التركي الصغير الذي فر من معهده الفرنسي .... و دفتري الذي أسجل به انطباعاتي لا يحوي الكثير من الملاحظات على الرغم من بعض الندم إزاء ما أقوم به و على الرغم أيضا من نزعتي للكتابة ...

آه حياة البدو سهلة و كلها حرية يغمرها الإبتهاج فهي تأسرني بإنتشاء خمرتها ؟إ

....أكتب .....؟إ.

.....لماذا ؟إ.

في حين أبقى أفكر و أنا في حالة ضجر فيما آلت اليه حياتي الراهنة ...ثم يأتون للبحث عني فجأة للذهاب هناك .. حيث الجزء السفلي للسهل لتهدئة الوضع في قبيلة تريد الثأر لمقتولها من قبيلة أخرى ... و عليه يجب التخلي عن كل شيء أما المخيم فيترك تحت مسؤلية (الدايرة) لحراسته و التكفل بضمان نقلي في المساء رفقة الشيخ الفقيه.....

و في سباق محموم عبر غابة أرضيتها لينة , و زلجة تقفز بنا الخيول التي كلها نرفزة من الرياح المصحوبة بالأمطار , و التي نفقد السيطرة عليها لتجاوز الحفر و جدران الهندي , و نصل الى دوار الحجاج حيث حوالي مئة كوخ ومثلها من الخيام المنخفضة على تلة مستديرة بموقع عاري و مخيف وحيث أيضا تنعدم به الأشجار و الأعشاب ,, ومنه حركة غير عادية تدول بالدوار ,ومن بعيد نسمع صراخا مشحونا بالغضب...

ووصولا الى مكان النزاع , و بين رجال متلحفين بأقنعة سوداء و بيضاء اللون متأثرة في حراكها بفعل الرياح و في وضعية تدافع في حديثهم و مجادلاتهم بعنف .. بينما أخرون في جلستهم القرفصائية و أيديهم على السيوف و الخناجر و المناجل و البنادق تحسبا لأي طارئ ...و في وسط الدوار هناك نساء متلحفات بالأسود و الأزرق في نواح و هن يلطمن وجوهن حول جثة مغطاة برداء أسود عليه دم لزج ... و بين الحين و الآخر تنبعث أصوات من أفواه الرجال كلها تهديد ووعيد لقبيلة (زيراث زرزور) لإحداث بها مجازر انتقاما لمقتولهم ...و قبيلة (زيراث زرزور) تقع غرب مكان تواجدنا و على مسافة كيلومتر على حافة واد واسع..

و لمعرفة التفاصيل تقدم الشيخ الفقيه بحيويته و عاطفته الجياشة لإستقبالنا و البندقية بيده وراح يسرد لنا ما جرى بقوله:

. هذا الصباح صبي من قبيلة (زيراث زرزور) و المسمى علي بن حفيظ جاء عندنا برفقة أخيه محمد لبيع نعجتين لإبني خوجة ... و إلتقيا مع واحد منا حمزة بن بارك الذي كان في خلاف مع

عائلتهما,, منذ أمد بعيد و كانوا الثلاثة على هذه التلة خارج الدوار ثم وقع شجار بينهم وعلي بن حفيظ ضرب حمزة بهراوة هشم له بها رأسه .. وهاهي أمامكم الجثة ؟إ و كل القبيلة و إضافة الى أربعة رعاة من قبيلة ملول شاهدوا وقوع الجريمة لكن عليا و أخيه هربا عبر الواد وحاليا عشيرتي تريد الأخذ بالثأر و الإنتقام و قد تحدث مجزرة في قبيلة (زيراث زرزور)..

وفي الظرف الذي كان الشيخ الفقيه يحدثنا حينها اقترب منا رجال بنظرات تنم عن الإنتقام و الغضب و أسلحتهم بأيديهم و في هالة من الترقب و الإستماع لنا وبدون أن ينبس ولا واحد منهم بكلمة ,, وحينها كان الصمت مخيما على كامل الدوار باستثناء نواح وصرخات النساء من حول جثة المقتول ... و ما أن إنتهى الشيخ الفقيه من جملته الأخيرة و اذا بالضجيج و الصخب و المجادلات العنيفة تعود من جديد الى واجهة الحدث الأليم.....

ومن جهته الشيخ علي الفقيه يحاول عبثا تهدئة رجاله من قبيلة الحجاج و اسداء لهم بالنصح و التصرف بحكمة و تعقل .. وفجأة أسمع مسنا الذي مظهره يشبه الطير و الذي يجيبه بازدراء.

. أنت شاب يا سي علي ولا تعرف ثمن الدم ..؟.

وفجأة البدويون يتفرقون في كل إتجاه و يسيحون في الواد للوصول الى قبيلة (زيراث زرزور) لغاية الإنتقام و السبايسية و(الدايرة) يلاحقونهم بهتافتهم .. فعلا الجو كان يسوده التوتر فكل كان مسلحا .. و قد تنقلب الأمور الى ما لا يحمد عقباها لحساسية الوضع ..

و في هذا المشهد الصاخب و تحت سماء منخفضة و رمادية اللون و في مهب الرياح الشديدة و أخيرا تم الإلتفاف من حول القبيلة و يتم القبض على أثنين أو ثلاثة و قيدهم بالسلاسل و بعدها تبدأ التحقيقات ...و فارسان من السبايسية يتجهان للبحث عن مرتكب الجريمة...؟إ....

انه الشاب الصغير علي بن حفيظ الذي قمنا بنقله .. كان حينها يلهث و ثيابه رثة ووجهه متعرق و ملطخ بالطين ويداه مقيدتان وراء ظهره و نظاراته المنبعثة من عينين محمرتين كلها شراسة الى حد الإنغلاق و شقيقه طويل القامة بدوي و يبدو من مواصفات وجهه الداكن مثل اللص الذي وقع في المصيدة أ و يستعد للإنقضاض ...

ومع ذلك ليس هو من إرتكب جريمة القتل و القاتل الحقيقي هو علي الشاب الصغير الأمرد الوجه الذي عرف بهويته.... ...

. لماذا قتلت حمزة بن بارك ؟ سأله خليفة .

والمتهم يحاول التقاط أنفاسه لإبداء دفاع يائس وبعد ان يطأطئ برأسه الى الأرض يجيب: . بيني وبينه .... نبي الله شاهد ؟إ

ومن الآن فصاعدا كما في الحلم و ضد أية فطرة سليمة و ضد أي دليل المتهم يكرر جملته الضحلة و المطبوعة بالإنكار الصبياني تارة و الخوف و العناد تارة اخرى؟إ.

لقد إرتكب جريمته على قمة التلة العارية وهناك حوالي خمسين شاهدا وأيضا شاهدوه وهو يهرب مع شقيقه و أختفيا في الواد و لاحظوا كيف هي تصريحاته متناقضة مع تصريحات شقيقه ازاء الغياب وماذا تعني التوسلات ...؟إ و يجيب المتهم بعينين مثبتتين على الأرض

. بيني و بينه .... و نبي الله شاهد ؟إ

إستغرق مكوثنا بقرية قبيلة الحجاج حوالي ثلاثة أيام ,,, نعم ثلاثة أيام كانت كلها صخب و ضجيج و جدال مضمونها تهديدات و تحذيرات مستمرة .. و أخيرا إستطعنا إعادة السلام الى القبيلة ... بعدها صوبنا إتجاه موكنين عاصمة الأميرة ... حينها كان الطقس جميلا وتقريبا حارا و نباتات أخذت في الإنبعاث من أرض طينية مشبعة بمياه تساقط الأمطار ... و مازال الحيز الزمني للصباح بشفافيته حيث البادية تتمدد في زرقتها تحت أديم السماء المتورد بلا نهاية و شاحب الى أقصى مداه....ا.

ثم قافلتنا الصغيرة تتقدم ببطء على الرغم من شعور خيولنا بالحيوية .. حينها كنا نسحب معنا جمعا مخيم عليه الصمت و يربو على حوالي خمسة و عشرين الى ثلاثين اسيرا تم اعتقالهم في أماكن متفرقة في أوساط القبائل وبدون أن تصدر منهم أي حركة أو النطق بكلمة تنم عن التمرد ... كانوا يمشون مثنى مثنى و قيد السلاسل بأيديهم و أرجلهم و هم في حالة عدم الإكتراث بما آل اليه وضعهم الموجع...؟إ....

أما علي المرتكب للجريمة فهو الوحيد الذي كانت ذراعيه مقيدة وراء ظهره و يمشي منفصلا عن بقية المعتقلين بين خيول السبايسية جانحا الى موقفه الغامض و عندما يتقدم منه بعض البدويين لتوديعه ببعض الكلمات من بعيد يجيب بصوت صارم كما لوكان ما يدلي به صحيحا.

. بيني و بينه ونبي الله شاهد

و قبيلة الحاج من جهتهم و بعد أن عمهم الهدؤ يحاولون النظر اليه في صمت و بدون كراهية و لا حقد تقريبا لأنه بين أيدي العدالة من رجال يكرههم البدو كما ترقى غريزة الكره لهم عند عامة الناس البسطاء .. لأنهم أجانب عنهم فكرا و اخلاقا,, و علي مرتكب الجريمة بالنسبة لهم ليس بالعدو أ ي القتل مقابل الفدية و هو مسجون يعني هو كائن مثير للشفقة ..و تبقى قضية الكره و الإنتقام لديهم مؤجلة ؟إ ..مادامت السلطة تدخلت.

فجأة و بواد كان مخفيا بأشجار الهندي و اذا بتجمع لنساء اندفع نحونا بأنينه و تشكياته ومسنة بينهن شعرها غزاه الشيب المتدلي على جبهتها ..كانت تقودها فتاة صغيرة وجميلة جدا بعينيها السودويتين و المتوهجتين .. و المسنة حينها و هي تنوح أمسكت بركاب حصان خليفة و راحت تتوسل له بقولها ...

. سيدي سيدي برحمة أمك أشفق على إبني الوحيد علي أشفق عليه سيدي

توقفت قافلتنا و كل رجالنا كانوا حازمين .. وقلوبنا كانت منقبضة جدا أمام وجع آلام المسنة و الكفيفة بخرقها البالية في موقف كنا فيه عاجزين على مواساتها ,,, و خليفة من جهته كان على وشك البكاء متمتما بوعود لأم علي التي يستحيل عليه الوفاء بتجسيدها و تواصل الأم المسكينة ترجياتها ثم تلقي بجسدها على صدر إ بنها المقيد بالسلاسل و هي تنوح بأعلى صوتها و البدوي الصغير لا يتمالك نفسه حيث ترتعد كل فرائسه و من ضمن ماقلته الأم المسكينة..

. والدك طريح الفراش في الكوخ ,, هو مريض و قد حانت ساعته بدون شك للإنتقال الى جوار به ؟إ و هذا ما يلزمك بالإعتراف اذا كنت أنت القاتل فعلا ,, قل الحقيقة من أجل أ ن يرحمنا الله و يرحمك ومن أجل ان لا تكون (اوزارا) قاسية و فجأة و بتشنج أطلق علي العنان لبكائه و وجهه الشاب الذي يتحول فجأة الى وجه طفولي ثم طأطأ برأسه وتمتم بهذه الكلمات:

سامحوني أيها المسلون فقد أزهقت روحا ...؟إ

و حينها من بين الفرسان و البدويين من إ قتربوا منه و صاحوا أيضا بهذه الكلمة

. إ عترف .. لقد إعترف ؟إإإإإ

و إزاء هذا الإعتراف بالقتل الغير منتظر من لدن علي و الذي كان بمثابة إرتياح في وسط الحضور و على الفور تغير وضع علي حيث صار محل شفقة من الجميع و عميد السبايسية أحمد و على الرغم من رعونته و قساوته و مع ذلك إنحنى على علي و فكه من قيده و طلب منه أن يحتضن أمه

ثم تخلل هذا الوداع تشكيات و صرخات و بكائيات من كل الحضور من نساء قبيلة علي و على الرغم من نأي قافلتنا ومع ذلك بقينا نسمع نواح العجوز المسكينة وهي تندب وجهها باضافرها و قبل إقلاعنا أيضا عميد السبايسية ... رخص لرجال قبيلة زيراث زرزور للاقتراب من علي لتوديعه و منحه بعض النقود لشراء بها الأغذية في السجن ... ومن بين المودعين و المتصدقين على الأسير تعرفت على إثنين أ و ثلاثة مسنين من (حجاج) من الذين حاولوا بالأمس قتل علي و لكن بعد اعترافه فهم أيضا تغير موقفهم و بادروا بالصدقة. خذ هذه صدقة في سبيل الله .. و إبتعدوا وهم في قمة الحزم .. وقريبا عميد السبايسية سيقوم بتفريق الجمع لأن تجمهر رجال (زيراث زرزور)... قد تنجم عنه خطورة و بالتالي علينا بالإقلاع عبر طريق موكنين باتجاه غابات الزيتون و قطرات الندى تحدث بفرائسنا بعض القشعريرة .

أسرة يهودية من تونس

مدينة موكنين تونس

ليزابت ابرهاردت في طريقها الى مدينة المسيلة ؟إ (جويلية 1903م)

==========

. فرارا من تفاهات العاصمة , ومن ضوضائها و زحمتها أردت العودة الى الجنوب موطن الصمت و الإحسان للعيش فيه .. هي اللحظة حياة حرة من هناك الآسفة على فقدانها منذ مدة ..في جو عدائي للمدن الغارقة في العصرنة و بسرعة تقريبا و كالمتسللة توجهت الى غاية بوسعادة لأغفو على حوافي وادها المريح المنطوي على إخضرار حدائقه كانت رؤى قصيرة و سريعة التواترت مثل الأشرعة و فجأة إنبعثت و على الفور و سقطت على أماكن الوطن متباينة جدا.

في البدء و تحت سماء ملبدة سوداء برياح السيروكو .. صورة ظلية لمدينة برج . بواعراريج ... بمعية قلعة قديمة محمرة . إنها مدينة صغيرة ضائعة في سهل شاسع تعرى بفعل حصاد الحصادين , و في متجر عزاه الذباب , لسوفي من قبيلة زكوم ..جلسنا نحن الإثنين بمظهرنا الحزين , في حيز زمني مقدر بساعة , على مقعد مشتعل بالحرارة . كل واحد منا على طريقته , ..نتحدث عن الوطن الذي يشرق هناك و من بعيد .....؟إ.

ثم على الفور يجب أن نغادر على عربة (كريولة) متداعية غطاؤها خشبي مربوطة الى فرسين هزلين يقودهما المسمى . بوقطار . مظهره المقرف . يشبه قاطع طريق ..الحرارة كانت ملتهبة وسرب من الذباب يتبع العربة .. التي بإرتعاشاتها تكاد يغمى عليها بالصرع... ومع هذا يبقى المتوفر دائما أفضل من سيارة البريد ....

رفيق الطريق ودليلي سي بوبكر رجل , في العقد الرابع من عمره , هزيل الجسم مظهره واهن , ووجهه غلبت عليه السمرة .. يوحي بعيشة التقشف ...و نظراته , منغلقة حزينة , داكنة ..هذا الرجل من المريدين المبجلين لزاوية الهامل ؟إ يرتدي قندورة و برنوس أبيض , ويدير وقفا (ثروة هائلة) ومع ذلك لباسه بسيط جدا ينتهج الزهد في طريقة معيشته ؟إ مسالم و يمتاز برجاحة العقل ؟إ. . ..

سي بوبكر يعرف تماما من أنا . أنثى . ؟إ . : يعرف قصتي وبعد أن درس حالتي بإهتمام تقبل نمط حياتي...

. .. جلسنا في خلف (الكريولة) و أرجلنا تتدلى في الفراغ ..كنا نتبادل أطراف الحديث بلا مبالاة عن أشياء تخص الجنوب . ثورة بوعمامة . و تمس الإيمان و فقه الإسلام ؟إ ..ومع ذلك

..و بفرحة لا تتسعني و أنا أرى السماء ساطعة عاكسة ضياءها على مشهد يتغير تدريجيا باتجاه الجنوب في مجال تضاريسه كلها وعورة ليتحول الى صحراء ..نشاهد فيه نجوع ترابية (منازل من الطوب) تطفوا على ضفاف التلال الجرداء ..

وفي منتصف الطريق و على حافة واد المسيلة هناك موصل ... و برج قارة ببابه الكبير . كوشار. المبني فوق النهر الجارية مياهه الخريرة بين قصب اليراع و أشجار الدفلة ..و و محطة الوقوف . لمجاز

. لا تتوفر على شروط الاستراحة للقوافل الصحراوية ..

وهنا شخص أرجع بشرتي الى قبائلي , وراح يصر في التحدث الي باللهجة القبائلية ؟مؤكدا بقوله بأنني من تزي وزو ؟إ مع أنني لم أذهب الى هناك اطلاقا ؟إ .. تركته يقول ما يريد ؟إ ..في انتظار مغادرتي لمكان لمجاز ..هي طوارئ من هذا النوع تثير في الضحك , فرحا و ابتهاجا ..غادرنا ونحن نحاول النوم .. أنا جثمت على قفص ..و سي بوبكر تدحرج مثل كرة الى خلف العربة و في غمرة موجة من النعاس مصحوبة بأحلام مزعجة تخطفني في كل لحظة مختلطة بشظايا من الواقع ..؟إ .

أخيرا ..وقبل الفجر وصلنا الى المسيلة ..بعدها تابعنا سيرنا على الأقدام في شارع طويل مسيج بأشجار التوت يؤدي الى ساحة كبيرة (ساحة الشهاداء حاليا) .. تخترقها مجاري مائية , منبعثة منها نعيق الضفادع ..الساحة تتوسد خلفيتها مباني ترابية (حي العرقوب) ..ومقهى مورسيكي (مقهي الحصر لحماني بن بوزيد مازال الى يومنا هذا لكنه مغلق و للبيع) .. يهرعون اليه سكان المدينة للنوم ساعة الهجير على أفرشته المضفورة من الحلفة ....هروبا من ضغط الحرارة في بيوتهم .

ظهرا , جدران الطوب الترابي , الرمادية كانت تقطع خطوط الرتابة , ووجه السماء الشاحب ..في الشوارع الغارقة في مسحوق الأتربة .. قرب الجدران ملبسة و متصدعة .بظلها القصير الأزرق . رجال ينامون أرضا مختلطين مع المعزالأسود ..و سرب الذباب فقط على القمامات الجافة , وعلى وجوه تفوح منها رائحة العرق و على الخرق البالية . الكل نائم , و الكل في سرواله مسحوق بالحرارة , على مصطبة حجرية بيضاء ..الواد يسيل خافتا بخرير الماء الصافي , غير بعيد (جنينات) سيدي بوجملين ذات الإخضرار الناصع .

على جسر حديدي رمادي ربض شحاذ أعمى يلامس بيسر(بند يره) محدثا دويا هائلا لتذكير الغافلين في شكل مرثية قديمة على الرحيل الى دار الأخرة ؟إ .. و ما ينتظرهم بقوله . باسم عبد القادر الجيلالي .. الامام البغدادي , الولي الله الصالح .. صدقة يا مسلمين) ..الى ما لا نهاية , الأعمى يكرر تعويذته , ومع ذلك لا أحد يسمع ولا أحد يستجيب , وفي قعدة إستراحة قرب جدار محدودب و على حصيرة تمدد رجلان يبدوان في تبادل حديث غامض يتعلق بتساؤلات جدية حول سياسة الجنوب المعقدة . ثورة بوعمامة . ؟إ , أو لنسج مؤامرة ؟إ لكن لا شيء من هذا أو ذاك . كان له حضور في حديثهما انه مجرد طالب رشيق ذو لحية سوداء و مقنع بالأبيض .

يشرح لرفيقه . أصل الرؤية في المنام ؟إ .الروح هي من تحرك الجسد , و الخالق في بعض الأحيان ينتزعها , إما مؤقتا أثناء النوم . أو على الدوام في حالة الوفاة .و الروح هي مادة مضيئة , التي تشع اشعاعات , و بمجرد أن تتحرر من أغلال الجسد , و تسقط في العالم المرئي على الأرض,,أو تتحرك فيما بعد ..النائم يرى المدن ' و الأوطان , و الأشجار ' و الأزهار , و الرجال و الأنبياء , و الجيوش التي تسكن الأرض ,,في الآخرة يرى في بعض المرات مؤمرات غيبية , و بعدها تنطفئ الأشعة , و الروح تدخل الى الظلام المتمثل في سجن الجسد) .

و فيما المسيلة نائمة في إحباط ,,,؟إ ,الشابان الصوفيان يواصلان النفث بهدؤ لعقائد خاصة بهم من الماضي وسط ديكور تؤثثه , الأرض و السماء . وبعد غروب الشمس , و داخل غرفة فارغة من الطوب و مدخنة , حيث أسفل الركائز السوداء للسقف , خمسة أضلاع موضبة بشاقور وأغصان الأشجار(اشجار الطرفة) الحاملة للقواطع , غير متجانسة .

و هناك مصباح بائس ينبعث منه الدخان و يضيء على ثلاثة رجال مقنعين برانيسهم البيضاء ؟إ يضربون على بنادير مرسلين إيقاعات و أنغام في شكل إبتهالات للولي الصالح عبد القادر الجيلالي البغدادي ,و التوهج الأحمر للمصباح يتصاعد رويدا رويدا بظلال مشوهة على الجدار المحدودب الذي من حين لآخر تتسلل منه عقارب صغيرة صفراء . الكل كان متمددا على حصير حلفاء .

حيث أجسادهم متراكمة و ملتفة بمظهر كله كسل و بملاح تميل الى حيث المغنيين بعيون مظللة و نصف مغلقة اتجاه فتاتين صغيرتين و لذيذتين (تبر و أمهاني) ببشرتهما السمراء (برونزي) يرتديان لباسا براقا يتمثل في فستانين خضروين و يتزينان بحلي الفضة و فولارات

حريرية حمراء اللون المطرزة تلفان بهما شعرهما الأسود , يتبعان باهتمام و جد فيما يجري بقاعة المقهى . الفتاتان الصغيرتان من المقهى . ؟إ . .

و في زقاق مظلل هناك باب يفتح في فناء واسع الإضاءة به خافتة وهناك أيضا فتاتان رابضتان بفستانين لماعين و مصنمتين تتقطران ذهبا و مبقيتان على ثباتهما مثل التمثال... العيون تتموج في سحابة دخان السيجارة ,,و في بعض الأحيان يمر شخص مرتديا لبرنوس خلسة و يغرق في القلب البرنوس الأبيض المسيلي و البرنوس الأزرق للدايرة ثم واحدة من الصنمين تنهض مصلصلة بحليها

تنام المسيلة (...؟إ...) . محترقة بحرارة الليل . والبندير و الأناشيد الدينية القديمة و أجراس أساور النايليات .

سحر جمال المسيلة مثل قصر صحراوي ....إ والنهر المسماة به . يقسمها الى شطرين ' نهر واسع تتدفق من حصاه مياه . الشطران يربطهما جسر حديدي ,,,و نحن في الشطر الذي به بناءات جديدة , حيث طرقه واسعة , و حيث زواياه ليست مظللة و مظلمة تنطوي على راحة نفسية تشهد على ذوق الرومي المحبذ للخطوط المستقيمة , وفي الشطر الآخر للمدينة القديمة بناءتها فوضوية و مزدحمة و كل منازلها من الطوب الترابي الأسود , و أنهجه عديمة الأسماء , و التهيئة و التعبيد مع ذلك بها متعة غير منتظرة كلها متشابهة .

و على مدار اليوم رياح السيروكو تهب ملتهمة كل شيء و نحن لم نغادر منذ أن عانق جحيم الحر الأبواب الحديدية , كل الأقاصي البعيدة ملتهبة والمشوهة , بالغبار الرمادي المتصاعد لولبيا . العجاج . و المنتشر و المتحرك على الطرقات , و طنين الذباب المتأثر بالحرارة مسببة له هيجان اللسع .

ملاذنا الوحيد هو المسجدالنخلة بحي العرقوب , الواقع على حافة الواد و حيث نوافذه تفتح على مياهه . لا يزال محتفظا ببعض الانتعاش انه المكان الذي نلجأ اليه لقضاء يومنا .

مساءا الرياح يتغيراتجاهها فجأتو يصير الجو لطيفا .. في هذه الأثناء سي بوبكر , يتحرك للقيام بزيارات ؟إ ..أما أنا فأجلس وحيدة على حافة مرتفعة للواد . السماء الآن هي صافية و على أحسن ما يرام , مصحوبة بنسمات هواء منعشة مع غياب الشمس وسط ظلام خفيف لا تزال محتفظة باصفرارها ..في أعلى الواد سهل عاري و الذي يمثل المدخل الغربي لمنطقة الحضنة

أمامي ظلال بنية مكتسية بالحرارة ارجوانية شفافة الأفق تتدرج الى المسيلة القديمة لأحياء الشتاوة و خربت اليس , محفوفة ببساتين ناصعة الاخضرار ومتشابكة , في حين خلفي منازل تتباعد متخذة أشكال ذهبية . نساء تنزلن أسفل الواد متزية بقماش أزرق أو أحمر يحملن على ظهورهن (قرب الماء) المصنوعة من جلد المعز أو جرار ثقيلة من الطين ..و يمشين حافييات القدمين على حصى الرمل وسط إنحدار يضفن للمشهد لمسة سحرية من الجمال يعتريها الحزن...؟إ

مرة اخرى هنا لذة حقيقية للمكان و الزمان تحل لتتراكم بذكرياتي .. هي تداعيات و علاوة على ذلك هذه المناطق التي أجوبها حاليا تبدو كونها عاكسة لشحوب .. سكان المسيلة بتسامحهم الغريب و جاذبيتهم الغامضة .. و فتيات المسيلة ببشرة سمراء يتجهن الى البئر لجلب الماء في البساتين مفعة بلذة سحر جمال حقيقية؟إ.
أه لو الحيز الزمني للغروب في الجزائر العميقة يستمر الى الأبد و يا ريت الإستبداد الجنوني الذكوري ؟إ المتفه لهذا الجمال ؟إ.. لا يخترق احلام الشاعر .

الخيول هنا أمام المسجد يجب أن نرحل , أعطوني فرسا أبيضا .. جميل مسرج . نزلنا أسفل الواد ,و مرينا باطفال عراة سمر البشرة يستحمون حيث إنبعث من أحد حيواناتهم صهيل فار تعدت منه فرسي ؟.
قبالتي حدائق مخملية خضراء حيث تتراس أشجار النخيل و قباب مباني سيدي عمارة و سيدي الغزلي باشكالهما الغريبة و المبنية بالطوب الترابي , و بنيانهم تشبه المعبد الصيني بسقف ذو طابقين (مثل ظهر الجمل) الطابق الأعلى عجيب , أرغب رؤية بقايا فن السكان الأصليين قبل مجيء الاسلام , إنه فن متوحش , غريب و مقلق .

امتطى طالب بغلة هادئة كانت تحمل أمتعتنا ...الذي كان برفقتنا (؟إ) . خرجنا من عمق الواد بعد أن القينا النظرة الأخيرة على مدينة المسيلة و بعدها توغلنا في السهول الرحبة , تشبه الصحراء . سهل الحضنة في شفق المساء الذي يبدو غير متناهي ....؟إ.

بعد أن و دعت . اليزابت ابرهاردت . مدينة المسيلة . فلا بد لنا من تقييم زيارتها ؟ ومن المستحن طرح الكثير من الأسئلة حول هذه الزيارة ؟ , فما هو معروف عن هذه الكاتبة أنها غامضة و أغلب تحركاتها مريبة . بدءا من لباسها .. فهي متنكرة في زي رجل ؟ و هو ما صعب من مهمة دليلها بوبكر الذي لم يفلح في اقناع مجلس زاوية بو جملين المشكل آنذاك من عائلات . بن قنة , بن رمان , شارف , بن حميدوش , قاضي , بن صديق , بن محمد , بوجملين . لكي يسمحوا لها

بدخول الزاوية لانجاز روبورتاجا عنها و إجراء حوارات مع مسيري الزاوية مثل ما حدث مع . لالا زينب . رئيسة زاوية الهامل ؟ وهو ما سنطلع عليه لاحقا ؟.

و الحقيقة التي لا رأي فيها , زاوية سيدي بوجملين للمسيلة لم يحدث بينها و بين ادارة المستعمر أي تقارب أو تواصل بشكل مباشر أو غير مباشر طيلة تواجد الاحتلال الفرنسي بالجزائر بل بسبب مواقفها المعادية له حرمت من الاعانات و تعرضت الى الكثير من المضايقات بخصوص قطع الامتدادات عنها من ذوي البر و الإحسان من القرى و المشاتي ؟ و لوعدنا الى قراءة ما كتبته الكاتبة . اليزابت

ابرهاردت . عن المسيلة نجد الكثير من التلميحات مضمونها التماس الكثير من الأعذار لهذه الزاوية.

و نخص بالذكر شهادتها الموثقة بقولها . مرة اخرى هنا لذة حقيقية للمكان و الزمان تحل لتتراكم بذكرياتي .. هي تداعيات و علاوة على ذلك هذه المناطق التي أجوبها حاليا تبدو كونها عاكسة لشحوب .. سكان المسيلة بتسامحهم الغريب و جاذبيتهم الغامضة ..... . وهنا الإعتراف أخذ مواصفات البرقية المشفرة ؟إ ... أبرقت بها الى مجلس زاوية بوجملين أمام مسجد النخلة بحي العرقوب حاليا ؟إ ... مباشرة بعد تسلمها الهدية التي سلمها لها الطالب الذي كان ممثلا للزاوية لتوديعها المتمثلة في فرس أبيض و بغلة و بعض الأمتعة ؟إ.

,,و لو دققنا في لفتة مجلس الزاوية و المدهشة بالترميز : الفرس الأبيض للدلالة على السلم و الأصالة و الشهامة لسكان منطقة المسيلة و البغلة للدلالة على ما يعانونه من أعباء ظلم الاستعمار ؟ و الأمتعة للدلالة على الكرم و إيفاد الطالب من الزاوية لمرافقتها و توديعها للدلالة على احترامهم و تقديرهم و تقديسهم للضيف ؟ و . اليزابت من جتها ترد في برقيتها . هنا اللذه الحقيقية للزمان و المكان لتتراكم بذاكرتي .... ؟إ ... في غموضكم جاذبية يا أهل المسيلة ؟ ... سكان المسيلة بتسامحهم الغريب ... و شحوب المنطقة لا يعكس قيمتكم الحقيقية ؟ يعني من جهة لا يفتحون لها أبوابهم و لا يتواصلون معها و عذرهم في ذلك لا يعرفونها ؟

و من جهة أخرى يغدقون عليها بكرمهم الفاخر و المذهل ؟ . و الحق . اليزابيت ابرهاردت . لم تأت بجديد فماهو معروف عن سكان الحضنة . أن الداخل الى المسيلة يبكي و الخارج منها يبكي . الداخل اليها يبكي و تفسيره لصعوبة مناخها الذي لا يطاق ؟ لكن متى أقام بها المار و غرق في دفء حب أهلها يعز عليه فراقها فيحزن و يبكي ؟إ.

جسر مدينة المسيلة

زاوية سيدي بوجملين

اليزابت ابرهاردت: في طريقها الى مدينة بوسعادة

إمتطى طالب برفقتنا بغلة هادئة كانت تحمل أمتعتنا ...(؟إ) . حرجنا من عمق الواد بعد أن ألقينا النظرة الأخيرة على مدينة المسيلة و بعدها توغلنا في السهول الرحبة , تشبه الصحراء . سهل الحضنة في شفق المساء الذي يبدو غير متناهي .. وجبال المعاضيد البعيدة ذات الزرقة القزحية .

نجتاز أمام عشرين منزلا كل سكانه نيام . ماعدا الكلاب العنيفة التي تكفلت باستقبالنا بنباحها المبحوح الحناجر .. إنها قرية السعيدة . بلدية أولاد ماضي حاليا . . جرداء لا شجرة ولا نبتة بها .. بعد ذلك ندخل في أدغال فضية حيث تنبعث منها شكوى غريبة حزينة مثل نداء بدون صدى من طير الكيروان يعيش في السفوح و يفضل الخروج في الليل للغناء ,

شحوب السماء في فضاء لا حدود له . الخيول يثيرها هذا الصمت الرهيب و الحر و تود لو تنطلق مخمرة في سباق مذهل .

السهل تنبت به أحراش رمادية شاحبة بلون مسحوق تراب الأرض .. بعض الوديان جافة ..لا توجد به تلال إستفحلت به الرتابة .رويدا رويدا نتقدم و الليل يتناقص و دفء يشبه هبوب نسيم مداعب .. خالي من أي تلوث . أجد هنا هذا الاحساس بالسكينة و الصمت المطلقين ..أحب كثيرا السكينة و السلام ولا شيء يعكرهما .

اندفعنا حيث جدار أسود تحت جناح الليل المظلم انه برج سي الرعاب , يكتسي صفة الحبوس . وقف . للزاوية الرحمانية لمدينة بوسعادة يشتمل على بساتين مورقة مشكلة من خليط من الأشجار السوداء العملاقة . وبعد تناول وجبة عشاء خفيفة تمددنا على فراش في الفناء بسبب الحرارة الشديدة و العقارب المطاردة لنا و المختبئة في شقوق الجدران البستان ... الخيول و البغال التى ترعى في الريف عهد بهم الى بعض الطلبة لتولي رعايتهم من الذين يعيشون وحدهم ,, يقضون وقتهم في قراءة الكتب القديمة و يصلون و يتعبدون مثل الرهبان .

إنها الليلة الثانية التي نقضيها بدون نوم و أعيننا لا تنغلق بسبب لسعات البراغيث و الناموس التي تنزل عنا ..لكن الطلبة لا يأبهون بها و ينامون نوما عميقا . التعب طغى على رفيقي بوبكر فأستلم الى النوم وبقيت وحدي . نهضت الى الخارج و أستلقيت على أرض يابسة جافة وحارة أنتظر طلوع القمر .. أحلم في الظلام تحت كواكب النجوم المذهلة ...أستمع الى قلبي للولادة من جديد و لأحس بسعادة حيوية .. محاولة النسيان ما آل اليه شبابي؟!.

اخيرا و عندما تطبع قرص القمر الزرقة يشرق فوق السهل مبددا السواد على الأنقاض و الأكواخ و البساتين المكثفة مثل باقات الورد. أدخل لأوقظ سي بوبكر و الطلبة الذين في نومهم العميق في رطوبة الصباح المنعشة .. نغادر ممتطين خيولنا و النعاس يغلب علينا مثل المخدرين و من حين لأخر في ذلك السكون العميق الذي يقطعه نخير فرس أو تعثره حينها الطلبة يحاولون إرسال أغاني صحراوية بطيئة تساعد على التغلب على مساحات الرتابة .

. ياي ياي ياي
. ناديت ولا من جاوبني
. ياي ياي ياي
. و توسلت و لمن أستجاب ..
بعدها صوت الحلم يخفت من جديد و نواصل السير بمظهر كله صمت .

ندخل الى منطقة , حيث خيولنا على مضض , و خائفة إنها نبتات أحراش لا تعد ولا تحص محاطة بالسواد من الأسفل و فضية من الأعلى تشبه من بعيد لرجال نائمين أو أشباح لقد إستيقظ فينا الخوف الذي كاد يسقطنا .

طلع النهار بنسائمه المنعشة الآتية من بعيد تعطي إبتهاجا للشباب و تجدد الفرح فيهم .. هي ساعة فسحة مع اطلالة كل يوم في المناطق الصحراوية الواسعة في الجنوب ..
كان الوقت نهارا عندما وصلنا الى الخليج الغربي للحضنة عبارة عن سبخة تجمع بين لوني البني و الأصفر ممتدة ومستوية بدون نتوّات ولا عشب ...الطلبة نزلوا من على خيولهم لصلاة الفجر .

منذ عام تقريبا فقدت عادة التعود (على صلاة الفجر) بسبب السرج و الركاب العربي .. أحس بكسر يؤلمني في ساقاي اللينتين .. بعدها سي علي الطالب الذي يرافقنا يغادرنا عائدا الى المسيلة ..و بعدها أيضا سي بوبكر يمتطي البغلة و نغوص في عمق السبخة ..طلعت الشمس الملتهبة ملوحة ببدء حرارة شديدة .

قرية بانيو : برج (قلعة) عسكري أبيض رمادي في قمته .. ممر يؤدي الى بئر مسيج باشجار ماؤه ساخن وغير راكد و حوله بنايات من الطوب و أرضيته من الرمل محمر اللون قليلا ... جاف إنه رمل حقيقي و أشجار الطرفة متناثرة هنا و هناك مشكلة تلالا ..مثل أشجار الصحراء وهي بمثابة الظل الذي نتظلل به للراحة.... نشرب بشراهة الماء الملوث بالتراب وقهوة المملؤة بالذباب المقزز ....حرارة الشمس ترتفع شيئا فشيئا علينا ...أن نغادر المكان ,,,

مرت ساعتان ونصل الى البئر الخالي هناك منزلان من الطوب مهجوران طيلة الصيف و بئر نقي وصافي ماؤه منعش بالبرودة شربنا منه وكأننا مسعورين من شدة العطش و لا أجد تعبيرا اكثر من هذا لأعبر به . بعدها نلج الى ساعات مثقلة بالحرارة وسط النهار في سهل عاري وكلسي لكن أمامنا جبلان يغلاقان افقا بين قممهما . إنها مدينة بوسعادة المتربعة على سهل منخفض .. حيث نرى قصبتها بوضوح ,,,, المدعمة و المهيمنة على المدينة و خضرة البساتين الميالة الى السواد .. و الوهم الأبدي للجنوب يعيد نفسه .

بدت المدينة في الإقتراب و نحن نتقدم دائما ومع ذلك : المسافة التي تفصلنا عنها لا تقلص هذه الرؤية للمدينة الساحرة التي تسربت الى أ فق ...متحولا الى خوف و قلق دائمين .. الحرارة الملتهبة تجفف

شفاهنا و وتتشقق منها و رياح السيروكو التي تلهبنا.

الجمل الذي يتجاوزنا يروينا و فجاة الرجل و بهيمته البطيئة يتفككان و يذوبان بتموجهما في السراب بصعوبة يمكننا تحديد ملاحمهما في السهل .

بوسعادة بطلتها البهية هكذا كما بدت لي ببريق شمسها الذهبي ,هي عبارة عن مجموعة زرمد تستمده من بساتنها الرشيقة ...وواد بوسعادة , يتخذ شكلا دائريا تتدفق مياهه على سفح المدينة المكون من شريط من الحصى الأبيض , وعلى اليسار بلا حدود بجدار من الطوب الأصفر ..حدائقها متراسةومزدحة مثل الغابة العذراء مزينة بأشجار النخيل و من اليمين بحزام أشجار التين و الدفلى و الرمان ..و المنازل العالية غير مرتبة ولكنها جميلة و صحراوية . نمشي على الماء بحسب الاتجاه الذي تتخذه حيواناتنا .. نتبع مسار اتجاه الواد .. الى حيث ينبوع ماء بارد ومنعش ينبع من صخرة على سفح المدينة . عين بسام . أو العين الباسمة , ونشرب منها ثانية .

و مدينة بوسعادة مقسمة أيضا الى مدينتين ..و مفصولة بفج عميق يربط شطري المدينة جسر .. و على أحد شطريه عمارة أروبية . مقر المحكمة . و على الشطر الثاني للمدينة . الكثبان الرملية القديمة التي هي بوسعادة الحقيقية .

ويقع شطري مدينة بوسعادة بين تلين حمروين مسندين بجبلين .. جبال غريبة لسلسلة الجبال الجنوبية ..والغرابة فيها أنها طبقية ومتدرجة و متفاوتة و تبدو و كأنها متدلية .

.ناس مدينة بوسعادة , يشبهون ناس الصحراء , متمسكون بعمق عاداتهم القديمة في معاملاتهم العريقة ..هذا الشعب .. الذي كلما إبتعدنا عن المدن الكبيرة التي طغى عليها فساد التلوث .يبدو و كأنه ينبعث من القرون البعيدة . ببشرة سمراء تحت عمامة بيضاء أو لحاف (خيتوس , برنوس) من وبر الجمل و طلته تجمع بين الرجولة و الزهد و عينين تجمعان أيضا بين لونين , الأسمر و الأصفر , براقتين بشعلة مطبوعة بالحزن و تحت المظلة قرمونة ....و سبحة بعنقه متمظهرا بعصر آخر .

أما اللباس الذي تتزيي به المرأة فهو صعب التحمل , رأس ملفوف بجموعة من الفولارات الملونة مشدود اليه قماش شفاف و مشقوق من الأعلى الى الأسفل و مربوط على مستوى الصدر بقطعة فضة . خامسة . على شكل أصابع اليد درءا للعين (اللحاف : لوقا , وقد وصفته الكاتبة بسترة الاغريق) .. وحزام يشد أسفل البطن , مع شعر طويل تسريحته واسعة متمددة عرضيا (يقسم الشعر الطويل و المتدلي على ظهرها...

ثم يضفر الى أن يتخذ شكل حبلين متوازيين ثم يتم تقويسهما الى أن تشكل الضفيرتان دائرتين على الأذنين لتزيينهما و يربط طرفي الضفيرتين على قمة الرأس بعد شدهما بالفولارات التي تلفه و من يتزين من النساء بهذا الزي هن نساء المسنات ,, نساء نحيفات الجسم و بنيتهن ضعيفة , و هؤلاء النسوة لسن من اللواتي نلحظهن في الشارع ..لكن هؤلاء فقيرات و طاعنات في السن مثل موميات المقنعة بالكأبة .

نحن بصدد تحضير فراش النوم .. المتمثل في حصير و فراش تحت أروقة منزل كبير تابع لزاوية الهامل

يقع في مكان بعيد عن المدينة الجديدة و بالقرب من مقر محكمة السلم , حيث تفصله أخاديد عميقة و حيث تتواجد حديقة جميلة مزدحمة ذات الاخضرار الناصع . نقيض ما هو أمامنا حديقة ذات طابع اروبي غرسه يسيل لعاب الجائع توت ميموزا ..الخ مثل هذه الحدائق ذات

الطابع الاروبي إصطفافها و تناظرها غير المتوقع و بدون جماليات , متأسف عليها بجانب البساتين العربية الرائعة المغروسة بتلقائية و مبعثها الخيال القريب جدا من الطبيعة الثرية بسحر جمالها .

السجناء الشعث والمساكين والمثيرين للشفقة , وحراسهم لا يعرفون , مثل الفلاح الذي يجهل وكذا الشاعر أن تلقيح الكرمة يبدد ظلمة اوراق التين , و رمي أكاليل الورد الاماعة على الخلجان وسط أشجار النخيل ..و أحمر البطيخ والرمان في الظل المبهم للتفاح .

الوقت يمر و عند الفجر نتجه الى زاوية الهامل التي هناك باتجاه طريق مشدود الى الجلفة و الصحراء .. و بعد تجنب واد بوسعادة اندفعنا بين جبلين تحت ضياء الفجر .. فصل الصيف جفف المروج و الجبال .. حيث تمظهرات محايدة .لكن متنوعة بشكل لا متناهي للأرض : لبنة حمراء مغرة صفراء , و أخرى حمراء ظلال رمادية بدون أسماء .. بالكاد جديرة بالملاحظة ظلال بنفسجية , إنها باقة من الألوان الرمادية المذهلة ..و أزهار شاحبة البياض .. هذه الألوان المحايدة و افتقارها الى الدقة تعطي جمالا ساحرا للعبة الأضواء التي لا يعثر عليها في أي مكان و التي تعد من معجزات المنطقة القاحلة .

مدينة بوسعادة

نساء من بوسعادة

اليزابت ابرهاردت في ضيافة لالا زينب بزاوية الهامل . بوسعادة جويلية 1903 .

اقتربنا من جديد بواد زرعت على حافتيه بساتين دائمة الإ خضرار و كم هي طازجة وشهية ... , في مخرج الزاوية منطقة ذات المظهر المتراص والموحد ببعض المباني من الطوب لاقامة الطلبة تابعة لها بمعية البساتين لزاوية الهامل .. و الهامل إسم شاعري الذي يعني . الضياع . و الذي يناسب تماما لمعنى هذا المكان البري و الفخم .. فعلا هو الضائع في واد ضيق من جهة و المفتوح من الجهة الأخرى بإتجاه الواد في أفق أزرق رحب ,

و الزاوية بدت لنا في مبنى عمارتين , واحدة منهما شديدة البياض ذات طابع معماري أروبي و الثانية من الطوب اللامع مع بعض الفتوحات الضيقة . و في الأسفل تجمع من المنازل الترابية , و بعدها قرية قبيلة الشرفة ..مجمع خلاب من منازل الطوب ' و كلما اتجهنا الى الأسفل , يظهر لنا بساط أخضر في غاية الروعة من الجمال تعلوه أشجار النخيل .

كل هذا الملمح يبدو واضحا على ظلال يصعب وصفها للتلة في الهواء النقي للجبل ..وهذا المكان ذو طابع خاص لا هو بطابع صحرراوي و لا هو بطابع هضاب العليا .

غفوت فورا في غرفة صغيرة بائسة و بسيطة من الطوب التي هي مأوى سي بوبكر و تحديدا في الحيز الزمني الذي كان فيه بين الغدو و الرواح مرحبا بي و عندما إستيقظت وجدت أحاديث خافتة و همس لبق هي أجواء على الدوام تطبع المكان لساعات و ساعات ولا تخضع للتغيير ؟إ بدون تتوقف عن التشابه من كل النواحي في عمقها الإسلامي ؟إ و غير قابلة للتفتح أو الذوبان من جراء التأثيرات الحضارةالأروبية .

هنا في هذا الوسط المفقود حيث المشهد فخم و بسيط .. فان ضجيج نضالاتنا العنيفةغير مجدية ترافقنا لتموت في صمت مطبق غير قابل للتغيير و القضايا الجارية المرتبطة أصلا هي نفسها , بل هي مجرد حوادث .. و للعيش مع هؤلاء الرجال المنغلقين فانه يجوز و انه يجب اختراق افكارهم لاطلاعهم على افكارنا و اطلاعهم على طهرها و نقائها علينا الإرتقاء الى مصادر ثقافتهم القديمة وبعدها الحياة تكون سهلة للتوغل بلطف في عالم البرانيس و العمائم المنغلقة الى الأبد لملا حظة و تفتح على السياح ببعض التدقيق و الذكاء ...

و من ضوابط السيرة اليومية للزاوية: تكلم قليلا و اسمع كثيرا و لا تجادل ؟إ حتى تصير مقبولا في الأوساط العربية في الجنوب و مرغوب فيك .

بعد المرور بعدة قاعات وساحات واسعة ومظلمة ندخل الى فناء واسع في قلب الزاوية و المغلق بجدارين قديمين عاليين من الطوب البني اللون في الوسط تنبعث شجرة تين صغيرة التي ستكون في سنوات قليلة مظللة لسلطان هذا الصمت الكبير , وفي هذا الفناء شاهدنا نوعا يشبه السرير (القبرية) الخشبي مصقول و مثبت على أربع ركائز حجرية إنه المكان الذي يرقد فيه المرابط محمد بلقاسم .

في مكان قريب من باب العمارة الداخلية و على مصطبة حجرية إمرأة تردي الزي البوسعادي الأبيض بسيطة جدا كانت جالسة .مظهرها مجعد و تغلب عليه السمرة نتيجة لفح الشمس جراء تنقلاتها الكثيرة في المنطقة .. تقترب من العقد الخامس .. ذات العينين السودويين و النظرات الرقيقة , المشاعتان بالذكاء و تظللهما مسحة حزن كبيرة و يمكن إستنباط ذلك من صوتها و سلوكيات أخلاقها و من استقبالها الذي تخصصه للحجاج وهو ما يفصح على عظمة تواضعها ..

إنها لالا زينب وريثة سيدي محمد بلقاسم . المرابط الذي لم ينجب ذكورا و الذي عينها لخلافته بعد موته .. إبنته الوحيدة التي علمها العلوم العربية و صارت متفوقة ومن أحسن الطلبة ..لقد هيأها للقيام بدور مختلف عن الدور الذي تقوم به المرأة العربية المعتادة عليه .. و هي الآن هي التي تقوم بإدارة و تسيير أمور الزاوية...

إن الزوايا ليست كما يعرفها و يصفها بعض الكتاب كونها مدارس لتلقين التعصب الاسلامي ؟إ بل الزوايا تقدم فوائد كبيرة و تعتني بالألاف الفقراء والأيتام و الأرامل و العجزة وترعاهم ولولا الزوايا فلا حول لهم و لا قوة لهؤلاء البؤساء . و أكثر من كل هذا: فان زاوية لالا زينب . هي ملجأ للفقراء و عابري السبيل و من كل حدب و صوب .

لالا زينب تعاني من حزن , يتدفق من حلقها كله عاطفة ..كانت مقاومة لكل أعدائها و حسادها و المتأمرين عليها .. و مع ذلك تبقى مواصلة لعملها الخيري باخلاص و تفاني .

قلت لها . إن حالتي و طريقة حياتي و حكايتي كلها كرستها و بقوة للمرابطين (المذهب الصوفي) وعندما سمعت كل شيء مني ..تجاوبت معي : وقربتني منها مؤكدة لي صداقتها الى الأبد. ومع ذلك و فجأة قالت . لالا زينب . أنها تشعر بالحزن و ذرفت دموعا ..و أسترسلت في

الكلام : إبنتي كرست كل حياتي من أجل فعل الخير في سبيل الله ...و الرجال لا يعترفون بخير الذي صنعته فيهم ..و الكثير منهم يكرهني و يحسدونني .. على الرغم من أنني زهدت في كل شيء ..و لم اتزوج و لم أبن أسرة و لم أسعد ...

شعرت بحزن أمام هذه الألآم الجائرة التي ظلت مكبوتة ربما منذ سنوات و طفت من جديد من إمرأة مختلفة و بعيدة كل البعد عن مصير الأناس العاديين .

كان السعال يهز صدر لالا زينب من حين لآخر .. شعرت أنها مريضة .. يا حسرتاه .. أنها الرقيب في عائلة كبيرة و غنية تزدحم من حولها ثروات ..ماذا سيطرأ للزاوية المحسنة يوم تموت لالا زينب .. شخصية هذه المرأة التي تعيش في العزوبية لعبت دورا دينيا كبيرا و ربما الفريد في الشرق الاسلامي تستحتق أن تدرس شخصيتها أحسن ..انه عمل يصعب علي القيام به في اقامتي القصيرة هذه بالزاوية

قضيت ليلة في غرفة شاسعة محدودبة رياح الجبل تهز بقوة مصارع النوافذ أبكي و أشتكي في واد بين قبور المقبرة القريبة .. صوت حزين في حلمي غير منقطع وناعم يوقظني عند الفجر .. الله وحده المعين .. الذي لم يلد ولم يولد ..الله الذي ليس له شبيه الصوت كان في شكل غنائية بطيئة ..افقت شاعرة بحزن

و كأنها القيامة إقتربت من النافذة في الأسفل عجوز يتجول و يتلو أيات قرآنية .. ودعت لالا زينب و غادرت زاوية الهامل

الى بوسعادة حيث ركبت عربة بشعة بالية مزدحمة باليهود .. العربة التي ستقطع 130 كلم من العقبات

و الأخاديد . هي في البدء رمال حمراء و أشجار الطرفة المتناثرة في فضاء واسع وشاغر الذي يشبه الصحراء ..التي أنأى عنها ثانية .. التوقفات الأولى أوجهها معروفة و محببة . برج ماضي . مجمع نخيل هناك في المنخفض .. بعدها كل شيء يتغير .. و بصعودنا باتجاه الهضاب العليا منظر الطبيعة يصير قاسيا و حزينا حزن لا اشتهيه .. إنه النهاية ؟!

حلم السبعة أيام طار مني و مثلهم أخرين . و انا أتساءل هل أنا فعلا عشت وقائعهم و أنهم ليسوا مجرد حلم فقط هل بوسعادة و زاوية الهامل و هذه المرابطة بحجابها الأبيض ... كل هذا

ليس من مخيلتي المشحونة بالحنين .. كم أسف على فقدان بوسعادة و ضوئها الذي لا يقارن ..أ
ضواءها المزدحمة و الدافئة ,و الخلابة .

لالا زينب شيخة زاوية الهامل

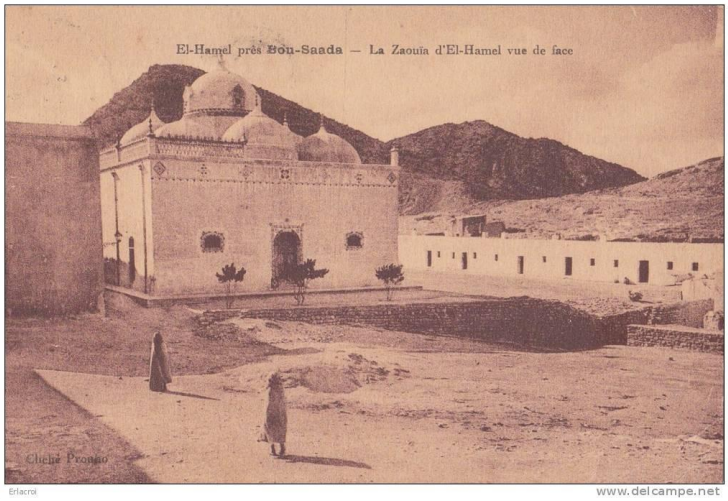

زاوية الهامل

اليزابات ابرهاردت الى تنس . الشلف . ثم العودة الى بوسعادة

بعد فترة توجهت الى تنس . ولاية الشلف حاليا . المقرفة , حيث عشت مدة شهر بالقرب من فلاحي التل .. و هناك إنكببت أدرس بعناية التقارير المتعلقة بالأهالي و الكونول .. درست معاناة الفلاح الجزائري وصبره ..إزاء المعمر . الكونولياليي . الذي عادة ما يكون منافسا عنيدا لجاره و لا يريد فهمه ..و أتردد كثيرا على العاصمة و أكتب لبعض الجرائد ..وفي يوم ماطر التقيت ابو بكر تحت الأروقة

. لا تأتي لرؤيتنا في بوسعادة ؟ .. الأشجار بدأت تورق .. و المرابطة . لالا زينب . تتكلم عنك من حين لآخر ؟!
. و بعدها بيومين كنت من جديد في طريقي الى بوسعادة خفيفة و سعيدة ..على الرغم من برودة الفصل .. كما لوكنت ذاهبة لقطف الزهور من الحديقة.

الأميرة السمراء . بوسعادة . المقنعة بحدائقها الداكنة , و المحروسة بتلالها الأرجوانية , تنام بإشتهاء ,على حافة الواد الشديد الإنحدار , حيث خرير الماء يسيل على الحصى الأبيض و الوردي في تمايله,. غير مبالي بالجدران الترابية الصغيرة , أشجار اللوز تذرف دمعا أبيضا تحت مداعبة الريح ... وعطرها المستشري الناعم والفاتر من النسيم ....مستحضرا أنينا ساحرا .

إنه الربيع , في ظل مظاهره المترامية .في غاية العطاء ..حياة مكتئبة قاسية, مشحونة بحماسة الحب ,,, نسغها القوي يصعد من صهاريج غامضة للأرض .
صمت الأحياء الجنوبية يسود بوسعادة , وفي المدينة القديمة . المارون ,,, نادرون في الواد , و مع ذلك هناك مارون في بعض الأحيان ....

نساء و فتيات بزيهن الرائع .. وملاحف ألوانها : بنفسجية , وخضراء زرمدية تجمع بين وردي فاتح , و صفراء ليمونية , و أحمر رماني ,و أزرق سماوي , و برتقالي , و حمراء أو بيضاء , مطرز عليها رسومات و أزهار , و أنجم , متعددة الألوان , و تسريحة رؤوس شعرهن , ذات البناء المثقل بتسريحة الضفائرالصحروايةو و أيدي مزينة بحلي الذهب أو الفضة , وسلاسل و مرايا صغيرة , و تمائم أو تيجان مزينة بالريش الأسود . و كل ما سلف ذكره وما يصدر منه يعكس أشعة الشمس

.. انه محفل النساء يتجمع ثم يتفرق مثل قوس قزح و يتغير مثل سرب الفراشات الجميلة , و مجموعة رجال أيضا بزي برانسهم ذات اللون الأبيض وسمرة بشرة وجوههم يخترقون جموع النساء و الفتيات ,محدثين ممرات في جموعهن .

منذ سنوات و أمام كتلة من الغضار . طين . المجففة للشمس . امرأتان مسنتان جالستان من الصباح الى المساء ,في ملحفتهما الحمروين الخفاقتين والداكنتين ..حيث الخيوط الصوفية السميكة مشكلة طيات ... الملحفتان الثقيلتان تلفهما كأنهما موميات ,و تسريحتهما تأخذان طابعهما من عرف المنطقة مع ضفائر حمراء و جدائل شعرهما الرمادي المصبوغ بالحنة ذات اللون برتقالي الفاتح .... ترتديان في إذنهما المترهلة حلقين ثقيلين وفي أعناقهما سلسلتان من الفضة و تدبيستان تربطان قماش حريري على مستوى صدرهما , و قلادتان من قطع الذهب , و عجنة صلبة معطرة (سخاب) و صفائح فضية صلبة على شكل قطع تغطي صدرهما المترهل وأثناء ترحركاتهما النادرة و البطيئة كل هذه الحلي و الأساور و الدبابيس و ما هو مرصع به معظمه يحدث جلجلة.

تتحركان مثل الأصنام المنسية ،وتتمظهران من خلال دخان السجائر المتصاعد الأزرق لسجارتهما ... و الرجال لا يأبهون بهما ..
الفرسان و محفل الزفاف لقافلة الجمال أو البغال . و المسنون الذين مضى زمانهم و كان لهم عشيقات ذات يوم , كل حركة الحياة هذه تؤثر فيهم .

الصديقاتان المسنتان عيونهن الشاحبات توسعت بفعل تكحيلها و خدودهن المحمرة و الموشومة لا تزال محافظة على وجودها على الرغم من التجاعيد , و شفافهن المحمرة أيضا كل هذه الأبهة تلقي بظلالها على الوجوه الحزينة و المسنة و الهزيلة والعديمة الاسنان ..عندما كانتا في ريعان الشباب سعدية كانت جميلة و كانت طلعتها معقوفة سمراء و حبيبة بيضاء نحيفة الجسم فاتنة مسلية البوسعديين و أغنياء البدو الرحل الذين تناقصوا .

في الأيام الخوالي يتأملن في سلم . الديكور الخفاق من الحي الكبير حيث يوحي بلقاء مع الصحراء من أجناس أفريقية تأتي لتختلط لمبتسمات للحياة المستمرة الغير قابلة للتغيير و بدونهما من يدري ؟
في أوقات حيث المؤذن ينادي المصلين . الصديقتان تقومان و تركعان على حصيرة ليست ملونة مرفوقة بجلبة الحلي ثم تأخذان مكانهما مثل الذي يترقب شيئا لن يأتي .. و نادرا ما يتبادلان الكلام .

انظري الى هناك سعدية , سي الشلالي و القاضي إنه يذكرك بزمن حيث كان عشيقي لما كان فارسا لعوبا .. أسل بعناية تامة فرسه الأسود وكم كان كريما على الرغم من أنه مجرد قاضي بسيط أيضا , و حاليا ها هو عجوز و يلزمه شخصين لمساعدته على الصعود على بغلته الوديعة مثله , و الذي كان ولا إمرأة تجرأ على النظر في وجهه إنه الذي أود أكل عيونه بالقبلات ..نعم و سي علي الضابط الذي مجرد سبايسي جاء مع سي شلالي .. كم أحببتيه كثيرا ... إنه يتذكرك ..هو أيضا كان فارس جريء وطفل جميل كم بكيت عندما نقلوه الى المدية , حينها كان سعيدا لآنهم رقوه الى رتبة قائد ..

سعدية ترد : نسيني فعلا الرجال هم هكذا ..توفي العام الماضي الله يرحمه ,

في بعض الأحيان يغنيان قصائد الحب . ذات الرنين الغريب في أفواههما بصوت متهدج تقريبا من بعيد و يعيشان بالتالي مبتهجات بين أشباح الأيام الخوالي ينتظران حلول الساعة .

الشمس تحمر و تصعد ببطء وراء الجبال المرتدية لضباب خفيف و توهج ارجواني يمر في مواجهة الأشياء مثل الحجاب المتواضع الأشعة المستجدة تتشبث بذروة النار أعلى اشجار النخيل و القباب الطينية للأولياء الصالحين....

شمس تشبه الذهب الخالص و بعد برهة كل المدينة القديمة تلتهب بلهيب أسمر مصفر مثل المكلسة بلهيب داخلي في حين أسفل الحدائق حيث مجرى الواد . الممرات الضيقة تظل في الظل مثل المعبأة بالدخان الأزرق الذي يحرك الأشكال الزوايا فاتحا الألغاز البعيدة بين الجدران الصغيرة و القصيرة و جذور أشجار النخيل المنجورة , على حافة النهر الدلاح . الدلاع . مسبوغا باللون الوردي وموسوم بقطرات متناثرة و مجمدة .

أمام مأوى الصديقتين , النسيم المنعش ينتهي من النفخ في رماد الطهي الخامد محدثا به زوبعة صغيرة .. لكن سعدية و حبيبة لم يكونا في مكانهما المعتاد .

من الداخل شكوى مبحوحة أحيانا و حادة أحيانا أخرى , منبعثة حول الحصير المتمددة عليها حبيبة تلك الحزمة العديمة الشكل لنجمة حمراء على تسمرها الشديد الإنحدار الذي تبرق مجوهراته بشكل غريب ..

سعدية و عاشقات قديمات أخريات يندبن بأظافرهن على خدودهن بعنف مخلفة لجروح على وجوههن , نداب مرفوقا بصلصلة المجوهرات على إيقاع الشكوى و البكاء . عند الفجر حبيبة العجوز ماتت بدون معاناة و بلطف , لأن ربيع العمر مع مرور السنين تحطم . يغسل جسم الميت بكمية كبيرة من الماء و يلف في قطعة قماش بيضاء بعد ان تسكب عليه عطور ثم يوجه

وجه الميت شطرالقبلة .. وفي حدود منتصف النهار يقدم رجال لحمل حبيبة الى أحد المقابر الغير مسيجة بجدران و حيث رمال الصحراء تتحرك مثل موجة أبدية في مواجهة الحصى الرمادية التي لا تعد ولا تحص .

انتهى كل شيء . و سعدية اتخذت مكانا لها مع دخانها الأزرق رفيقها الأبدي و من سجارة على وشك إتمامها تنفث منها زفرة ما تبقى لها من الحياة في حين وعلى حافة الواد المشمس و تحت ظلال جدران الحدائق , اللوزات لا تتوقف على النحيب ودمعات بيضاء ممزوجة بابتسامة الربيع الحزينة .

صلاة الجنازة

أسرة بوسعادية

لالا اليزابيت فيفري 1900م باريس

==========

على حائط أمامي , هناك خريطة بونة . عنابة . ,أرسلها لي الخوجة , الى . كجلبار. .و على تصميمها نقطة قمت بتوثيقها , لقد أيقظت في ذاكرتي ذكرى مؤثرة .إنها مقبرة الأهالي حيث ترقد أمي مع المسلمين الجزائريين .

تلك الكلمتين البسيطتين و االلاسعتين , على خريطة رثة منحتني عدة مرات هذا التشويق الداخلي و الذي يعد أحد الشروط الأساسية لتطهير معنوياتي العقلية ,لأرى في تلك اللحظات المباركة شبح . عنابة .. بونة . المحبوب يروض أمامي ؟ .و الذي جعلني هناك أحلم مدة سنتين على أراضي المنفى ؟إ .و بالتالي الروح العظيمة التي أشعر بها تتمظهر عدة مرات على كياني و الحاضنة لغموض .و يا ريت أستطيع أجعله يوما يظهر في بهاء و ازهرار .

الحمد لله على معاناة قلبي ..الحمد الله الى مماتي ...رحمته وحدها المضمدة للنفوس المكلومة ,, الحمد لله على القبر الصامت و الذي لا يعد باب الخلود فقط للراحلين و لكن أيضا انقاذا للأرواح التقية التي تعرف البحث في الغيبيات ,,الحمد الله على الحزن و الكآبة ...لا الاه الا الله الملهم , .و,نأيا عن كل يأس تافه و ذنب غير مكترث ..و نأيا عن كل تجاهل ؟ فبأي ميل لظلي المواساه هل لمقبرة عنابة حيث ترقد أمي أم لفرني جنيف و حيث يرقد الكسندر تروفيموسكي الوصي علي؟ انه النشاز في أوضح معانيه ؟إ إنهما في بعض الأحيان يقدران على طمس ذكرياتي و الى حد إعدامها ؟إ ... .لا . نأيا عني و عن كل تلمس لمراهقتي الواهنة ,,و نأيا عن هذه الروح الشهوانية المبتذلة و التي ليست مني ,,تأتي محدثة فوضى و التي هي كل خساراتي .

و بالتالي في أفق فيه جتما سوف تتبدد غيوم جنيف لتكون فيه مشرقة هناك ..مع أولى إشراقات ذهني ...عندما يثيرني إعجاب غروب الشمس الحزين خلف ظلال أعالي جبال . جيرا . العابسة و حينما أحاول التكهن فيما يخفيه القدر لمستقبلي ...

تعالوا إلي ذكرياتي ..لن تطاردكما ...تعالوا لإيقاظ الشعلة المقدسة التي قد تستهلك كل الشوائب المترسبة بروحي لتظهر قوية و جميلة إستعدادا للدوام ,,,أ حلام غير متسقة ,ومتفردة ..أحلام لا يمكن ترجمتها ....انكما كل أسباب وجودي في هذا العالم ؟

29مارس1900 الساعة 10.30سا

بألتأكيد روحي تخترق فضاء الإنتظار ,,و الأحاسيس المؤلمة للوقت الراهن لن تدوم و الواقع المظلم في حياتي الباريسية له إحياء .ربما خلال الشهر القادم سأذهب هناك الى الصحاري الشاسعة للبحث عن انطباعات جديدة ,و للبحث عن مواد للإستخدامها في عمل أريد بناءه ؟إ . لكن كل تربيتي الأخلاقية يجب اعادة بناءها ؟إ ,, أود أن تلهمها أفكار عظيمة من الماضي الجميل... من العقيدة الاسلامية التي هي روح السلم و الاطمئنان ؟إ.

و الحق أنه بعد كل شيء هناك صمت و هناك قبر ...و كل ما أطمح اليه يوظف في التخفيف من أحداث هذه المأساة التي يستحيل تفسيرها ؟إ.و.التي بإسم الحياة يجب لعبها باقتدار .

2ماي 1900م ال 10صباحا

منذ أيام و أسابيع الشمس مشرقة و السماء زرقاء ...باريس تتزين بألوان متألقة وكل شيء فيها في جو إحتفالي ,خرجت من طي النسيان حيث تجولت منذ عودتي من .كجليا ري . .
روحي تتحسن شيئا فشيئا و ببطء تتفكك من ضباب متوحش , و الذي يبدو غارقا و يصعد ببطء و ثبات في مجال مثالي الذي سيصله في يوم ما .
في اليوم نفسه منتصف الليل:

لقد عدت لتوي هنا , الى هذه الغرفة للنوم بها و للمرة الأخيرة . انها الليلة الأخيرة بباريس , التي بدأت أحبها بعمق و التي فيها عانيت و حلمت ,و الله وحده يعرف من يدري ربما عدت ثانية اليها .مثل هذا الحضور من المجهول دائما أحس نفسي مثقلة به .

مرسيليا 7ماي1900م

_____

وصلت الى مرسيليا ,حيث وجدت الأجواء سيئة ومهددة , أثرت على نفسيتي بثقلها المؤلم طيلة إقامتي بها بعد عودتي من .كجلياري . ,,و هو ما شعرت به في .ماكون . أعتقد هو شعور مكثف و رواسبه منذ مدة من السنوات الخوالي للفلة الجديدة في الربيع بجنيف ... كان القطار متوقفا في مدخل المحطة , حيث كان يتملكه صمتا رهيبا ,,وقبالتي وعلى اليمين مسلك سكة القطار كانت هناك بالكاد أشجار أرجوانية اللون و أزهار أغصانها بدأت تتفتح , و عندليب يبعث أخر غنائياته الليلية , و كان هذا كل شيء , هي ومضة لحلم هارب , لاشيء.إ.. ومع ذلك شعور له الإستطاعة على التعكير ويسري الى عمق الغموض الكامن في داخله .

بعد أيام سأكون في .بونة عنابة .و سأزور قبر أمي التي مر عليها ثلاث سنوات منذ وصلنا الى هذا الساحل البربري ,,حيث تبدو لي كل هذه الأشياء الأفريقية غير واقعية .

وبحجم الظلام الذي أبكي و الذي يلهمني القوة و الصبر و الطاقة الضروريتين لتغلب على الأعباء الحياة الثقيلة التي ورثتها من السنوات القديمة . ففي هذه الايأم من أعياد ميلادي لسنتي 1898م و 1899م ... ذكرياتي المحزنة تعود أيضا الى الذريحين اللذين بقيا في المنافي ... بقايا دائمة لمعاناة البؤس و أمال من الماضي بما أن الفلة الجديدة بجنيف : الاقامة الغالية سيتم بيعها في غضون الأيام القلائل الى غرباء غير مبالين بقيمة عمقها ...و ذاكرتي تعود باتجاه القبرين الاثنين و مما لا شك فيه لن أعود أبدا , و أن الأعشاب الرهيبة تكون قد غزتها هذا العام مع عودة الربيع المخمور بالحياة الأبدية و الخصبة و الغير قابلة للتدمير .

تحت أي سماء و بأي أرض سارتاح ؟ الى أن يحين أجلي ؟ الذي هو في الغيب ,,, ومع ذلك أرغب في أن جسدي يدفن بهذه التربة الحمراء للمقبرة البيضاء . لعنابة . حيث تنام أمي ,, أو في أي مكان في رمال الصحراء الحارقة بعيدا عن دنس الغرب الغزاة ؟إ.

مخاوفي التي ليس لها من المسببات المحزنة و أيضا الصبيانية و على الرغم من سذاجتها ..نظير السحر العظيم للموت .

باريس

862. - PARIS (13e). - Métropolitain - Boulevard de la Gare
Station Quai de la Gare - Au fond : le Viaduc de Bercy
J. H.

باريس

اليزابات ابرهاردت : الاقلاع من مرسيليا باتجاه الجزائر سبتمبر 1900

لم أستطع أن اصدق بعد كل ما سلف ذكره ؟ هل كل هذا من أجل الاقلاع باتجاه الجنوب الجزائري ؟ ...كثير من الظروف الغير متوقعة كانت حاضرة للتأخير ,,ومرات عديدة تساءلت فعلا و بفارغ من الصبر اذا كان هذا المشروع الذي صار عندي غاليا هو مجرد أثغاث احلام و يستحيل تجسيده . الولوج الى عالم الصوفية . ؟إ

وقبل فترة ليست بطويلة أيضا سألت نفسي هذا السؤال بجزع ,,و الآن صار كل شيء جاهزا ولا شيء يستطيع كبحي

...و هذا الحزن الرهيب يغزو قلبي و ينزل رويدا رويدا و ببطء مثل نزول الشفق الفاتر لفصل الصيف...

ومع ذلك كنت مجرد مار غريب في هذه المدينة و في هذا المنزل لأخي حيث من عدة شهر لا اقوم الا بظهور مفاجئ و خاطف مندفعة فورا و بمحض الصدف هائمة على جهي ؟

نومي تعكر هذه الليلة من رؤى غريبة و غامضة و مهددة و بعد الإستيقاظ من نومي لم يحدث أي شيء و نهضت بمزاج منفعل و هي خاصية أختص بها في اليوم الكبير للاقلاع .

شيء غريب يعترييني في الشهور الأخيرة من حياتي في أروبا ,,شيء شديد العذاب و القتامة يبدو متراجعا بالنسبة لي في موجة بعيدة ...و الصور الظلية المتحركة من هناك تقترب .

أقلعت من مرفأ . لوجان بريار . و في تفكيري سفري الذي قمت به السنة الفارطة على هذا المركب ,لكن في ظروف مختلفة من قلق و الكفاح في الظلام المطلق موسوم بتبعية السلام المحزن و خمول مشحون بألأحاسيس المؤلمة ؟إ

وعلى رصيف الميناء , وسط ضوضاء الزحمة .خيال واحد لفت انتباهي في ملابسه السوداء انه أخي الذي اختار الحياة الهادئة و المستقرة و الذي رافقني مرة أخرى ليبقى هو و أسافر انا الى المجهول ؟إ .فجأة فصلنا سياج الميناء و بقينا نتبادل النظرات و نفكر في غرابة مصيرين ؟إ .. و أيضا في تأسف من عبثية رغبات البشر ,ومن الأحلام الزرقاء الجميلة و ما قمنا به على أراضي المنافي ,

حيث فتحنا أعيننا على واقع مرير من أجل الوجود ؟ و برنة أخيرة من الجرس .. صفارة الانذار تمزق كل صمت

و يبدأ الرصيف في النأي عنا شيئا فشيئا ,و بعدها تيار يفعل فعلته في الماء العكر الذي يطغى عليه اللون الأخضر فننسحب بسرعة ..و قريبا بين رصيف الاقلاع سيختفي خيال أخي العزيز و سيصير نقطة سوداء كلما نأينا عن الرصيف ؟ و عندما انحرف المركب عن رصيف الميناء بإتجاه رواق الجنوب .. و ها أنا مرة أخرة وحيدة الى أفريقيا متكئة على السياج الخلفي للمر .

.أتأمل في المناظر السحرية لمرسيليا .في الواجهة , ميناء . جوليات . الذي يبدو في سبات بصوره الظلية القوية الألوان : الحمراء و السوداء و ارصفته العامرة بالطوفات و القوارب التي لا تعد و لا تحصى وسط سفن الشركات... .

و أبراج المنازل العالية المتراصة على حافة رصيف الميناء بألوانها الحمراء و السوداء كأنها ثكنات توحي بالكأبة .ثم المدينة و المدرج الذي يشق وسط طريق الميناء القديم . كنيبيار .

في البدء بدت لي مرسيليا عبارة عن سلسلة دقيقة رمادية الظل الملون ,رمادية السماء المدخنة , رمادية الجبال البعيدة ذات الزرقة و الورود البيضاء و أسطح المنازل الصفراء ,رمادية الصخور بلون الطباشير الفاتح ..لتلة عصية تعلوها سيدتنا . دو لجارد . ...ثم في الجزء المشهد السفلي الرمادي و الفضي و بهذا التمظهر الرمادي ,لممرات نباتات وقبة مذهبة للكدرائية تضيف لها لمسة مزخرفة بارزة و شفافة باللون الرمادي في قمتها كأنها محلقة فوق الغيوم و الدخان و لمعان القبة المذهب يضيء البتول العذراء. .

تدريجيا نستدير بإتجاه اليسار ,ومنه مرسيليا تتلون بالون الذهبي الموحد و المدهش ,, مرسيليا موطن المغادرين و المودعين و موطن الحنين فهي لا تقارن اليوم ,,غارقة في محيط من الضوء و في هالته منصهرة كل الإنصهار . بعد ساعة سنتجاوز الصخور الطباشيرية البيضاء المطبوعة بالزرقة الشاحبة و المصارعة على الدوام للموجات .الآتية من أعالي البحر لتنهار في أفقها و يختفي كل شيء .و أبقى دائما ملتسقة بحاجز المقطع ,أحلم مستقلة في حزن 'لا يسبر غوره غدي المجهول ,, و حصيلة هي الأخرى غير معروفة و أشياء غيرها محددة زمن الوقوع. ,تديره و توجهه و هي دائما سريعة الزوال .

و أيضا مثل بعض الارواح لا تتعلق بالأرض الا بعد خوض تجربة المنفى ؟ و هذا الحنين بالنسبة لها هو فجر الحب الدائم للمكان من الصعب مغادرته , حب عميق أقل أمل فيه هو

العودة ,,أحس أنني بدأت أحب هذه المدينة و موانئها خاصة ومظهرها كما بدا لي في هذا النهار ،،، تظهر بين الرؤى دائما غالية و المطاردة لأحلامي الهائمة في الوحدة .

إنخفض النسيم , و صمت رهيب كان له وقعه على البحر في حين أن في الأفق الغربي الجميع هناك ملاح يتفتقر للدقة لاتمام الانجاز التلف الوهمي في أماسي الشمس الصيفية و في الابخرة الرمادية الارجوانية ومنه صار لون البحر بنفسجي بعد لحظات قليلة من التوهج المحتشمة الليل يسدل ستاره سريعا غارقا بعذوبته نزلت لعمل لا مفر منه لإعداد المائدة .. وكان كل من حول الطاولات و على الأرائك المتحركة في القاعة و لا واحد منهم لبق أو عيناه مشحونة بطاقة العطف و الأريحية ,انه وسط تافه من الموظفين الماديين تغزوه سفسطة بدون معنى . الى الحد الذي شعرت فيه بالوحدة و الغربة بين هؤلاء الناس لتجاهلهم لي ,لا أعرف لماذا؟ و بدون شك أنهم يشعرون و يفكرون بطريقة مختلفة.

عني و على أية حال عمامتي الاسلامية و هيأتي ايضا كانتا أيضا عائقا في التقبل من مجتمعهم فقد كانوا ينظرون الي و كأنني بهيمة غريبة الأطوار .

و سريعا صعدت على ظهر المركب و إتجهت الى الألمام حيث بدأ هبوب النسيم المنعش الذي عم كل المسافرين و الآن يمكنني الاستلقاء على مقعدي.

على الدوام في هذه الساعات المنعشة و الساكنة من الليالي الصيفية في عرض البحر أشعر باحساس استثنائي من الرفاهية و الهدؤ فابقى مستلقية على ظهر المركب و هو يتأرجح و أنا منتبهة للفانوسين للمركب في الأعلى ,,الانهيار اللا متناهي للنجوم ,,أحس بالوحدة و الحرية و بعيدة عن العالم و انا سعيدة بذلك . و أغفو بسلام .

حوالي الساعة الثانية و النصف صباحا ,تململ المركب يمينا و يسارا ,,,مع سرعة قوة حركيته ,فيوقظني من نومي ,حينها أنهض و باتجاه اليمين في الظلام الدامس أرى ضياء الفجر :انها منارات البليراس ,و هنا منارة الدورية لماريوكا ..نمر عرضيا بين الجزر و البحر الهائج .

أشعر متأملا هذه الأضواء الاستدلالية لاراضي التي من المحتمل غير معروفة ,هو انطباع استثنائي لموجة من الغموض ثم ببطء شديد اعود الى النوم .

ميناء مرسيليا

ميناء مرسيليا

اليزابات ابرهاردت تتعرض لمحاول اغتيال و يحكم عليها بالنفي في مدينة واد سوف :فيفري 1901م

تنبيه : في تصريح للكاتب فيكتور بريكاند جامع أثار . اليزابت ابرهاردت . بقوله : كما هو معروف أن اليزابت ابرهاردت أثناء توغلها في الصحراء الجزائرية تعرضت الى محاولة اغتيال من متطرف جزائري حيث تلقت منه ضربتين بسيف و احدة على رأسها و الثانية على ذراعها الى الحد الذي تسبب لها اغماء نظير النزيف الدموي بسبب عدم الإستعجال لإسعافها عمدا ,, بعدها نقلت الى المستشفى العسكري لواد سوف و مكثت هناك قرابة الشهر و أثناء المحاكمة صرح المتطرف المعتدي : دفاعا على الله و شريعته حاولت قتلها لأنها كانت تتزى بزي رجل)

انتهى تصريح . ,, وما ترتب عن هذه المحاكمة العسكرية أن اليزابات تحولت من ضحية الى متهم و هذا على الرغم من تنازلها عن المطالبة بحقها لأنها كانت تعرف مقدما أن ما تعرضت له هو مكيدة من دوائر المحتل الفرنسي و يبقى المتطرف مجرد اداة للتنفيذ ؟ و ماجاء في حيثيات الحكم هو نفي اليزات ابرهاردت الى فرنسا و هو ما حدث بالفعل حيث نقلت من مدينة واد سوف الى ميناء عنابة مرورا بمدينة باتنة تحت الحراسة المشددة للقافلة العسكرية رقم 25 .و ما يجدر التذكير به انه لولا تدخل الكاتب فيكتور برسالته التوضيحية لبقي ما نحن بصدد قراءته مبهما بحكم أن اليزابت تعمدت في نصها التلميح و عدم الإساءة الى اخوانها المسلمين من الذين ظلموها و تواطؤا مع المجلس العسكري في اصدار حكم النفي (...؟إ...) .

... تضيف اليزابت ابرهاردت : ما زلت واهنة ضعيفة , و مع ذلك استطيع النهوض و الخروج .. أجلس لساعات تحت رواق المتصل بمبنى المستشفى , و في الظهيرة , حيث الشمس لا تزال حرارتها أشعر بشعور حسن يتجدد وعلى الرغم من الضياء الرمادي الحزين ,,, هذه الساحة الواسعة للقصبة اين تتجمع كل المباني العسكرية للمستشفى .

هو مشهد على الدوام مكويناته أحجار و رمال و لن يطاله الاخضرار ,, مشهد كل ما يحوزه ثابت و لن يتغير الضياء وحده المتوهج و المذهب باشعة الشمس يشعرنا بقدوم فصل الربيع . وعلى الرغم من الرياح السيروكو , و الغيوم الرمادية الثقيلة , و مع ذلك الهواء كان نقيا و دافء وهبوب النسيم العليل تقريبا فاتر . لقد أعتدت على هذه الحياة الرتيبة في هذا النطاق الثابت و الذي له تمظهرات نفسها تجيء و تروح من حولي .

عند بزوغ الفجر و بالقرب أسفل رواق الثكنة العسكرية قناصة ,, المنبه يرن باعثا صرخة في البدء الصوت كان خافتا ثم يزداد وضوحا و يطغى , و فجأة الباب الكبير يفتح محدثا صريرا و حركة الذهاب و اياب تبدأ عندنا , إن هن الممرضات بنعالهن العربي اللا ئي نهضن ,, و بعد هنيهة طرق على بابي مع دفع . بيان النظام المعلق على الجدار : يمنع الاحتباس ليلا : انه الجتروب . خادم . : شاب فارع القامة أبيض صامت و الذي يقوم بإحضار لي القهوة و يسألني كل يوم السؤال نفسة : حسنا سيدتي أنت بخير اليوم ؟.

أنهض بمشقة ثانية خلافا لنصائح الطبيب العاصف بغضبه دائما ومع ذلك يتركني أفعل ما أريده .دوران برأسي ؟ وهن سقاي اللينتين. لكن هذا الدوران دمث . و ذهني يبدو في رقي ليصبح أكثر قدرة على تلقي الاحاسيس السعيدة في فترة النقاهة .
هذا الصباح انحنيت على جدار الفناء مستندة على مرفقاي و رحت أشاهد مدينة واد سوف . و لا توجد كلمات التي تجعل من الحزن مرا بهكذا انطباع , لقد بدا لي االمشهد الذي شاهدته عادي بمعنى أوضح إنه مشهد لمدينة غير مألوفة مثل أي مشهد من على ظهر سفينة لتوقف قصير ,, لكن الرابط الذي يربطني بهذه القصبة لواد سوف و الذي أريد أن اجعل منه موطني الأصلي ... إنه رابط مؤلم تقريبا ,, كما يبدو لي الى الأبد مكسورا ؟إ إنني مجرد أجنبية هنا ؟إ ,, و على الأرجح سوف أسافر بمعية قافلة العسكرية رقم/ 25 و بعدها الأمر ينتهي و ينتهي الى الأبد (الاستعداد للنفي) .

و هروبا من هذا الحزن الجاثم على صدري ,, حاولت الابتعاد عن الدكة التي كنت أتطلع منها حتى لا أر الحي و حركيته الخاصة و التي دائما هي نفسها . لدينا هنا في الوقت الراهن قناص من القبائل الكبرى طويل القامة و نحيف جسده ناتئ العظام غائر العينين البراقتين , الطبيب يقول عنه عمر هذا : أنه مجنون ؟ و العرب يقولون عنه انه صار درويش . مرابط . فهو على مدار النهار يتكسح في الفناء متطأطئ الرأس و سبحته في يده و لا يكلم أحدا و لا يجيب أي سائل .

أثناء تجوالنا بالصدفة , عمر يلتقيني و بدون أن ينبس بكلمة , يأخذ يدي و نمشي مع بعض ببطء على الرمال الثقيلة و بين الفينة و الأخرى القناص يكلمني عندما نكون بعيدين عن أي إزعاج . أفكاره غير متسقة و مرتبة ؟إ لكن تخاريفه لست طاغية على كلامه ,, انه لطيف و لبق و قد تعودت عليه و يتوجه الي بالقول : . سي محمود يجب أن تصل , عندما تغادر اذهب الى الزاوية و صل .

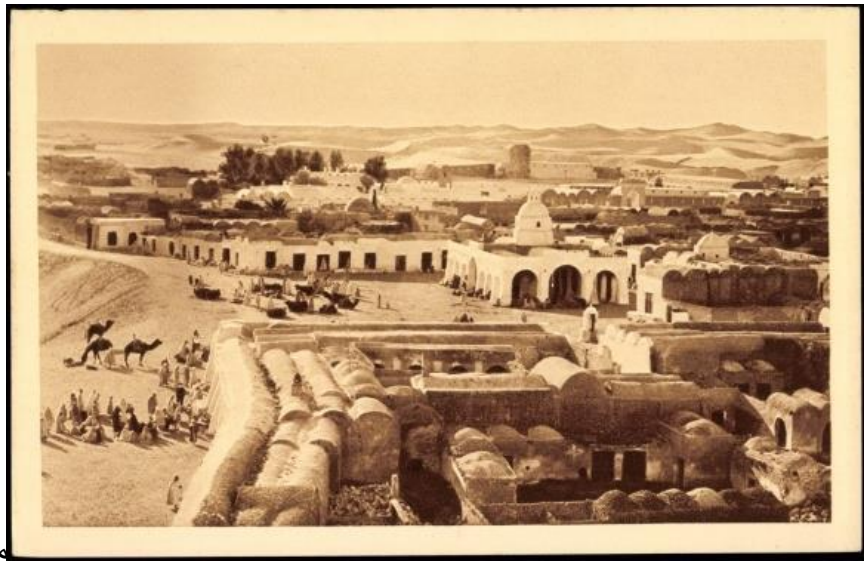

مدينة واد سوف

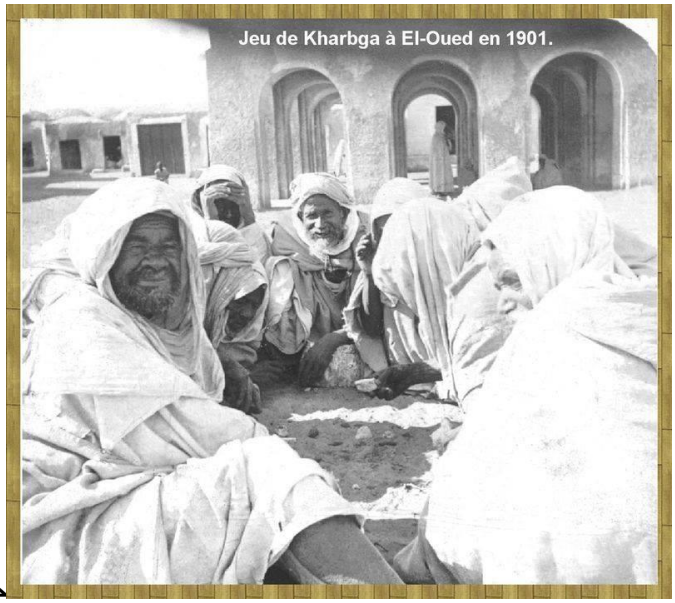

جلسة بدوية

ليزابت ابرهاردت تصف حالتها النفسية عشية نفيها الى مرسيليا 12ماي1901م

غادرت مدينة باتنة يوم الأثنين 6ماي على الساعة 4 صباحا .
أصبوحة صامتة 'ساطعة بضؤ القمر , و سكون يعم الشوارع . سيرا الى غاية باب سطيف للمدينة برفقة سليمان ,و العبادي و خليفة ..و في موقف صغير و على مقعد لشارع محطة المسافرين ..و للمرة الأخيرة عدت رفقة سليمان لرؤية الخيال الغالي الذي تقريبا باهت في

الظل .

ريف مدينة باتنة الى °لقراح °كله غارق في الفقر و الحزن ,و ما بعده ثراء لا يصدق من ظلال الوان الخشخاش و أعشاب الحقول المبقعة بالإحمرار و الإخضرار الداكن و أزهار شقائق النعمان و الأزهار الزرقاء و الصفراء المشابهة لحقلي هناك بشارع لومابسك . ففي الكيلومتر الرابع حيث جئت مصادفة مع الصباحيات الساطعة لشهر أفريل , مع السوفي المعوز و الوفي ,, كانت باتنة مدينة الحزن ,و المنفى و هو ما يؤسفني اليوم , لأن صديقي صاحب القلب الطيب بقي ؟ أين هي مدينة سوف ؟ أين هو خليفة ؟ أين كل هذه الأشياء التي جلبت من مدينة واد سوف ؟ انها ذكريات جميلة من منزلنا هناك ؟!

و صولا الى بونة . عنابة . على الساعة الثالثة مساءا ,انه الشعور المكثف للأيام الخوالي عند الخوجة . و في الكور بلو . الساحة الزرقاء . كانت أمي تتردد كثيرا للجلوس بها لا شيء يذكرني من الماضي خلال طيلة اقامتي ,,,ما عدا اليوم الأخير .أنطباع لحلم بقي من هذه المدينة حيث لم أستعيد من ذكرياتي إلا خيال هذا البيت العربي عند الرحيل ؟!

هي ملاحظات كلها حزن مفككة بإرتدادات اليأس الذي يسبب لي الانفصال عن °ويحا , ° كيف يمكنني العيش بدونه ؟ الله وحده يعلم الحيز الزمني للمنفى ؟!...بلا مأوى ؟ و أنا التي تعودت على الاقامة في منزلها ؟!.

إنها أيام الضجر و الضيق لبونة . عنابة . تجادلني ضد القلق بعد أن فارقت سليمان و ضد شعور دائم غير واقعي . حمى الرحيل العاجل على متن °بيري ° المركب المسمى °بيار موشي ° سأمكث ببونة أيام 7و 8و 9 و الاقلاع يوم 9على الساعة 3صباحا , و الحيز الزمني لـ 6ساعات سأخصصه لمشاهدة المناظر الحميمية ,لقد صرت غريبة و الى الأبد . و

رصيف الميناء °الدوغ ° و سان اوغستين و التلة الخضراء المقدسة و المظللة بأشجار السرو .هذه العودة الأخيرة الى بونة عنابة تشبه الحلم كأنه قصير و عابر و معذب خصوصا .

في البدء جلست قرب رافعة المركب ,و على صرة ملابسي البائسة يمزقني الحزن العميق على مغادرة الجزائر المقدسة ,مبعدة من . ويحا . فقيرة و وحيدة و مهجورة على الأرض .فكرت في ديكورات الخوالي بذلات يرتديها الملاح تبعا للذوق ,أيام الرفاهية .

بدأت استسلم للنعاس تحت وطأة فكرة ناعمة .مع الاعتياد على المعاناة °ايدن بيري °جملة كتبوها جنود على باب °كاف الدور ° ..و يمكننا العثور على العديد منها للتنكيت على البؤس .. العواصف الرعدية و الأمطار . و أنا اتسكع بصرة ملابسي المبللة على ظهر المركب و أخيرا وجدت مكانا أسفل مقطع المشاة في مقدمة المركب مع أهالي نابولي و المسن المرتدي لقشبية سوداء .

ليلة نوعا ما جيدة نمناها الى غاية يوم الجمعة . و في الساعة الرابعة مساءا .بقيت العاصفة نائمة في عمق البحر .و بالقرب من مسن مريض و بشع ,,,,.المدخل لحمل الأغراض خلف رافعة المرساة على ركام من الحبال .

كانت ليلة مرعبة بسبب حمولة عظيمة من الحزمات انزلقت علي .. نصف هذيان من مخاوف جدية مرده شقائي . صوت قوي كله غضب مصدره رياح البحر كان صراخه مرتفعا الى عنان السماء . مع استنتاجاتي اليائسة و الواضحة من هذه الليلة ؟إ وعلى الرغم من القشعريرة التي انتابتني و مع ذلك لم اغير مكاني و بقيت :هو صوت الموت الذي سعر بجنون ضد شيء صغير مهتز و معذب مثل ريشة بعمقها السيء .

إنه الإهتمام المدهش لتشكيل جمل من خلال البحث عن الفاظ للكتابة في هذه الساعات المشحونة بالقلق و المعاناة البدنية الى جانب تشنج معدتي و البرد الكاسح و التعب و ألم الكلا مع المسك بالحبال المبللة و الصلبة .

الوصول سيكون بعد الظهر نزلت على الرصيف مرسيليا و بهدؤ ركبت الترمواي و الى ° مغدلين °سيرا على قدماي حاملة لصرة ملابسي و أنا الهث من جراء التعب الذي انهكني .و كلي حيرة أنني لا أجد أي جديد عن سليمان .حسنا مرت ليلة بيضاء كلها قلق استرجعت فيها ذكريات أخي اغستان .كانت أصبوحة و لا لحظة فيها استرحت الى غاية وصول خبر °ويحا ° انه يحيا ولا ينس هذه الاشياء لقد جعلني اقاوم هذا الامتحان الجديد و العسير انه الإنفصال .

أنا هنا سعيدة . ليس لذاتيتي . بل للعثور على خلاف ذلك من رفاه واسع أو على الأقل الأمن لوجودي ؟ . إن انطباعاتي خلال اقامتي في شهر أفريل 1899م بمرسيليا تكررت من جديد . للتو سمعت رنين الاجراس الثقيلة تقلب مرسيليا .انها الذكريات المشمسة حيث أتيت أنا و °بوبوا ° الى هذه المدينة التي أعشقها عشقا غريبا و الغرابة في ذلك أنني لا أحب العيش فيها ..

جولة نحو قصر °دلف °و جولة ثانية الى ° سان فيكتور ° في صباح زفاف و في يوم خريفي ساطع بعيد للغاية .لكن من يعيد لي بلدي . الجزائر . المشمسة على الدوام وزوايانا البيضاء و مساكننا المقببة و الهادئة و الأفاق اللا متناهية للرمال و ° رويحا الكحلة °و الدواجن الأليفة و واد سوف بلدي المتواضع و الرفيق الوفي و ° بليسا ° المشاكسة و دجاجاتي و أرانبي و حماماتي و كل والوجود للسكينة و الاطمئنان هناك ,من الذي يعيد المنفي المسكين الى مأواه و اليتيم الى عائلته .(تعني بالمنفي و اليتيم نفسها....

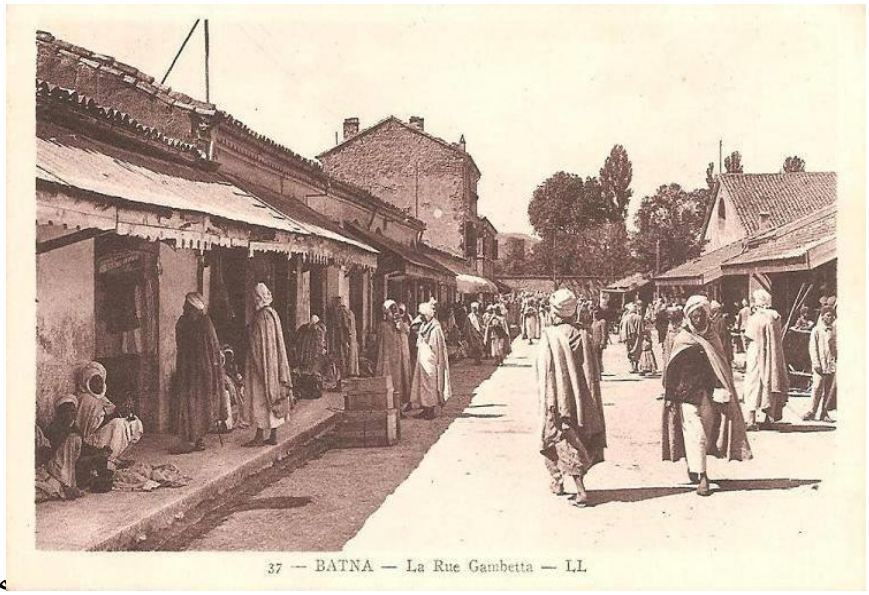

محطة مدينة باتنة

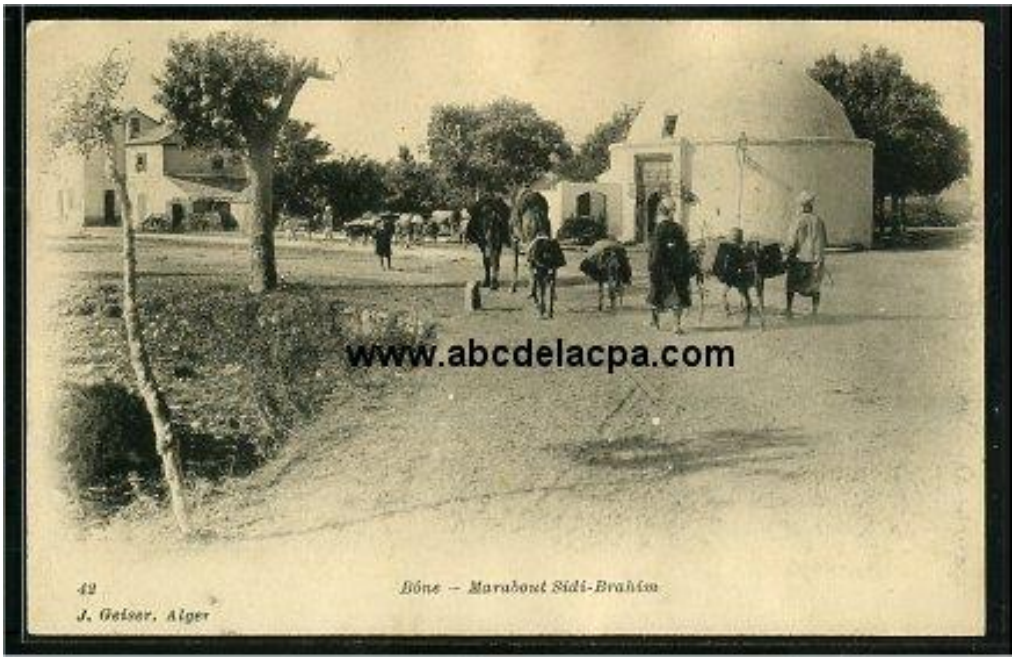

اليزابات ابرهاردت تستعيد ذكرياتهافي واد سوف من مرسيليا :16ماي1901م

أجواء رمضان في أماسي واد سوف : ففي تأمل انحنيت على جدار شرفة منزلي الغير مبلط .. سارحة في أفق متموج و رحب كأنه محيط جامد و مجفف و الذي عبارة عن سهل صخري لل ° المغيبرة ° . يمتد الى القفار عديم الماء لـ°سينؤن ° و ° رهامدس ° و تحت شفق السماء الذي في بعض الأحيان ميالا للإحمرار أو للون الأرجواني أو الوردي , و طورا داكن و غارق في بريق الكبريت .

و الكثبان الرملية تبدو كأنها تقترب في تراس على قباب المدينة التي لا تعد ولا تحصى ... و فوق الحي الجليل ° لأولاد أحمد ° و على الأثار القريبة و الساكنة لل ° صالح بن فضيلة ° كالتي ترهننا في ظروف غامضة .و تأخذنا و الى الأبد .

. أيتها الأرض السوفية المتطرفة و الحارقة .

. لما لا تحرسينا ؟ نحن الذين عشقناك و ما زلنا نعشقك .

. و على الدوام مسكونين بالحنين اليك , و ذكرياتك المروعة .

... في الجنوب الشرقي و الى عمق نهج مسدود يؤدي الى طريق ° أولاد أحمد ° و المؤدي بدوره الى _ تهام . يوجد منزلا تطل منه شرفة ,و الوحيد في مدينة القباب به باب قديم مترنح و لوحاته الخشبية مفككة , هو دائما مغلق و ممنوع الدخول منه , و هوقديم أيضا أصلا ... بني كبقية المنازل السوفية بالحجارة الكلسية مع الجص الرمادي المصفر يحوز فناءا واسعا من الداخل حيث تمظهر الرمل الشاحب للصحراء المحاطة به .

هنا في هذا البيت الذي تعود ملكيته من السنوات الخوالي الى صلاح بن قليبة أخو القائد القديم لـ ° مصاعبة ° و حاليا تحولت ملكيته بين يدي المسن °شعانبي ° الساكن بالقرب من ° لقباب ° و مرت الأيام في سكينة و إطمئنان , بعدها و الأكثر غرابة و الأكثر حزن وما شاب من اضطراب هو وجودي العاصف . لأنها كانت تتزى بزي رجل في ملبسها . ؟

, و كان يا مكان أولا : الساعات الموسومة بالهدؤ لشهري شعبان و رمضان حيث كرست الأيام الماضية لخدمة مسكني المتواضع و لقضاء حاجيات الزاوية المقدسة و و في خدمة واد سوف المحرومة و الوفية ,, انها ليالي كلها حب و اطمئنان في أحضان بعضنا البعض وفق تعبير سليمان : الاشراقات الساحرة و الوردية لسكينة و الاطمئنان بعد صلوات الشفع لرمضان ..و الأماسي الغسقية .

الملتهبة أو الشاحبة خلال كل حيزاتها الزمنية , و أنا من أعلى شرفتي , أتابع غروب الشمس و هي تختفي وراء قمم الكثبان الرملية العالية لشارع ° أولاد علندة ° و ° الطيبات القبلية ° حيث كان الضياع ذات صباح .

في البدء انتظرت قبة السوق تغرق في الظلام ثم منارة المئذنة البيضاء لسيدي سالم اللذين جعلا لون الواجهة الغربية يتغير الى لون وردي أثناء الغروب ... و هكذا من بعيد مسجد أولاد خليفة و أيضا ° العزازبة ° و يرفع به الآنذان من المؤذن الغير متمدن : اللة أكبر بأعلى صوته ليريح النفس و سريعا تصير ساحة السوق خالية و خامدة كأنها فيافي .

في الأسفل غرفة مفتوحة سليمان و عبد القادر يجلسان متقابلين حول صندوق خشبي لإنعدام مائدة الأكل ... و سيجارتهما بأيديهما و ينتظران في صمت و أنا بين الفينة و الأخرى أحاول مازحة التثبيط من عزيمتهما كون أن المغرب لم يحن وقته لأن احمرار الشمس مازال جهة سيدي سالم ردة فعل سليمان ازاء مزاحي أنه كان يصب جم انتقاداته على المؤذن المزابي قائلا : أولاد أحمد الذين مددوا حيز الصيام بدون مبرر و عبد القادر على اثري كعادته يناديني ° سي محفوظ ° ... و خليفة و علي غليونهما بأيديهما ينتظران ألأول به حشيش و الثاني سياجرة برزيلي عرعار أما الطاهر فقد سكب الشربة في صحنه حتى لا يواصل انتظار حلول المغرب .. و أنا على نحو كئيب مددت صيامي مفتونة بالمشهد الفريد ° لواد سوف ° من أحمر أرجواني الى وردي ثم بنفسجي و بعدها يخمد سريعا وهج الغروب ليتحول الى لون رمادي موحد .

و في أحيان أخرى . بعيدا عن الصوم وقبل غروب الشمس نخرج لإنتظار . الرجل ذو السترة الحمراء . أجلس على العتبة القريبة من باب ° سباحي لفاتي ° الواقع أسفل المستطيل الواسع المحاذي لحيي و مكتب العرب للمدينة قبالة الفراغ الرحب للفيافي . بدءا من حفيف أفران الجص و تماشيا مع للكثبان المخروطية لشارع ° علندة °هناك ضمن لهيب لا يقارن في الأفق لرسومات مشخصة ذات اللون الرمادي تمظهرت على فرن من افران الجصية تغيرت متمظهرة في السماء الارجواني لتصبح عملاقة .

بعدها للباب المحروس على الدوام أمامها قناص أزرق يخطو برأس حربة على رأس البندقية ,,, الظل يخرج كله أحمرا الذي لم أر من ذي قبل تمظهرا و بدون دفع و دون اهتزاز قلبي .. و ناعم أيضا ومثير قليلا و غريب الحزن لماذا ؟ أنا لا أعرف .

هنا و على هذه الصخرة جلست ذات مساء مظلم , و عندما يظهر فجأة من الظل القريب جدا

. الصغيرة °هنية ° الغريبة إبنة دحمان و بضحكتها المتلألئة و المتلبسة . رنة الضحكة له . و الحزن المتلبس لعينيها ,, ملفوفة في خرق زرقاء و حمراء للصوفيين تحمل حطبا لمنزل أحمد بن سالم و أيضا للسكن الهادئ للصالح بن فليبة . انه بعد ليلة الثامن و العشرين من جانفي الذي كان الأخير للممضي قدما للعيش تحت سقف بيتي . و غادرت و انا جريحة مع العلم أنه قد تقرر نفي (؟!) و لكن كنت كلي رباطة جأش ازاء ما تمخض عن كارثة . بهيمة . (في مكان بهيمة تعرضت لاعتداء بالسيف من عبد الله فجرحت في رأسها و ذراعها) . و حادثة هذا المتطرف المتعصب بقيت محفورة على ذاكرتي الكثبان الرملية

و على حافة في اتساعها نثرت قبور متشابهة . طارزوت . و الجدران الرمادية المهيمنة و حشد عظيم من النخيل المنزوي . كل شيء كان يلوح من أفق رمادي قاتم لهذه الظهيرة الشتوية حيث رياح الشهيلي العنيفة و الغاضبة و المرسلة لغبار الكثبان الرملية المعكر و الحاجب لكل شيء .

إن الإنطباعات المزعجة في واد سوف في فصل الخريف بعيدا عن الحقول المتواجدة في الحفر العميقة و بعيدا عن _ سيحان . لشارع دبيلة فلا شيء على هذه الأرض ينجو من تغيرات فصول الخريف و الشتاء و الربيع و الصيف كل شيء يمزج و يمر مطابقا على العزلة القاتلة للكثبان الرملية الدائمة عبر الصمت الثقيل للقرون .

هنا و لا إنسان يأتي ليعكر شكواه أو تغريدته لا تزال مشابهة للأنين . واد سوف . الأسطول الكبير للشهيلي حيث حفيفه يلف كل غامض متلبس رمادي و بالكاد يمكن ادراكه حسيا لنسيم البحري المنعش دون جدوى لأنه لا شيء يمكن أن يجعل الحياة في عزلة بلا ماء .

ان السماء الخافتة السطوع و الأكثر جلاء و الأكثر زرقة و ما تعكسه الشمس عليها من بياض و الظلال الداكنة السواد و في الجو نسمة عليلة و بهكذا إشارة ندرك قدوم الخريف و أن الأيام الرتيبة من الإكتئاب إنتهت و أن الحياة ستولد من جديد في الحقول ..IIII .

مدينة واد سوف

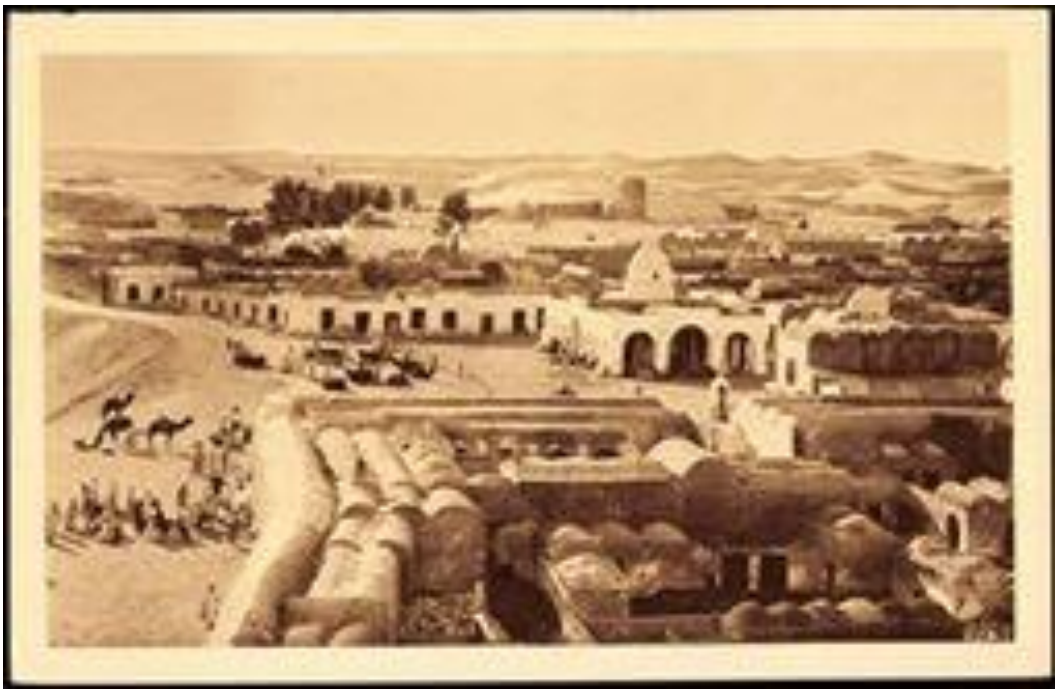

المدينة الزرقاء

اليزابت ابرهاردت تستذكر واد سوف في منفاها بمرسيليا

==========

تنبيه (2) : الاستاذ ° باري كوند° جامع آثار ° اليزابات ابرهاردت° و في رسالته التوضيحية يفيد أن اليزابات ابرهاردت على الرغم من العروض التي قدمت لها من أقاربها و أصدقائها من الكتاب و المثقفين بغية الإنتقال للعيش في جنيف أو باريس و مع ذلك فضلت البقاء في مرسيليا و كانت تقضي يوميات منفاها على رصيف ميناء مرسيليا متخذه منه نافذة تطل منها على الجزائر مثل هذا الحنين كان يدفع بها في الكثير من الأحيان الى مسح كل المراكب القادمة من الجزائر لعلها تصادف معارفها لسؤال عن كل ما يشدها و يثير اشواقها بهذا الوطن ؟

و يفيد أيضا . درسان جان لوي . الرسام البلجيكي : إن اعمال ازابيل ابرهاردت لم تعرف النور من سنة 1904م الى غاية 1968م و السبب لأنها كانت شاهد اثبات على ما حدث في الجزائر و لو لا . باري كوند . الذي انقذ اعمالها من الضياع أو الحجز من خلال انفراده بجمعه....ا

و أيضا انتفاضة مجموعة من المثقفين الفرنسيين لرفع الحصار عن أعمالها في سنة 1969م حيث نظمت عدة ملتقيات في كل من باريس و جنيف و أعيد نشر بعضا من أعمالها في 1998م و حاليا تعد اليزابات في أروبا و العالم من أقطاب الصوفية و ميزتها أنها دخلت الى هذا المذهب الجمالي عبر بوابة المذهب الجمالي الطبيعي و فعلا و تبعا لمتابعتنا لهذه الحلاقات نلاحظ أنها تركز عن كل ما تحويه الطبيعة للتعبير عن أدق تفاصيلها بعدسة قلمها .

تضيف اليزابت ابرهاردت بقولها :أن الحلفة في عنادها المتدافع , عبر متاهة الكثبان الرملية . هي هكذا واد سوف مع هذا الطريق الكئيب لـ *علندة* و مع حانة * السوف * و * القوادم * ....

ان الأزهار المعدومة من الحدائق ..... و عودة البحري #رياح الشمال# لنفض غبار أشجار النخيل الذي بدأ يستعيد إخضراره الساطع و خضار الجزر و الفلفل و النعناع و نباتات أخرى سريعة الزوال تنشر إخضرارا لا يصدق ؟إ في حين سقوط الأوراق الأخيرة لأشجار الرمان , و أشجار التين و أشجار العنب النادرة و أيضا الخيار و شمام و البطيخ المتوالد # العيدودي# و الطيور الخطاف عادت للظهور أيضا لتمضية فصل الشتاء ذو الأماسي القصيرة التي تحجب غروب الشمس و تتم في ليونة الأفاق و الصباحيات . ساعة الصباح المبارك في الصحراء , و الحيز الزمني الذي نحس فيه بالخفة و السعادة للعيش . هي صباحيات منعشة و متأخرة .

لكن المظهر الجامد لواد سوف يبقى دائما على نحو صعب التغيير ؟إ و الشيء نفسه بعض التفاصيل كتغير الأضواء و لكن أيضا تلاطم الأفاق و الألوان يستحيل تعريفها : الرمال , الصمت , الوحدة كل هذه العناصر تبقى ثابتة و لن تتغير في واد سوف ,

و الشعور المبهم و الغارق في الحزن فيه الكثير من التدبر و من جهة أخري الطبيعة مهيأة للتخدير و إمتصاص أخر إشراق .؟إ ..... ما ذا يقال و أي غناء عند غروب الشمس في الصحراء ؟

حيث تحوزه كلمات كافية من أجل ضبط البهاء الباذخ و لتعبير عن السحر و الحزن و الغموض ؟ ؟ في يومياتي سجلت . بشكل منقوص . ففي العديد من تلك اللحظات المهيبة وكم من مرة وخلال الترقبات . موعد أذان الفطور . في شهر الصيام و الأهم من ذلك أن عيناي تتدبر في هذا المشهد العديم الاسم . في العديد من المرات في حين النجم يتوارى وراء الكثبان الرملية ومنه قلبي لا ينقبض لتذوه للأسف .

ما أتذكره هذا المساء حيث ذهبت الى مدينتي السوفية العارية و المفعمة بالحيوية للبحث عن سرج ° الدايرة° عبد القادر بن لهلالي ناحية ° المصعبة° غرب مدينة واد السوف و على حافة شارع المنفى باتجاه مدينتي ° تقرت ° و بسكرة و حيث حضرت مشهدا مدهشا و غير عادي و في غاية الروعة من التمجيد .

و مرة ثانية و أثناء عودتي من رحلة طويلة خصصتها للبحث عن سيدي الحسين عبر شارع حانة . السوف . للمسك بلقطة روحانية دينية من على قمة كثبان رملية تطل على ° أولاد تواتي°و بمعنى أدق و أضح : تفاصيل كلها مرئية في حدود تقديري . القرية الجليلة عبارة عن خربة أو مبني لم يتم الإنتهاء من بنائه بمستوى طابق واحد مع استثنائية رواقه الواضح , و منعزل في هذا الشارع المؤدي الى كل مجهول مقلق و للجاذبية الغامضة للصحراء و السودان البعيد . كما تريثت أمام المنازل ذات الطوابق الارضية أسقفها قباب صغيرة .

و الزرائب من جريد النخيل اليابس و بعض الظلال لإبل مستقلة و رابضة في معاقلها يعلو سنامها سروج مخروطية من شرائح خشبية : ومنهم جمل وحيد السنام رمادي كان منتصبا و رجله مبتل و مربوط و تبعا لما هو متعارف عليه لدى النادر من النساء بخرقهن الزرقاء و تقريبا سوداء ذات الشكل الاغريقي (الهيليني) دخلن الى ديارهن منحنيات تحت ثقل . القرب الماء . أو الجرار المشابهة للقوارير و التي وجدت من آلاف السنين قبل ظهورهن و النساء من العرق القدري من °سام° يغرفن الماء من الينابيع الكنعانين كل هذا في البريق الوردي القزحي و لؤلؤي اللون على مقربة من الأرض البيضاء من السهل الواسع لأولاد ° التواتي ° .

وفي احدى الأماسي و بعد جولة قصيرة هناك محطة في ظلال النخيل أسفل شط ° دبيلة ° و بشكل مفاجئ ° سوف° تمردت رافضة الظهور و تحيلنا الى مسلخ ° الواد° للنط على مسلك مقوس . دخلت وحدي مع إنحراف القرية °قادري ° الخارق لـ ° ضواي روحا° باتجاه اليمين المحفوف بالمخاطر تشد الحدائق ملتوي و ضيق و حاد في أعلاه .

و مباشرة بعدما إنتهى المؤذن من آذان المغرب شرع المؤمنين في أداء الصلاة جماعة بلباسهم الأبيض مثل كتلة الثلج , مررت أمام مسجد صغير ° لأولاد خليفة ° أو ° مصاعبة °(لست ابدا بالضبط في عمق الموقف المتعلق بهم و هم جيران) . و حولي كل شيء متوهج بلوني الارجواني و الذهبي و عمى قلبي السريع الزوال الغارق في الظلام كان هادئا ؟إ

و في الكثير من المرات : أماسي مرت علي الى الحد المعاناة حيث في عجالة من الركد مستلقية على فرس دحمان , أين عبرت أولاد أحمد و أولاد التواتي و البيضة و لقباب باتجاه سيدي ° اليمان ° لطلب النجدة . و مازلت أبصر أقدم زاوية كبيرة لـ° سوف° متداعية و منتصبة على تلال رملية منخفضة بقبتيها المتناظرتين و كليهما مضاءتين بشكل غير مباشر من لمعانهما و لا يزال اللون الوردي بالكاد ,, أمسية ذات الصمت الغريب مرحب بها بين القلق قبل النفي الى مرسيليا ؟.

و أيضا هذا المغرب المسبق حيث القلب يحضن قلقا مؤثرا ؟إ انتظرت سليمان على التلة الرملية التي تطل على المقبرتين الحزينتين المسيحية و اليهودية و الى الشرق المقبرة المسالمة ° لأولاد أحمد° ...و المصابيح الليلية للجمعة المقدسة المشتعلة بشعلتها الصفراء ,,,و علي الوفي يجوب ولا يعرف ماذا يفعل ببرانيس سليمان بين القبور .

أخر غروب للشمس لنا في الصحراء و هو ما يمثل لآخر وداع لها ...وحدنا سوف نلج تحت ظلال النخيل لمدينة بسكرة القديمة , عندما ترجيت سليمان لكي يدور لجام الفرس .. خلفنا شساعة الصحراء ازدادت امتدادا حينها خيم الظلام و قرص الشمس الأحمر مجردا من اشعته نزل الى خط الغروب ,, و تقريبا سواد الفيافي وسط محيط لونه أحمر ارجواني :

. قلت : أنه وطننا ؟إ

. و أضفت بقولي : سنعود اليه قريبا و لن نغادره أبدا ؟إ

. ورد سليمان بقوله : أمين ؟إ

مظلومة و مضطهدة مثلي و حزينة على مغادرة هذه الأرض انها الأرض الوحيدة التي رغبت الموت بها ؟إ

. منذ ذلك العهد لم أشهد سحر مغرب الصحراء ,, هل لا أراه من جديد أبدا ؟

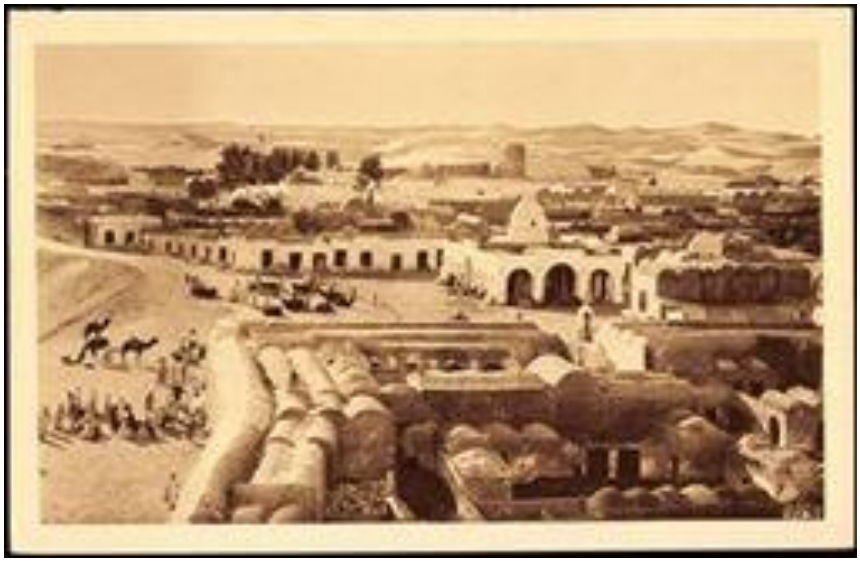

مدينة واد سوف

ميناء مرسيليا

إرهاردت تستذكر واد سوف في منفاها من مرسيليا

==========

سماء شتائي , بلونه الرمادي الميال الى السواد , يعلو الكثبان الرملية المتزرقة حيث تسيل الرمال المجففة بفعل أشعة الشمس و تحريك الرياح لها . و صباح ضبابي تفوح منه رواح الملح من الرمال الرطبة مع وئام الأشياء و انبعاث الكائنات ..و في أجواء هذه الأيام تأخرت في اعتقالي ... و بأسري و من أعلى شرفة الطبيب نظرت بعين كلها ود ° للسوفي° الذي سوف أغادره ؟إ و الذي لم يكن عبارة عن حيوان أجنبي في حياتي (المحتل الفرنسي كان يعتبر الجزائريين عبارة عن حيوانات) ؟إ .

الى اليمين خلف الفناء حيث ° سوف° جنبا الى جنب بمعية حصان الطبيب يقدم له مخلات شعير,(علف الحصان المسائي) . و الجدار الشائك المغروس ببقايا زجاج القوارير في أعلاه للخم و البئر الذي يقوم بحفره السجناء تحت حراسة ° الدايرة° و المبنى الكبير المنتظم القوام و الرمادي اللون انه مدرسة . أو كما يسمى هنا ° الكوليج° . في أسفل المبنى ثم تليه الكثبان الرملية .

و قبالته باحة الحي,,والبقية الباقية : العسكريون و غرفة ° البرغادي الفرنسي قائد المجموعة العسكرية ° ..انه المكان الذي كنت أنتظر فيه عودة سليمان في الكثير من المرات وهو يغادر منزل ° القائد ° (للمصاعبة) و قباب الاسطبلات مع الخيول المجللة بالأقمشة المختلفة و أمامها من يتسكع مرتديا البرانيس الحمراء و كنت أعرف أن من هذه المظاهر المألوفة لن تتمظهر.....

أمامي مرة أخرى و عليه يجب على عيناي أن تسرح طويلا ؟ .. مكتب العرب ؟إ و مقرات التأديب (تعذيب السوفيين ازاء أي تمرد) و زنزانة النكبة حيث تعرفت على عبدالله بن محمد . المتطرف الذي حاول اغتيالها . و مقر الشرطة أين دخنا الكيف مع نبلاء ° تركوس° ذات مساء من المحن سليمان و أنا ؟ ...الباب ومقاعد جلوس المقبوض عليهم في الحجز ,,, ثم مشفاي على طول المبنى سقفه قليل الانحدار و قبالته قاعة ° المكشبائس .....°

, و قاعة الغسيل و قاعة الحمام و كل ما سلف ذكره وسط فناء منحدر و مبنى مهدم شاسع مخصص للإدارة ثم الحوض و المغسل و هنا أيضا عزلان برية أسيرة تتجول كلها رشاقة ألقي بها لأثارة الجنود ؟

و هنا المظاهر مألوفة . الضابط العسكري الذي يصرخ أمام مقرات التأديب . التعذيب . بالكلام العربي انه الضابط ° غيلو ° الذي يشد خصره بالحزام العسكري العريض مر على طول المشفى للدخول الى منزله . و العسكري عثمان برتبة رقيب العنيف و الرعن و الغليظ الطباع , الكلب السلوقي الصغير الفرنسي ؟إ . ثم القناص المجنون الطويل بظله الازرق و بعباءته يتكسع في صمت و سبحة سيدي عمار بيده , أخير السبايحية ركبوا الخيول بدون سروج و عند عودتهم من حوض المشرب عادوا بدونه , و موكبهم المعروف , لا يرافقوا أبدا المرابط سليمان مثلما قالوا ؟إ.

هنا كلهم , قائد المجموعة العسكرية ° سعيد° المنحني قليلا , الرجل الوفي و الملتزم ليس له ثقل في واد سوف في الإنضباط . و المضايق العتيد و المطالب °سالمي ° بهمته الدائمة يقوم بدور قائد المجموعة , و الخائن ° مبارك° الأشقر و الجميل و طبعه الجنوني , و الجبان القواد , سعيد زمولي يعرض بدون شك في هذا الوقت

كما هو الحال في أوقات أخرى بنت ° الحديده ° و السكير منصور ذو الطبع الهزلي , و بن شعبان الذليل و ° الزردي ° هادئ و لطيف و علي شعنبي في هيئة إستعراض فتاة جميلة ذات العينين المكحلتين بالكحل و المسن ناصر بن العياشي الأبله و حنوشي المنحني و المهتزة سواعده و الكبير ساولي و المغرور صدوق المتزوج من ضيف الله و السفاك طاهر بن مراد هو لطيف وطفل رائع

و عمور الخياط ذو البشرة البيضاء رجل طيب و ثقيل الدم سعودي من اولاد دراج و الحقير خادم سليمان بوخليف ذو الأنف المخمور و عيني اللص و الغير طبيعي ° لفاتي ° الرجل ذو لحية الثري الهندي و ذو الطبع الصلف و الزوج المتطوع من شعابنة و أخيرا (...؟إ..).

و هذا خليفة البطيء ببرنوسه و قندورته و زوادته المشحونة بالكيف لغليونه في طربوشة برنوسه يقوده °سوف° المطأطئ الراس من خلال المسك بلجام حصانه المبتهج بعد الماء و الشعير . و كل ما سلف ذكره أتابع حركاته تحت سماء آيلة الى العتمة قياسا مع إقتراب المساء المضاء بالبريق الكبرتي للغروب . و أذن هو حزن شديد يخيم على أرض الشام . في حين الليل يسدل ستاره الشتائي و المؤذن يبعث بصوت دعائه الى الله من أجل الحماية و الرعاية من كل أذى و ضد اللعنات التي قد تنزل بالليل و ضد من ينفخون من السحرة و ضد المنافقين و ضد الخونة و المتملقين و ضد كل غدار .

و الشتاء هناك كارثي لأنه يحرم البلد من هالة اشراقاته و ضياءه الشمسي الوهاج .

أوه النوم العذب للحواس و الروح في رتابة الحياة في بلاد الشمس ..إ,,

أوه رقة الأحاسيس لو نترك للإستمتاع بها بدون تفكير ولا انشغال و بدون التزام لأي شيء من التأسف و بدون إشتياق و بإستثناء الحيز الغير المحدد لما هو عليه

أوه السعادة التي سأحرم منها ؟إ...في هذه الحياة التأملية للصحراء,

... أحيانا ومع ذلك فانه ما تزال هذه الساعات المضطربة حيث العقل الواعي . الذي لا أعرف لماذا يستيقظ من نومه العميق ليعذبنا ؟إ

كم من مرة لم أشعر باعتصار قلبي للنداء الى الكتابة و التفكير و لدراسة و مطالعة الكتب و فضولي الفكري في السنوات الخوالي .. هي ساعات من الندم و جزع الحزن و الحداد . لكن هذه المشاعر ليست تقريبا أبدا الفعل المحرك للإرادة الخاملة و التي تبقى بدون حراك . ثم أيضا السلام و الصمت الجامع لهما و من جديد تستأنف فينا الحياة العذبة لكن أكثر صفاء و طهر من كل الشوائب . تولد من رحم الألم . قيل للمرأة الأولى و مثل هذا الإلتزام له أثره ربما على مصائر من أول برو مثيوس الى التفكير لأول لهراكليس الفن حيث صوت سري كان يقول : متى لم تخضع روحك للتعذيب و حينما لا يخضع قلبك للمعاناة و حينما ضميرك لا يخضع للاستجواب القاسي لن تبدع

بقيت يدي جامدة و لساني لا ينبس بكلمة .. مع أنني أفهم حتمية القدر : انه الحرق اللذيذ . و الحب المعذب الذي يجعل العصفور يغني في الربيع و الروائع الخالدة للفكر النابعة من المعاناة الإنسانية .

قبل حلول المغرب سرنا على الاقدام بجانب° سوف° شاهدت بإتجاه يميني من الشمال تراكم السحب الرمادية القاتمة في أفق ذاو اشكال غريبة . قلت للعسكري : انظر اليست هذه الاشكال الغريبة تشبه الجبال ؟ و لكن في الصحراء لا ليس بها جبال فيما عدا الكثبان الرملية .

واد سوف

مكتب العربواد سوف

إبرهاردت: تستذكر واد السوف في منفاها بمرسيليا

==========

من بعيد , بين ° المقبرة و الشقة ° شاهدنا الرياح و هي تبدد الغيوم و ظهور جبال الأوراس فجأة مزرقة و متعرجة و متمظهرة في أفق سماء شاحبة . لم أكن مخطيئة ؟ أنا أيضا فقدت معرفة الجبال , و ضائعة أيضا في هالة شساعة الكثبان الرملية البيضاء الدقيقة و الخفيفة مثل الغبار .

إن وضع الشعور الغريب على المحك يحيلنا للوصول الى الحقيقة ؟إ .... في باتنة الانطباع الغامض , لكنه لذيذ . أولا استعراض الاشجار العالية , و المروج الخضراء للحقول المستوية , ثم قريبا الحزن و الحنين الذي لا يسبر غوره للرمل و بساتين النخيل .

مطلقا الظل المكثف و الثقيل للغابات سيتساوي مع جمال روعة و طلاوة رفع القيود للظلال الواهية للنخيل المنحنية على القباب و الرمل الأبيض . مطلقا , أشعة القمر ستلعب بطريقة سحرية بين الفتحات الجافة لأشجار السنديان أو أشجار الزان . الذي تلعبه تلك الرشاقة المشابهة في دقتها للصف الطويل لجذوع النخيل المرهفة و المشموقة القوام . مطلقا حفيف الأوراق الطرية سيتساوى مع موسيقي جريد النخيل ذو اللون

الفضي .

مطلقا جداول المياه الغزيرة تثلج لواعج الصدر كتلك البئر المنعشة ليلا بعد نهار حار و شاق . مطلقا و لا حديقة في أي مكان تتساوى في طلاوتها و بذخها ° الرحطان° العميقة في واد سوف حيث تتجمع أشجار النخيل من خصائص مختلفة منذ صغرها الى كثافة أوراقها المقوسة و الى مهابة علوها أحيانا في ميلها فوق الأخضر المجاور لها . مطلقا البساتين الزاخرة توحي بالفكرة للحدائق في شهر أوت عندما تتلون الثمار تبعا للتنوع البعض منها مصفر من كل الظلال و الآخر متورد فاتح و مخملي ناعم أدنى شبكة مغبرة أعلاه ذات إخضرار متقد و فضي اللون أدناه . جريد النخيل اللين .

بساتين مدينة سوف هي فهوات شاسعة حفرت بأيدي الرجال السوفيين , بين الكثبان الرملية العميقة و متغيرة تبعا لدرجة عمق طبقة المياه تحت الأرض , نحن على طريق ° الدبيلة° على تلك التي باتجاه ° زكوم ° و ° قمار° و ° تقرت° حول ° تكبست° من . كونين . التي على مستوى الأرض , و أخرى بحق هاوية , حيث لا يمكننا الوصول اليها إلا عبر دروب صغيرة ذات عمق من جهة الشمال الشرقي لمدينة واد السوف بالقرب من سيدي ° عبد الله°و ° غارة°

و البناية لهذه البساتين نوعا ما غريبة الأطوار من جهة أنها توفر منحدرا قابل للسير . و هنا تتواجد أبار المياه مركزة بجذوع النخيل , لتجسيد التوازن مع مقدمة لصخرة كبيرة ....

مربوطة بحبل ومن الجهة المقابلة مخلات من جلد . عمارة . و هي عبارة عن قفة مسطحة معلقة برأس الحبل و حول الآبار ...و أيضا نرى مزروعات محمية و أشجار النخيل الصغيرة و الفراغات المنخفضة , و المرتفعة منها تتواجد بإتجاه الأسوار تقريبا متعامدة مقابل الأبار التي في قمته بالجريد المكثف لوقف انجراف الطمي .

انه بلد لا مثيل له ففي فصل صيفه و خلال ليله .... تصعق أذان المسافرين بصوت حزين و عذب الذي يرتفع من مسارات لا تحص إنهم العمال السوافة للتجريف و حفر البساتين يحملون في صبر قفاف الرمل الثقيل على أكتافهم في كل ليلة.. إنه عمل يشبه عمل النمل في ديموته و في اليوم الموالي الرياح الأبدية لواد سوف تأتي لابادة كدهم في الليالي الساكنة و الفاترة , هذه الغنائية الحزينة ذات النوتة ,,, . قاصر يحمل معه قشعريرة حزن مفزعة .

هناك بعيدا ما وراء البحر و ما وراء التل الخصب لجبال الأوراس الحزينة ..... التي ستتجفف .... وهناك أرض ملتهبة و متألقة لواد سوف التي تلهب و تلتهم الإيمان حيث في كل خطوة يرتفع مسجد و قبة او ذريح لولي صالح له بركاته أو صوت الآذان الإسلامي يتردد خمسة مرات في اليوم ....

حيث نصلي و نعتقد و هناك المنزل المحبب لصالح بن فضيلبة و كل الديكور الحميمي في هذا البلد التقليدي الرفيع و هناك رجال ببرانسهم ذات اللون الأحمر في ضبابيتها ,,, ندخل الى البيوت ذات القباب الرمادية حيث نتجمع على حصير من الحلفاء في مقهى باباشي و هناك الزوايا المقدسة و قاداتهم المبجلين . كل شيء متوفر لكن لا وجود لنا في بلادنا القاحلة باستثناء نعمة الزهد الصوفي المزهر لروحنا و للإعجاب و المحبة .

الأقرب ... و لكن كم هو بعيد عني لكن ؟إ . هناك في واد حزين في ظل جبال الشاوية حي صغير فرنسي مبتذل حيث لا نر الا الثكنات العسكرية , المستشفى , السجن و عمارات ادارية و عسكرية و لا نلتقي الإ بسبايحية و عساكر لمختلف الاسلاك و المدفعية و في هذه المدينة في ضواحي المخيم هناك منزل قديم ذو طابق و أمامه غار نمل و غرفه مسكونة من لدن السبايحية مع نسائهم و بالقرب من المدرج حيث لا يسمع المرء الا صرير السيوف و شخير الخيل و غرفتين بائستين تطلان على سطح المجاور و سور المدينة , و في هذا المنزل مر شهران تقريبا من حياتي و كانهما بمثابة اكثر من سنتين و في هذه المدينة كائن اعتز به ...

و مع ذلك المكان يبدو لي غير واقعي بديكوارته الافريقية و أن ما يحوزه عديم الفائدة ,,بمعنى أدق و أوضح رؤى هاربة و شخصيته مطابقة لشخصية سليمان التي تبدو لي غير واقعية دائما و مطلقا ,

و فيما يتعلق ببلدان أخرى لهذه الأرض حيث ما مضي من ماضي أيامي العاصفة و المضطربة تلك.. كأن لا جود له و لم تحدث أبدا ب مخيلتي بدءا من مركب . بيري . بحثا في الهضبة المقدسة للمقبرة . لبونة عنابة . على الرغم من جهدي العنيف لإرادتي و لا أمسك بهدف الشعور الحقيقي الذي يشعرني بأن أمي كانت هنا راقدة في ذريحها منذ اربعة سنوات كما يبدو لي أنني لم أسكن مطلقا . بونة . و أن هذه المدينة أجنبية و غير مبالية بها كأي مدينة أخرى...

غالبا و منذ أن غادرت سليمان أحسست بعذاب الشوق الذي يعبر المسافات التي تفصلنا ,, انها الحاجة المطلقة ليكون بالقرب مني ,, هو ولا أحد الا هو ؟إ و العضال الذي لا

علاج له هو اليأس ان تكون منفيا ؟ وغير قادر على الجري اليه .. متعطشة لسماع صوته و لرؤية نظره يسكن عيناي و أشعر بوجوده لمواجهة هذا الشعور الآمن و المطلق ... فكم يدوم هذا المنفى ؟إ

اليزابت ابرهاردت

رجل من واد سوف

سليمان يسافر الى مرسيليا و يتزوج اليزابت ابرهاردت

==========

تنبيه (3)حسب الرسالة التوضحية للاستاذ فيكتور جامع آثار اليزابات ابرهاردت حيث يفيد بأن سليمان سافر من الجزائر الى مرسيليا و تزوج اليزابت ابرهاردت بعقد توثيقي رسمي و هو ما أهلها على حيازة الجنسية الفرنسية و منه سيكون بمقدورها الاقامة في الجزائر و حسب الرسالة التوضحية دائما للاستاذ فكتور الذي أكد لقاءه باليزابت ابرهاردت في مرسيليا في هذه الفترة و تسلم منها اعمال سنعود اليها في حينها و ما يجدر التذكير به أنه عند قراءتي لهذه الورقة لاحظت أن ما تحوزه اليزابت من مشاعر و أحاسيس و نفحات صوفية و رؤى مدهشة لم ترق اليها اللغة الفرنسية لذلك نجدها في الكثير من الفقرات تستورد الكثير من الألفاظ من لغات غير الفرنسية مثل الروسية و الاسبانية و العربية

و للتذكير أيضا فقد إستعنت بأساتذة فرنسيين من الضالعين في اللغة الفرنسية لتقريب لي الفهم ازاء بعض الالفاظ فكان ردهم :لا تتعب نفسك فاليزابت تجيد ستة لغات و عند ما لا تجد ما يستوعب جزئية من إحساسها لا تتأخر في استراد له ما يناسبه من اللفظ . و تواصل اليزابت سردها :

أن تكون على منصة مسرح أو في صالون فخم و مع ذلك تبقى الغنائية الحزينة و البدوية غنائية حرة و,عظيمة . للجمال . المتنقل في الفيافي في متابعة بعيره البطيئة السير .على سطح . الحمرائية . ... و في قاعة كبيرة غير مبلطة للبرج توسدت . تليس . و استمعت مساءا الى الدايرة لخضر وواحد من خلاصة و ابراهيم يغني أغاني بدوية صحراوية و للفت الإنتباه من حوله ,, كان يدق على صندوق حديدي أبيض قديم ..حينها لخضر كان مخمورا كعادته يغني بعاطفة جياشة و هذه الاغنية كانت قصيدتها مشبعة بحزن حياة الهائم في الصحراء . أغنية يا الجمالة و يا الرحالة و يا سواقين البل ...الخ . .

و فيما أتذكره أيضا و مما سمعته و أنا جالسة مع . الجمالة . في ركن فناء برج بوشامة بالقرب من النار حيث طهي العشاء في الهواء الطلق في ليلة مظلمة ,و في فناء هذا البرج تعالت أصوات غريبة الأكثر عزلة و الأكثر حزنا من كل شيء بهذا الطريق المهجور . النفحات الصوفية التي تنطوي عليها اليزابت كانت تؤهلها على رؤية أشياء غير مرئية ولا يرها الانسان العادي . .

هنا مع المتعة الحميمية فكرت في غرابة فاتنة في وضعيتي وهي في سعادة أن تكون متشردة و هائمة على وجهها انها واحدة من تلك التناقضات التي شعرت بها ..و حسرتاه لا بيت و لا حتى شيء حسن لي ...منزلي الوضيع و البائس لا يمكنه أن يحل محل صحرائي و أفقي الغامض و المتلاطم مثل الامواج ...و مطلع إشراقات أفجاري العذب مع لا نهاية لألوانه الرمادية و مغربياتي الشمسية ..و المدن المتداعية باسم الغرابة و . سوفي . المسكين الذي لا أنسه ,,, الرفيق الوديع في وحدتي في بلدي العزيز الذي سميته بحريتي و أحلامي. جاء في ملاحظات بشأن . نتواشكة نسونوفا . أن . دو ستو إفسكي . أن الرسام المميز بالألم وروائي الارواح السقيمة :

أحب و كشف أفضل من أي سخص رسم الأرواح الطفولية و تحديدا الأطفال البؤساء في شفقته السرمودية في المعاناة وأن من أبطال رواياته و لا واحد بقي على قيد الحياة ,,حقا اثارة و في بعض الاحيان حقيقة مخيفة عنده و لا واحد من شخصياته الشاحبة ازاء هذا العرف الذي يتكاثر عند الكتاب المحترمين الأخرين من . الاساتذة

. ,,,,لا شيء يمكن أن يتساوى في الروعة و الغموض مع الليالي القمرية في رمال الصحراء إن زحمة الكثبان الرملية و الأذرحة و المنازل و البساتين تتلاشى و تنصهر و الفيافي الثلجية البياض تكاد تكون مغزوة بالأشباح من لمعان اللون الوردي حينا و حينا أخر مزرقا ببريق فضي و لا حد تام و محدد ولا من تصميم واضح و منجز ..الكل يسطع في ما لا نهاية و لكن الكل غامض ,الكثبان الرملية تبدي أكواما من الأبخرة في الافق و الانحدارات الاقرب ...توارى ضياءها اللا متناهي في عليائه و الرجال المقنعين بالأبيض و بطلاتهم التي من الصعب تحديدها لضبابيتها ,و نلاحظ غالبا طلة فاتنة في ضؤ القمر لقطعة من سور تبقى واقفة في ركن خربة الواقعة خلف الحي و أعلى حديقة هناك القناصة العسكريون و على الرغم من نأيهم عني ومع ذلك يبدون لي مثل الأشباح الأدمية مصففين هنا في طريقي و هو ما يحدث لي ارتعادا عند رؤيتهم.

ذكرى بعيدة من سنة و في ليلتها الاولى في البستان ببئر أزيلي أعلى المقبرة المسيحية كنت ملقاة على منحدر للكثبان الرملية في حفرة عميقة انظر فيما يكتنفه البستان من غموض بين الجذوع الممشوقة القوام على الرمل و أشعة الفضية للقمر كانت تلعب في ظل النخيل و بين البساتين بمكان . القاعدات العشاش . حيث بكيت مثل الطفل لإستشراف أحسن و لأسف وفجأة و بحدس مشترك كل المتاعب التي بعد أشهر تغمني ...هذه الأحاسيس الباطنية التي ليس لها عمق مادي و لا منطقي التي تضللني دائما ,

ان الليالي المقمرة شفافة و صوفية مرت تعم شوارع . سوف . هنا في الشارع الكبير في الفناء الكبير المتداعي . لزاوية لقباب . أثناء انتظار سيدي محمد الايمان كنت متكئة مقابل النافذة الصغيرة للمسجد حيث أسفل الخزائن الرمادية أنوار الشموع الخافتة حيث . الخوانس . ينشدون الذكر بعد صلاة المغرب ...

و أتذكر أيضا السلام العميق و اللا متناهي الذي نزل على روحي هذا المساء هنا حين مروري على قريتي المرابطين . البيضة و لقباب . اللتان غمرتهما آخر أشعة الغروب ومع ذلك يا لها من معاناة ففي أي ظرف من الظروف القاسية جئت الى هنا ,لكن هل كل هذا البؤس الزائل نستطيع في بعض الساعات المباركة القيام بإزالة كل الظروف الموجعة و الإستلام الى إنفعالات أخرى كالتي نحوزها و أخرى تجيئنا من الغيب من خلال المرئي الجليل للكون الواسع . هذا ليس بهذيان و إنما عناصر روحية و نفحات صوفية تحاول اليزابت رسمها بعدسة قلمها.

كم من معدم من الغرقى في القذارة و ميؤس من إصلاحه يستخدم الساعات الوجيزة للحياة في غير ذي جدوى و تفاهات ضد الجميع و ضد الكل مفضلا العماء أمام أقدس الأشياء الجميلة و أمام عظمة الإشراقات الحزينة للآلام الانسانية , طوبى لكل من لا يذهب بسخافة و على نحو قاسي للصدف ...الذي كل كنوز الأرض المألوفة له و بغباوة لا يعلم أن كل شيء لا ينتهي الى القبر

ومن الكائنات المخزية من يتخيل أن العالم تحت وطأة اللألوان المظلمة و الذي جماله لا ينضب و الذي هو ذاته جوهر الكون و للحياة فهو لا ير شيئا و أكثر المحرومين حرمانا لهذا العالم ....منفية بلا مأوى ولا وطن ميتمة معدومة من كل شيء و التي تكتب هذه السطور و إن ما كتبته هو الصدق الحقيقي ,

و احيانا في ساعات الازدهار الراقية وجدت الحياة رتيبة و بشعة و لكن منذ كنت لا أحوز الا الروح المعنوية على الدوام في تاهب وأيضا منذ ان الألم لطف روحي.. إني أأس بالصدق المطلق و الغامض الذي لا يوصف و السائد في كل شيء

ان الرعاة البدو الأميين و الفاقدين للوعي من الذين يمدحون الله أمام الأفاق الرائعة للصحراء في الحيز الزمني لشروق الشمس و يشيدون به عند الموت هم أرقى من شبه المثقف المزيف الذي يراكم جملة على جملة من أجل تشوية العالم و هو لا يلم بالصواب

قديما و عندما كنت لا افتقر الى اي شيء مادي لكن عندما أفتقر الى كل ما هو فكري و أخلاقي يصبح كل شيء عندي قاتما تتوزع فيه الحماقات في شكل لعنات ضد الحياة التي غير ملمين بها ؟إ .... و الآن فقط و في نطاق الحرمان حيث أحس بالسعادة التي أجزم على جمالياتها و هي جديرة بأن تعاش .

باريس

باريس

الا اليزابت ابرهاردت في طريقها الى عين الصفراء ماي 1901

تنبيه : عادت لالا اليزابت ابرهاردت الى الجزائر بعد أن قضت سنتين في المنفى رفقة زوجها سليمان مهني حيث أقامت في العاصمة و بعدها صارت أول مراسلة صحفية من جبهات القتال في تاريخ الصحافة العالمية .

لكن مهلا ليس هذا كل شيء لالا اليزابت ابرهاردت تخرج بانطباع مفاده أن الجزائر أرض مقدسة و أرض المرابطين الصوفين و كل من يحاول اذاءها من أبنائها أو غير ابنائها يصاب بالجرب و يغرق في اللعنات و في هذه المراسلة لثلاث صحف . سويسرية و باريسية و الأخبار التي كانت تصدر في الجزائر و بطريقة ذكية تفضح الاحتلال الفرنسي الذي استعان بالقوات الايطالية و الألمانية لمحاربة الشيخ بوعمامة ؟!

تصبح الأيام الاخيرة من فصل الصيف رتيبة تحت سماء كئيبة و خالية من السحب و في هذا الحيز الزمني الجزائر العاصمة تكون نائمة و شوارعها تكاد تخلو من المارة إلا نادرا حيث كانت تبدو لي فسيحة الأرجاء تغزوها اسراب الذباب الأزرق بطنينه لظلال شهر مايو واضافة الى تلال مصطفى المحجبة بالأتربة القاتمة و اللون الأبيض البني المعتم لأعالي المدينة و مع ذلك هنا في الممرات الضيقة الحياة مستمرة والمتقدة بالنشاط و الحيوية و مخمورة بالأضواء الملونة و تفاهة الفواكه و ستائر و غنائيات العندليب الأسير أمام المقاهي الشعبية

ملل كان له ثقله على الجزائر العاصمة تركني أستسلم الى نعاس رهيب بلا فرح و لا أسى و أيضا بدون رغبة التي لها القدرة على حيازة اللطافة الأبدية و فجاة معركة المومنقار و قعت و معها تصير صعبة إمكانية إعادة النظر في المناطق الجنوبية لقد اتجهت صوب الجنوب الوهراني كمراسلة صحفية انه الحلم الذي ظل يراوضني منذ أشهر و هاهو يتحقق فجأة .

وطيلة رحلتي عبر السكك الحديدية غربا و غرب الجنوب الجزائري الذي كله جميل و جذاب بسحره ففي أحاسيسي السعيد ة الاولي كان لدي بعض الساعات الأريحية و الحلم الجميل و إذن في حيزات زمنية من الحياة هناك لحظات لا شيء فيها إستثنائي يمكن أن يطرأ والذي لا يمكن لنا نسيانه فيما بعد لأنها أشياء التي لا توصف لذتها .

ومن بريقو حيث وجوب إنتظار قطار أرزيو الذي يتجه صوب الجنوب و بريقو هي مدينة مبنية وفق الطراز الاسباني و محفوفة ببساتين خضراء وسط سهل رحب و خصب وعلى الرغم من أن هذه الجهة كأي جهة من التلال الجزائرية و مع ذلك بدا لي باسما و تقريبا جميلا

النهار بكل مواصفاته أخذ يتناقص في سكون الريف و مرتفع لتلة أخفت أفقا كان يشيع بضيائه شيئا فشيئا و في قمة التلة قبة صغيرة لسيدي عبد القادر البغدادي التي تبدو وردية اللون بين بعض الظلال لأشجار الزيتون الرمادية اللون و هناك بين الأعشاب الجافة خام من الأحجار المختبئة انها مقبرة للمسلمين هو وسط حزين و ساكن و ليس جنائزي

مساءا اتجهت الى مقهى ذو طابع مغاربي و أستلقيت على حصير شمال جنب باب الفندق الإسباتي و بالأحرف البارزة و البشعة كتب باللغة الاسبانية : ممنوع دخول الغجر

قبالة جدار عاري متمظهر بلون أشعة شمس الغروب الوردية اللون و جلسة القرفصاء لبدو الرحل العرب الحالمة في جو يغمره الدفء و الأريج المعروف لروائح عطر البلد : البدو الرحل في أماسي الصيف وهم يدخنون . البرزيلي . و كذا روائح القطران المنبعثة من جلود المعز و اللحم المحمر الطري و أنا المتعودة على تذوق حياة الهائم على وجهه و كل سعاد تي أن أكون وحيدة مختفية في برنوسي و عمامتي الإسلامية و مشاهدة في سلام و اطمئنان إنقضاء النهار باشعته الحمراء البراقة و في كنف بساطة الاشياء , في هذه القرية التي ساغادرها بعد ان يسدل الليل ستاره ,

بعد ذلك ساقضي ساعات طويلة من وراء نافذة عربة القطار الصغير لعبور عمق الوطن كله فيافي و قسوة باتجاه الجنوب الذي كانت تلوح منه قرى و أحياء كنا نعبرها في ليلة قمرية سريعا و في خفاء مثل لمح البصر .

و في منتصف الليل كانت مدينة سعيدة حزينة حيث هكذا من حطام البشر تأتي للبحث عن النسيان من عمق الواقي المجهول للفيلق الأجنبي ثم تسلق مرتفعات الهضاب العليا و على طريق الأسلاك الشائكة و ثم أيضا القطاران اللذان يدفعان بزفيرهما مثل الحيوانين المصابين بمرض الربو و في المدخل الأعلى للسهل الرحب و العاري يوجد والين توأمين صالحين و يبدوان و كأنهما يحرسانها . و توقفات في قرى لا نرها او لدواوير عين لحجر و بوراشد و تفراوة ....

و أخير طلع النهار ملونا بالأخضر و الأحمر على الكثبان الرملية الصغيرة و الشاحبة لخريدر هكذا و الى الأبد ملل مميت و أيضا حزن و سحر مؤثر لسهل الجنوب مع خصلات الحلفة النادرة و التي يصعب مقاومتها و زحف شجيرات على أرض ميالة للإحمرار و سلسلة جبلية هاربة و متمادية في نأيها و بالكاد يمكن تمييز شفافيتها .

أشرقت الشمس و هو وقت وصولنا و قبالة موقف رصيف صلب ومن جبل عنتر نتقدم في أفاق رحبة و مسطحة و بالقرب من سفح الجدران العالية الزرقاء و المكان بالتحديد هو مدينة المشرية 'المشتملة على بعض الأسقف الوردية اللون و بعض الأشجار النحيفة المصفرة و سريعا لا جديد هناك سوى فراغ السهوب حيث تتراقص الأضواء البراقة لهذا الصباح.

محطات موحشة بدءا من محطة لخريدر و تغير مظهرها فهي عبارة عن قلاع عالية محاطة بأبراج المراقبة رمادية اللون و محصنة بأبواب حديدية سميكة و أخيرا ظهرت الجبال الزرقاء الساخنة من بعيد منها جبل المختار و مير الجبل و جبال سفيسيفا و من هناك بإتجاه الغرب حيث المغرب و كثبان الرملية المحمرة في صعودها مقتحمة المختار مثل موجات القواطع و حزام نباتي أخضر متزرق معانق لأعالي .....

عمارات من الأجر المتراس و بإتجاه اليمين منازل صحراوية من الطوب يشد بعضه البعض و خصلات لأشجار التين الاسود و ظلال أشجار النخيل و بعض القباب البيضاء لأولياء الله الصالحين و أخيرا نتوقف في عين الصفراء و بنية المرور فقط .

محطات موحشة بدءا من محطة لخريدر و تغير مظهرها فهي عبارة عن قلاع عالية محاطة بأبراج المراقبة رمادية اللون و محصنة بابواب حديدية سميكة و أخيرا ظهرت الجبال الزرقاء الساخنة من بعيد منها جبل المختار و مير الجبل و جبال سفيسيفا و من هناك بإتجاه الغرب حيث المغرب و كثبان الرملية المحمرة في صعودها مقتحمة المختار مثل موجات القواطع و حزام نباتي أخضر متزرق معانق لأعالي عمارات من الأجر المتراس و بإتجاه اليمين منازل صحراوية من الطوب يشد بعضه البعض و خصلات لأشجار التين الاسود و ظلال أشجار النخيل و بعض القباب البيضاء لأولياء الله الصالحين و أخيرا نتوقف في عين الصفراء و بنية المرور فقط

و عين الصفراء هي مجرد موقع عسكري كأي حامية عسكرية غارقة في سبات و رتابة الحياة العسكرية في الحيز الزمني للسلم اليوم و مع اضطرابات الجنوب و الإضطربات الصاخبة باتجاه المغرب المختمرة فعلى ما يبدو عين الصفراء تريد النهوض لإستئناف هيئتها لسنوات الخوالي و الأوقات البطولية لسيدي بوعمامة و فرق القوات العساكرية القادمة و الراحلة بضوضائها و توقعات القلق احيانا و كل هذه الحركات تملأ الشوارع الرملية.

وهنا أشعة الشمس الغامرة و الخونة – القومية – الممطمين لخيول الصغيرة والهزيلة بمواصفات عضلات المخزني ببرانيسهم ذات اللون الاسود و المطرزة بالأحمر على الصدر و الحزام

العريض لشد الخصر و المشحون بالذخيرة و محاربون مبتدؤن – سولدا بلو – و سبايحية بمعاطف ذات اللون الأحمر و فيالق من الرجال ذوي البشرة البيضاء من الشمال ضربت عليهم السمرة من جراء اشعة الشمس لغاية الاحتلال وفي النوادي العسكرية و المقاهي الشعبية الغارقة في بهجة الضوضاء وكل التناقضات الغير متوقعة تتصادم هنا مقاطع غنائية لفرعين :

اغاني غير متناغمة فظة تحوز النغمة العاطفية و البكائية برومنسيتها الألمانية أو الايطالية و بجانبها _ الرحايتية . القديمة الافريقية المنطوية على البكاء و العويل هذه الثلاثية الغنائية الغريبة ترافقها الحان بطيئة و مبتورة على نحو النشاز الرتيب لصراخ غير متأسف عليه . و في هذه الخمرة نفسها في تغير الصوت و الضجيج هناك عالمان متجاوران : العالم الأروبي و العالم العربي يتواصلان و يمتزجان و لكن يستحيل إنصارهما في بعضهما البعض ؟إ. و في خضم هذا التنافر يجيء الفيلق الأجنبي ليضيف ملاحظات أخرى مع كل هذه الضوضاء للحضور من الرجال في المؤقت و الغامض للراهن ؟إ و مع ذلك تبقى عين الصفراء جميلة إ

مدينة عين الصفراء

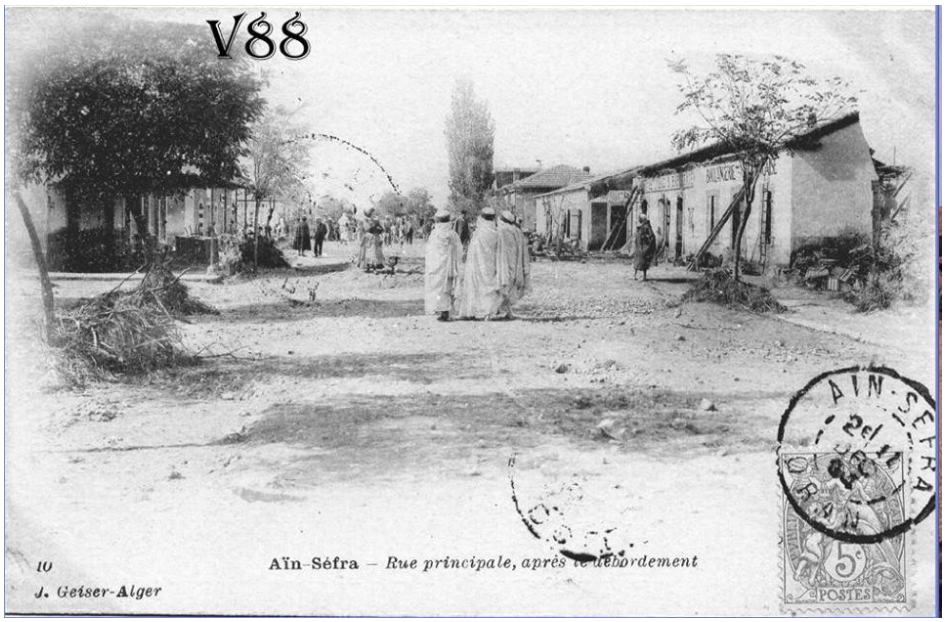

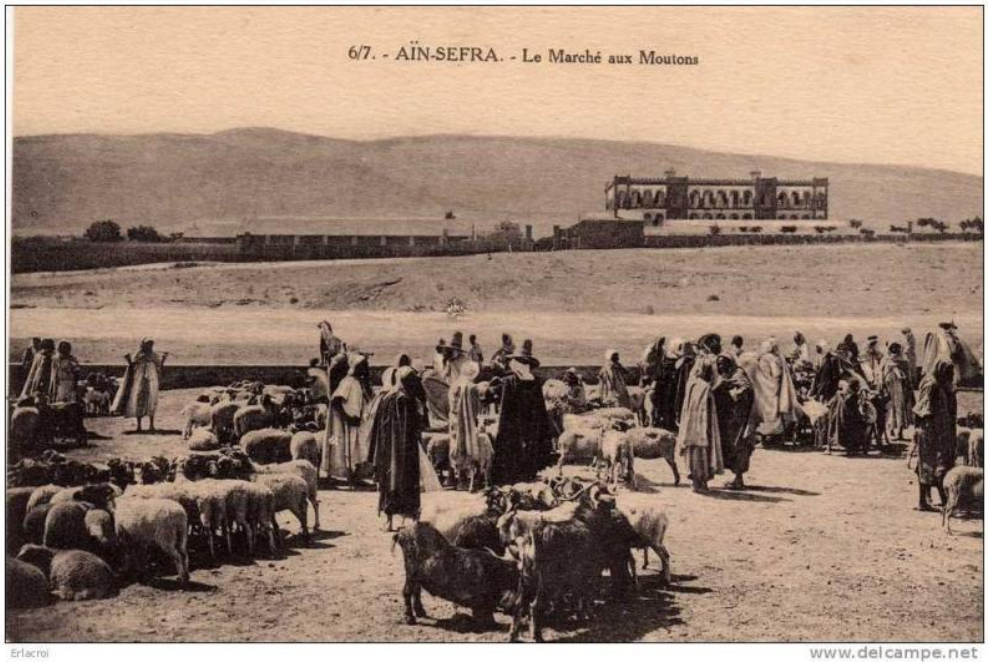

سوق المواشي

تقارير الصحفية لـ . لالا اليزابت . تخضع للرقابةو تحجز ديسمبر 1902

تنبيه . 4. الاستاذ فكتور جامع آثار . لالا اليزابت . وضح في رسالته بخصوص مصير التقارير الصحفية التي كنت ترسلها . لالا اليزابت . ازاء ثورة سيدي بوعمامة . أنها فعلا كانت تتنقل في جبهات القتال التي كانت تدور رحاها في الجنوب الوهراني و الى داخل مدينة و جدة المغربية و أنه بسبب الجهد الذي كانت تبذله سبب لها الكثير من الإرهاق و على إثره دخلت الى مستشفى العسكري لعين الصفراء و لمدة أكثر من شهر انتهي نص الرسالة.

. و من النقاط التي تستحق التعليق , الخطاب السياسي للمحتل الفرنسي القذر و الغاية منه فصل السند الشعبي و مضمونه :أن سيدي بوعمامة . حركي و تسمية حركي ليست حديثة كما يتداول في ثورة أول نوفمبر بل كانت متداولة من أيام ثورة سيدي بوعمامة و هذه التسمية موثقة في أعمال . لالا اليزابت . و رجاله قطاع طرق و لصوص و خونة ؟إ و السؤال المطروح عندما يصير . سيدي بوعمامة . :

بهذه المواصفات لسبب واحد ووحيد لكونه ثار من أجل تحرير وطنه فماذا تنتظر من ما يتكبده الأخرون من تشويه و تحديدا اذا عرضوا المحتل الفرنسي البغيض ؟ و في أي هامش نقرأ اتهام . لالا اليزابت . بالجوسسة للجنرال ليوتي ؟و عليه اتوجه بنداء الى بعض المثقفين الجزائريين بغية تصحيح معلومتهم التي مفادها أن . لالا اليزابت . لست جاسوسة بل هي جزائرية و أخت كل الجزائريين و مناضلة عظيمة و أن ما كانت تسلمه للقيادة العسكرية للمحتل الفرنسي تحت قيادة الجنرال ليوتي هي تقارير صحفية و قد تم حجزها و لم يسمح الا بالنزر القليل لنشر ه و السبب لأن مضمونها يحوي خسائر المحتل الفرنسي ؟.

. الملاحظة الثانية التي تستحق التعليق أن التقارير الصحفية موضوع النشر نقلتها بنفسها من عين الصفراء الى العاصمة الجزائرية لارسالها الى الصحف الباريسية و السويسرية.

الملاحظة الثالثة : إ، ما أبرزته . لالا اليزابت . في تقاريرها الصحفية يؤكد أن حرب . سيدي بوعمامة . لم تكن مع فرنسا لوحدها بل المحتل الفرتسي في حربه عليه إستعان بالقوات العسكرية لكل من ايطاليا و المانيا و الدانمارك و أن الذي أطال عمر الإحتلال الفرنسي البغيض للجزائر هم القومية و الحركى و الخونة من بعض الجزائريين و هو ما سنقرأه في هذه الورقة .

الملاحظة الرابعة صوفية . لالا اليزات . نقية و شفافة و طاهرة و لا تشبه صوفية بعض الصوفيين المزيفيين و المبتزين و المشعوذين بل . لالا اليزابات . كان انخراطها في الصوفية عن وعي ومؤلفاتها تؤكد أنها بالفعل كانت و تبقى قطبا ومن أقطاب الصوفية في العالم ,و اليكم نص الحوار الذي أجرته مع جرحى التحالف المحتل

توجهت الى المستشفى بالشارع المطل على المدينة حيث هناك مباني عالية بالآجر الأحمر محاطة باروقة و أقواس و بداخلها جرحى معركة المغار يتكسعون في ظلالها و جراحهم مضمدة بضمادات ناصعة البياض وفق وضعية ما تنطوي علية النقاهة من كسل و خمول و هناك أيضا فرنسيان أو ثلاثة و الباقي المان و ايطاليين تقريبا و مع جاذبية إبتساماتهم فعند إستجوابهم كانوا مبتهجين قليلا و هي الكلمة التي حفظوها لهم و على الرغم من تخوفهم و مع ذلك إنتهوا الى تحويلي الى عسكري برتبة عريف و المسمى زولي .

و العريف زولي شاب طويل و نحيف الجسم كان يرتدي لباس ذو اللون الرمادي للمستشفى يتكلم بلغة فرنسية سليمة و في بعض الأحيان أنيقة و متعود على عدم الاضطراب و بوضوح و بعنف روى لي بقوله وجوب و قف الإهمال فبدون اخذ الاحتياط في الواد الواقع بين الموغار وز فراني و أضاف مؤكدا ان عدم مبالاة النقيب البائس فوشاز الذي قال متهكما ساتجه بذراع قميص الى تفيلات – العبارة تنطوي على الصخرية – و ذلك قبل بضعة أيام من قتله و أضاف أيضا مقرا و على الرغم من تهور النقيب شوفاز الذي مات على ثر جراحه ومع ذلك كانت له القوة على كتابة بعض الكلمات بالقلم الرصاص ليعلم النقيب سيسبيل بالحادثة في تاغيت .

إن قصة العريف تمظهرت أيضا في حزنه على الملازم الدنماركي _ سلكوهوسن _ الذي جاء برتبته السامية لخدمة الفيالق الأجنبية و لتدريب العساكر و الذي قتل في مكان غير معروف من الجنوب الوهراني ...و أضاف العريف . الكبران . يبدو أن الملازم الدنماكي . سلكوهوس . كان في الحيز الزمني للخطوبة في بلده و يضيف أيضا العريف هو الحادث نفسه الذي جرى للنقيب شوفاز محزن جدا ازاء ما يجري من الموت .

و يواصل العريف زولي حديثه : في بعض الأحيان الرجال بجرأة تهورهم يخاطرون بكلمة و بعض الذكريات البسيطة و المؤثرة أو بعض المزاح الى أن تنعكس عليهم بالمصائب .

و يسترسل دائما العريف زولي في حديثه : عطشنا بلغ حدا لا يطاق هذا اليوم ... قال لواحد من الاثنين من اللذين لا يتذكران شيئا و فبسبب إنعدام الماء فقد أرسلنا لترات كثيرة من النبيذ النقي في ذلك المساء و عندما إنتهينا من شربها صعد سكرها الى سقف رؤسنا كنا مخمورين نوعا ما ..... وأضاف بود للغاية هذان الشيطنان المساكينان اللذين تعذبا و إنتهى مصيرهما الى الموت المفلس من أجل قضايا لا تعنيهم و التي تركتهما في اللامبالاة .

وفي الطابق السفلي قاعة مملؤة بالعساكر المرضى النيام لشعورهم بالملل .وهذا مولاي إدريس المخزني الضخم ضربت عليه السمرة و المفتول العضلات و ذو بنية فارعة و المتسم بحيوية البدوي .

هذا المخزني جرح منذ بضعة أيام في معركة المونغار من طرف جيش سيدي بوعمامة هو بدائي جدا و منغلق . ومع ذلك مولاي إنتهى الى حالة الاطمئنان و الإبتسامة و أيضا هو يعبر عن ما يفكر به عرب الجنوب الغربي : فبنسبة لهم ليست هناك قضية ولا حرب مع المغرب ولا حرب مقدسة تحديدا . ان الجهة دائما كانت بلاد البارود و قبائل الحدود الواسعة هم دائما يداهمون بعضهم البعض ...و مولاي إدريس يسمي العدو . جيش سيدي بوعمامة . بالخائن و اللصوص و الباندية و يعتبر ما يجري من عمليات عسكرية ضد هذه الغارات بمثابة عمليات انتقامية من الجيوش . سيدي بوعمامة . بكل بساطة .

و هذا ما يفسر جدا لماذا الخدام من الأهالي ضرورين للمحتل مثل القومي و المخزني السبايسي و الذي يوصل البريد . المخبر . و صوخار – مقتفي الاثر – ؟إ حيث معظمهم تم توظيفهم من البدو الرحل للبلد المحتل ولا يواجهون أية اشمئزاز لمحاربة اللصوص ؟إ ...و يعطون المثل الذي له قيمته في التحمل ؟إ. و يواصل مولاى إدريس مدحه للمحتل وعلى ما كان يعانيه من العدو مدينا بقوة أفعال ما كان يسمبهم قطاع

الطرق و الذئاب و في المحصلة نتمنى بصدق أن كل هذا ستكون له نهاية و إذن البدوي رجل بارود و يحب القتال

و مولاي إدريس ينتمي الى مخزن سيدي مولاي ولد محمد أغا للعمور لعين الصفراء و هو واحد من شخصيات الأهالي للجنوب الغربي الأكثر ود و المتفاني في خدمة قضية الاحتلال الفرنسي و حينما كنت في حديث مع مولاي أدريس كان جنده يحيط بنا بأجسادهم الشبه عارية مع فضلات المستشفى و الذين في غدوهم الذي ياسى له : حلقي الرؤس مثل المهرجين في ضحكاتهم الصبيانية و مظهرهم المنافي لقيم الرجولة ,وكل هذا العالم الصغير المتألم ينتظر بفارغ من الصبر اليوم الذي يسمحون لهم بالخروج حتى و إن لم يشفوا من أمراضهم ...و العرب من جهتهم يعتبرون المستشفى مكان مؤذي مثل السجن .

الساعة الثامنة مساءا . إضطهاد و ظلم كبيرين في مدينة عين الصفراء في جو يسوده التعتيم .... المحلات التجارية مغلقة و المقاهي مسدودة بمتاريس في الأماسي الصاخبة عندما تضيق الفيالق من حرية الحركة للمدنيين ... هو صمت ثقيل يوحي بالإنطياع بأن المدينة في خطر .

و المحلات التجارية كما يسميها العرب قوت الشعب تتجمع في غرف مغلقة و حول الحقل الأخضر للبلاردو محيطه خالي حيث تتمظهر المدينة في أجواء خطرة و مقلقة و المظالم التي لا أول لها ولا آخر.. و المبالغ فيها و الترهيب و الخوف و نتكلم عن الاستراتجية ؟إ و نصطدم في الممارسة بما هو سخيف و كله عجز ؟إ و حسب تقديري للمخاطر التي ستندلع صبيحة اليوم الموالي مع السكك الحديد و التليغراف المقطوع فجأة يعلنون أن الحركى من عصابة كبيرة قادمة من جهة سفيسيفة . ثوار سيدي بوعمامة . و يذهبون في إعلانهم الى حد تقييم المسافة التي بين القرية و الحصن الذي يتحصنون فيه.

و تقريبا كل هذا الذعر خلاصته عند وصولي هذا المساء أن دورية تعرضت الى هجوم في ثنية مرباح على مسافة عشرين كيلومتر من مكان تواجدي و أن مخزني قتل و أشعرونا بمرور جيش . سيدي بوعمامة . بالقرب من محطة قطار مكليس . و في متجر المزابي حيث جئت للبحث عن الضؤ . الكربيل . و ابتهاجا كان . سبايحي يجمع بين الوجه الجميل و الوسامة و يبدو قلقا:

. قال لي : وداعا و أغفريلي عن كل شيء إن كنت قد ظلمتك

. رديت بقولي : و لكن الى أين انت ذاهب

مهلا انا لم أقم بتأدية القسم و الذي يلزم يوضع الرأس في حبل المشنقة وبعدها يفعل كل ما يطلب منه بدون تفكير لا في خيمته ولا في أصدقائه و أنا لست خائفا لأنني ذاهب الى الموت و سأموت ما دام لكل واحد له الحق في موت واحدة إنني سامشي وحيدا في الليل وبدون أن أكلم بشرا لقد حملوني إيصال رسالة الى بني ياهو و حينها كل الحضور قام لعناق السبايحي و في مخيالهم فارس المخزن الذي قتل هذا الصباح.

إنها الملاحظة الوحيدة و المحزنة حقا و المؤثرة في كل ديكور المدينة الخائق

هذا الرحيل للجندي المسكين الذي سيكلفه حياته في الظلام الذي كله تهديد في صمت الريف....

كل شيء سار بشكل جيد للغاية في ساعات الليل الطويلة التي مرت بدون أدنى إنذار او أدنى صوت أو طلقة نارية و في اليوم الموالي أشرقت شمس النهار إشعاعا مبددة كل أثار أشباح الأمس و ما أعلن عنه أن السبايحي عبدالقادر لم تتم مهاجمته و كل شيء هادئ في القرية و الحياة الرتيبة بها تستأنف مسارها العادي و النشاط التجاري الصغير يتواصل

و يواصل مولاى إدريس مدحه للمحتل وعلى ما كان يعانيه من العدو مدينا بقوة أفعال ما كان يسمبهم قطاع الطرق و الذئاب و في المحصلة نتمنى بصدق أن كل هذا ستكون له نهاية و إذن البدوي رجل بارود و يحب القتال

الساعة الثامنة مساءا اضطهاد و ظلم كبيرين في مدينة عين الصفراء في جو يسوده التعتيم المحلات التجارية مغلقة و المقاهي مسدودة بمتاريس الأماسي الصاخبة عندما تضيق الفيالق من حرية الحركة للمدنيين

انها الملاحظة الوحيدة و المحزنة حقا و المؤثرة في كل ديكور المدينة الخائفة هذا الرحيل للجندي المسكين الذي سيكلفه حياته في الظلام الذي كله تهديد في صمت الريف كل شيء سار بشكل جيد للغاية في ساعات الليل الطويلة التي مرت بدون أدنى إنذار او أدنى صوت أو طلقة نارية و في اليوم الموالي أشرقت شمس النهار إشعاعا مبددة كل أثار أشباح الأمس و ما أعلن عنه أن السبايحي عبدالقادر لم تتم مهاجمته و كل شيء هادئ في القرية و الحياة الرتيبة بها تستأنف مسارها العادي و النشاط التجاري الصغير يتواصل

القنادسة

بشار

لالا اليزابت تحاول اجراء حوارت مع جرحى معركة المغرارالفوقاني.

تنبيه : حاولت لالا اليزابت تغطية معارك سيدي بوعمامة التي كانت في مجملها كلها إنتصارات على الفيالق الأجنبية . ايطالية و المانية و دنماركية و فرنسية . لكن ما يؤسف له أن اغلب تغطياتها تعرضت الى الرقابة من لدن المجلس العسكري للمحتل و قصد ايصال القليل من الاخبار عن ما كان يجري في حرب الجنوب الوهراني من خلال الاحتكاك بالثكنات العسكرية التي تحولت الى مستشفيات من جراء الحرب الضروس لسيدي بوعمامة و ما ترتب عنها من قتل و جرحى في صفوف المحتل الفرنسي و هذه الورقة المشحونة بالتلميحات تحاول لالا اليزابات فضح خسائر المحتل الفرنسي و حلفائه

سأنزل اليوم . بهجرس مغيل . لرؤية يعض الجرحى بقوا . بالمغرار . و بعد الفجر بقليل يستسلم القطار الى بلد فريد من نوعه و بغرابة مروعة فلا رمال ولا نباتات الحلفة به فهو عبارة عن أرض حمادة مزدحمة بالحجارة المكسرة و المجتثة من الأرض بشكل مفزع كأنه أتى عليها الزلزال و أرصفة التوقفات حادة و متداخلة في بعضها البعض أو محتشدة بعنف وأشرطة امتداداتها على الصخور و على تلالها الطينية خنادق ذات الهوامش الضيقة كأنها أروقة في عمق الأرض مشرفة على كتل ضخمة وضعت في توازن محفوفة بالخطر و جاهزة للسقوط على القطار لسحقه في أي لحظة . انها مثل تدفق حمم البركان العملاق.من قمة الجبل المظلمة لأفق السماء . بعد أن غزت الواد لتبرد و تتجمد كتلها القديمة و المتتصلبة مشكلة لقشرة متقرحة خشنة لهيكل مدينة دمرتها نيران السماء .

و كل هذه السلسلة التي لا تصدق الوانها على الركام و يا له من بريق ناري بجمره المتورد الشاحب قليلا و المصفر بالصدأ و المخضر و المغمر و البنفسجي و القرمزي و المنغنيز الداكن على الصلصال الجاف مع عروق ناتئة بزرقته الميالة الى اللون الرمادي و إحمرار كالح على الصخور الحادة .

و على جميع أسطح الأحجار ظل موحد من سواد الدخان لا تزال محتفظة بآثار حريقه الأصلي انه ديكور قاتم و جميل و وسط ملتهب ومنظر فضي لا يوصف بدماره المفجع تحت سماء باسمة مع البريق الشفاف للصباح .

و فجاة و بعد خروج القطار من خندق بعد المحطة و تبعا لرؤية غير متوقعة من إبداعات الحياة قصر . المغرار الفوقاني . مع أشجار نخيله الصغيرة على عمق الواد الرطب حوالي ثلاثين منزلا بربري من الطوب باللون البرتقالي الشاحب متراسة فيما بينها بازقتها الضيقة و ومجمع شرفاتها المتفاوتة بفوضويتها الوديعة و تحت أسقفها التي قواطعها من جذوع النخيل و خام الزخرفة مصنوع من قوالب مادة التراب المجفف وضعت عليها أكاليل حادة

و الأشعة المائلة للشمس و المرتفعة في انزياحها بين جذوع النخيل المنجورة و مضاءة في حواف الزعانف بومضاتها القصيرة الصلبة على أرضية ذهبية و على الفواكه و الطماطم و الفلفل ... هي واحة منتشرة في ميلاد فجر في حالة غليان بركاني الذي يحاكي في تصدعات ضيقة و في حمم بركان ميت .

وعلى صخرة فوق الطريق و شريط لبوسه صوفي أحمر أرجواني بلمعانه الذهبي ... نظرة و بعدها يمر القطار .
هناك فتاة بضحكتها الجميلة مرفوقة بحس جمالي بسيط بحركاته و سعادة ساذجة التي تضيء وجهها المستدير المخضب بظل المداعب لعينيها البنية اللون . و فتاة ثانية تأتي بتغنجها للظهور ضاحكة ... لكن فجأة ندخل في أوهام الحجر في كامل المعدن كله ظلام و صمت

بعدها محطة قطار معزولة و محصنة بين الصخور المتعرجة ...و على بعد الف و خمسمائة متر حصن عسكري من الطوب تطل منه بعض الأكواخ الخشبية على منحدر صخري بسفح التلال الأخيرة لجبل . بني سمير . . وواد غزته الحلفة و أشجار الدفلة و النخيل المتناثر و ما وراء الحصن العسكري و على حافة الواد قبرين لفرنسيين . واحد منها قتل منذ ثلاث سنوات و الثاني حديث العهد جدا فعند قبره و ضعت بعض الاكاليل زالت ألوانها لرئيس فرقة السبايحية المريشال الذي قتل منذ شهر في مرتفع . الشعبة الحمراء . في . بني سمير . بعد ملاحقته مع فرقته من طرف جيش سيدي بوعمامة في وضعية هجر لا حصر لها هذان القبران للعسكريين مع صليبهما الخشبي الملون بالأسود و حيدين في صحراء قاسية .

نزلت في محطة القطار صدفة دون سابق معرفة بالحصن العسكري الذي ساتجه اليه تصادفت مع بدوي أسمر اللون من المثاليين العرب للهضاب العليا حيث كان يزيح سرج حصان و على الرغم من لحافه الأبيض الا أنني عرفت فيه العسكري السبايحي بزيه المدني للمخزني ...و لتعريفه بهويتي ساقص عليه حكاية و سبب حضوري و بعدها نصير أصدقاء مع المؤانسة الحسنة و العادية للمسلمين .

و الصديق الذي تعرفت عليه هو الطيب ولد سليمان من قبيلة . رزيئنة مدينة سعيدة . و سيوكلني الى مخزن تاغيت و في هذا اليوم بالذات سيتوجه الى اولاد درمال لشراء دابته
. اذا رغبت تعالى معي لتناول القهوة عند أصدقائي القدماء في الحصن العسكري و لقضاء حاجياتك و نقضي ليلتنا في اولاد درمال اذا كنت قادرا على المشي و في الغد سيعطوننا فرسين و نعود هنا لانتظار قطار الجنوب .
. رأي هذا الرجل صائب فقبلت ... في البدء نتجه عبر خط السكك الحديدية و بعدها عبر طريق غير مهيأ . و في الحصن العسكري يحدث مشهد كوميدي ....
رئيس الثكنة العسكرية برتبة نقيب للفيلق ينظر الي باستغراب و لا يفهم شيئا

بحيث لا علاقة بين بيانات التي على البطاقة لامرأة صحفية . اليزابات ابرهاردت . بين لباسي لشاب عربي و انتهينا في الأخير الى التفاهم ؟ و مع ذلك رفض طلبي المتعلق باجراء استجوابات صحفية مع العساكر الفيالق الأجنبية بقوله :

مستحيل تجرين مقابلات مع الفيالق بدون ترخيص من الهيئة العسكرية العليا ؟! و بإختصار الرفض غير متأسف عليه .. سألتحق بالطيب عند السبايحية تحت مجمع خشبي و التراب المختلط بالتبن و الفرسان المرتدين للباس من القماش و أحزمة حمراء محاطين بالابتهاج كأنهم يحتفلون بي .... و سريعا جلسوا و بعد المجاملات العربية و الترغيب المتكرر شربنا أربعة الى خمسة فناجين قهوة و عصير عديم الرائحة و الذي يشبه لمشروب عرق سوس المستشفى على مضض و لكني لا أ جرؤ على الرفض لما كرمت به من قهوة ثم أنا شربت بالفعل أسوأ بكثير منه من قبل .

مدينة البيض

مدينة البيض

لالا اليزابات تواصل تغطياتها الصحفية في فضاءات البدو و الرحل

تنبيه : تبقى لالا اليزابت مطاردة من طرف جنود المحتل الفرنسي و محرومة من أداء عملها الصحفي ومع ذلك تبذل المستحيل من أجل جمع ما ترشح من أخبار عن ثورة سيدي بوعمامة حيث اهتدت الى فكرة مفادها التقرب من بعض من يتعاونون من الجزائريين مع المحتل الفرنسي و تتنقل في فضاءات مخيمات البدو و الرحل و في تقاريرها تكثر من التلميح الذي مفاده : أنه أمام غياب الوعي للبدو و الرحل نتيجة الأمية و الجهل غاب الصواب عند هؤلاء الى الحد الذي صاروا فيه يعتبرون سيدي بوعمامة و جنوده بقطاع الطرق و لصوص ... الخ و في تقاريرها نلمس الوضع المزري للجزائريين أيام الاحتلال الفرنسي ومثل هذه الشهادات من المؤكد تفيد المؤرخين في بحثهم و تواصل لالا اليزابت سردها :

لدى الطيب فكرة ؟ انه يريد السعي للبحث عن التيجاني أصله من . بوسرهون . , عامل بمحطة القطار و الذي يحوز بغلة , و وراء الحصن العسكري و تحت خيمة بالية وجدنا زوجة التيجاني واهنة و ذابلة جلدها ملفوح من أشعة الشمس لكن في السنوات الخوالي كانت جميلة تغطي رأسها بخرقة من الجوخ وترتدي ثيابا صوفية و صديقي الطيب يعرف من جهته حقيقة محمود و قسنطيني يغمزني بطرف عينه مبتسما تاركا أثرا جميلا منذ قليل ....

. حسونة من جبل عمور ... موطن الفتيات الجميلات

الطيب اتكأ على وسادة بالية حتى يتسنى له مشاهدة البدو و بلهجة كلها حنو و رغبة

. هل تتذكر منذ سنتين في أفريي ؟

حسونة ينكر بشدة و ايضا بضحكة مضطربة لا تصدق

. ماذا في أفريي ؟ انت مجنون و تكذب ما بيني و بينك الا الخير

. طبعا هل هناك قابلية للمقارنة لهذه ؟ تكلم تكلم مثل العصفور الكذاب الذي يبيض ثم يطير و يتنكر لبيضه اذا كنت انا لا اعرفك فمن يعرفك

. أبي هو الذي أنجبني

. ليس كذلك ؟ بل ما احوزه عنك عندما كنت صغيرا وطريا ؟

و إستمرا على لهجتهما الاستفزازية و الفظة دون كلام فاحش و اعتقد انه لو لم أكن معهما لدفع الطيب بالأمور الى الأبعد .... بعدها زوجة التيجاني تسكب لنا القهوة ملقية نظرة تحتية الى الطيب الذي يبادلها بحركة معبرة كانه يريد سحقها في حضنه بسواعده

وصل التيجاني و على ما يبدو لم يستغرب من وجودنا في خيمته و مع زوجته و هذا التيجاني الرث الثياب و في إهماله القديم في أروبا و فاس و مع ذلك فهو من الأبطال المجهولين لمعركة . الشعبة الحمراء . حيث قتل قائد الكتيبة المريشال و التيجاني أيضا هو مدني بسيط أستعار بندقية من يهودي ومضى راجلا بمعية السبايحية لمطاردة جيش سيدي بوعمامة وفي الظرف الذي توجه فيه زوجها التجاني للبحث عن بغلته المقيدة تسألنا بود و تكلمنا عن نفسها أنها تعيش هنا حيث البارود يتكلم يوميا محتفظة بالإستهتار المستغرب منها و تضحك يقولون الجيوش قريبة و في أدغال . بني سمير .

وتضيف مازحة انه من بين أولاد عبدالله هناك شباب , كلهم جمال و حيوية و أنها تستضيفهم بإرادتها و بدون أن تخشى سكين زوجها التيجاني و قالت كل هذا بكل أستفزاز لطيب ...و في بعض الأحيان ومع ذلك مثل ظل الحنين الذي يمر على وجهها الذي تقادم مع مرور السنين و عندما تتحدث عن جبل . عمور . مسقط رأسها تبدو الغرابة من هذه الفتاة المتوجعة في هذا الديكور المؤثث بالحجارة و الغبار و في هذه الأيام المضطربة .

غادرنا بيت التيجاني و طيلة مسافة السير كنا نتداول على ركوب بغلته العرجاء ... الرجل الطيب القى علي خطابا كله اثباتات بأن دابته في صحة جيدة مع ذلك . و بدون سماع أغاني الطيب العشوائية الإختيار . للعموريات جبل عمور . و الرحلات الطويلة على ظهور الخيل بمسارات المنحدرات و حرب المناوشات بكل بأس للقدر . و أنا مشدودة بنظري الى خطوط مشاهد الطبيعة و هي تتوسع و تتحول الى سكون و أكثر إنسجاما الى الخروج من متاهة الحجارة التي تقطع طريق السك الحديدية تقريبا من عين الصفراء .

جدران بني سمير تبعد باتجاه الغرب وعلى واد مفتوح على رمال حمراء متموجة مع خصلة رقطة من نبتة الدرنن نبتة صحراوية جافة و عابسة المنظر مثل نبتة الحلفة للهضاب العليا .

على سطح الرمال تركت رياح حديثة منخفضات صغيرة و خافتة لا وزن لها و التي تعطي لهذا الموقع الصحراوي مظهر البحر و عند سفح لقمة مكور ة لجبل . تفشاتلت . نجد دوار المخزن لواد درمال الذي يحوز عشرين خيمة للبدو مخططة باللولين الأسود و الرمادي و مثبتة على الأرض مثل الجاثم المتخوف و المخازنية جندوا هنا و هناك متفرقين و خيموا هنا مع نسائهم و أولادهم لحراسة الخط السكك الحديدية و الجبال المحيطة بها و حيث اللصوص مختبئين و بهذا المخيم خيول مقيدة بين الخيام تاكل من حزمات نباتات الدرنن و بعض العنزات تلعبن مع

الاطفال و الكلاب و على مقربة منهم لا حظنا فيهم الحدة و الرعونة و الخشونة و العين المحمرة .

انه جو تسوده الوحدة و الحزن حول هذا المخيم للجنود المسلمين شيخ الدوار عبد القادر ولد رمضان مازال شابا يبدو ذكيا و منغلقا إستقبلنا على محمل الخطر .

شجعان المخازنية يكرموننا في خيمة كبيرة مفروشة بحائك منسوج أحمر اللون و يصبون لنا الشاي المغربي بالنعناع و يعطوننا الكسرة و الزبدة و يحكوا لنا أشياء عادية و طبيعية مثل االإنذارات المتواصلة و الهجمات و الملاحقات في الجبال و متربصون لكل جوال و مرة أخرى هنا لا وجود لفكرة الحرب و بالمعنى الكلمة كمقاومة جنس لجنس أو دين لدين .

و المخزني لا يتكلم إلا على اللصوص و الغنائم بأسلوب بطيء على شاكلة البدو .. إنهم أناس في بساطتهم مثل السذج من الجمالة . رعاة الإبل . من الذين يحاولون مواصلة حياتهم العادية و لا شيء عندهم آيل للتغيير في برانسهم السوداء لمخزن عين الصفراء . و الطيب من جهته يميزهم بكلمة فرنسية مرطنة أيضا السبايحية . ليسوا دقردية . أي ليسوا برجال .

مدينة سعيدة

مدينة سعيدة

.

لالا اليزابت تسمي جيش سيدي بوعمامة بالجيش الشبح 1902م

==========

حسب تقديرات لالا اليزابت فان سيدي بوعمامة أنهى معركته مع المحتل الفرنسي و حلفائه من فيالق ايطاليا و المانيا و الدنمارك في الجنوب الوهراني سنة 1902م و هو ما تؤكده الثكنات العسكرية التي تحولت الى مستشفيات لاستقبال القتلى و الجرحى وهو ما أسال العرق البارد للجند المحتل الفرنسي... هو التخطيط الرهيب لسيدي بوعمامة و قيادته حيث كان هو من يختار مكان و زمان المعركة الى الحد الذي صار يسمى جيشه بجيش الشبح ؟إ لكن يبقى الخونة دائما هم الحاضنة الأساسية لشد ازر المحتل و انتعاشه و تواصل لالا اليزابت سردها ؟إ

كان الجو ساخنا داخل الخيمة المكتضة بالرجال المتكئين على مناكب أو أكتاف يعضهم البعض أخويا .و في النصف الثاني من الخيمة المفصول بستار مقتنيات فاخرة ببريق منسوجات ذات اللون الأحمر الإرجواني اضافة الى همس النساء الذي يثير رغبة رفيقي و مع ذلك يجتهد لكي يبقى هادئ الأعصاب بحيث لا يلفت الإنتباه ازاء نساء الجوار .بعدها نترك الظل القائظ للخيمة ,و الطيب يتبعنا متلهفا ثم نستلقي على ربوة فوق واد جاف و الذي يعتبر بالنسبة للمخازنية . الحدادة . مشكلة الحدود مع المغرب .... نسمة خفيفة و قصيرة على الرمل الدقيق و حفيف نبتة الدرين و أشجار العناب الشائكة مجمعة فيما بينها و متموجة لا يمكن تحملها مثل النباتات البحرية .

هو صمت كبير مخيم على هذا البلد الضائع في هذا الدوار و في مجمعنا الصغير ...حولي عشرة مخازني بين النوم و اليقظة بملامحهم التي تشي بالرزانة تقريبا كل سمائهم شفافة و نقية... .

تنزل الشمس على قمة الجبل باشعتها الذهبية ووهجها المتورد مغطيا الرمال و مشعلا هشيم النباتات العصية ....ساعة أخرى للراحة مثل المحطة في حياتي هي ساعة اللامبالاة غارقة في الأحزان فلا ندم ولا رغبة يأتيان لإزعاجها ...الليل يسدل ستاره ...ثم لاح فجأة من خلف شجرة بدوي رث الثياب و بعد أن يتقدم من رئيس المخازنية المدعو عبد القادر ولد رمضان و يكلمه بصوت خافت ...حينها ينهض من مكانه في حالة من الفزع .

. انهضوا ..

و البعض منكم يذهب سريعا الى لف المواشي و الدواب في وسط الدوار فهناك جيش أولاد عبد الله لا يبعد عنا الا بمسافة نصف ساعة من مكان تواجدنا ؟إ

قلت بيني وبين نفسي جيش من اللصوص هذا يبدو غير صحيح و علاوة على ذلك اللصوص لا يجرؤن على اقتحام دوار حيث يحوز أكثر من عشرين بندقية ؟

ومع ذلك المخازنية نفذوا أوامر رئيسهم بنوع من التذمر و سارعوا الى جمع الخيول و البغال و المعز التي ترعى نواحي الدوار أما مواشيهم من الغنم فكلها في عين الصفراء في أمن .

الساعة الثامنة مساءأ و مع ذلك لم يطلع القمر بعد ؟إ كنا متكئين على الزرابي داخل الخيمة في ظلام دامس و عبد القادر منحنا حيزا من الزمن لابتلاع القليل من كسكس الشعير و بعض الاكواب من الشاي و يعدها اطفأ كل الأنوار و أمر بالمناوبة في الجهات الأربعة للدوار لحراسته حيث كانوا في وضعية انبطاح و راحوا يترصدون أية حركة في جوانب الخيام من جهة الرمال نعم كانوا في وضعية انبطاح و بنادقهم بأيديهم و بعيون حادة و فاحصة في ذلك الليل الشديد السواد ...الآن لقد جد الجد ؟إ ... و إذن الوقفة الطويلة تبدأ و نحن نتكلم بصوت خافت و ندخن خفية ...كان الصمت ثقيلا و على نحو صعب يزعزعه بجانبنا في جناح النساء هتاف امرأة يكاد يكون مختنقا و رتيب كانت حينها تهدهد إبنها.

فجأة الكلاب تبدأ في هديرها الخافت و المخازنية يختلجون و يوقفون ثرثرتهم ومزحهم و هيجان نباح الكلاب يرتفع على مقربة منا ...ضجيج مبهم ؟إ و هيجان الكلاب و نباحهم يعلوا أكثر فأكثر كله صخب على أشرعة الخيام و في سباقهم الذي يغطينا غباره ؟إ . هل سمعت ؟ قال لي الطيب :الكلاب تنبح في كل الجهات ...انهم اللصوص إنهم يطوقوننا في هذه الساعة ؟ أه يا سي محمود يا ريت كنا نحوز بندقيتين ؟إ

إن ما أشعر به ليس مصدره الخوف ؟ و لكن من كل هذه التمثلية من ضوصاء الكلاب مع هؤلاء الناس الذين يريدونها و الذين هم في هذا الظلام الدامس ولا نراهم و كل ما سبق أعتبره في خانة شعور الاستغراب الذي يجتاحني من الأحلام المزعجة قليلا الا أنني أشعر برغبة طفولية على أن الهجوم سيقع و أنه سينتج عنه شيئا ما خلال الساعتين الماضيتين ؟إ

يستسلم الطيب الى النعاس متذمرا بعد أن يضيف معلقا :فليأتوا أو يذهبوا الى جهنم .
و يعقب مخزني مازحا :
. قل لهم ابتعدوا عنا و سنعتبر ذلك خدمة منكم ؟ و انتهينا في الأخير الى المزاح و الضحك ازاء

هذه المغامرة و بالأحرى المزعجة ؟ من هؤلاء الناس الذين لا يريدون اقتحامنا ولا مغادرتنا ؟ . لم يكونوا كثرا و مادام الدوار ليس به انارة ولا دواب في خارجه علموا أننا أشعرنا بقدومهم ومع ذلك يبقى الوضع خطرا و يتطلب الحذر أضاف عبد القادر مفسرا :

بخصوص العدد القليل من هؤلاء الناس الذين يريدون الاقتحام كان مجرد خوف من رئيس المخازنية و في آن واحد سب لهم و سخرية منهم و استهزاء من هذا الجيش الشبح و تدريجيا تعود الكلاب الى هدوئها و صمتها ؟ و نستسلم نحن جميعا الى النوم ... .

و في منتصف الليل إنذار آخر و الكلاب تندفع من فوق رؤسنا مع صيحات المخازنية و كلهم قسما على أنهم لن يناموا هذه الليلة في أمن و اطمئنان ؟إ.

نعود الى السهر ولا ننتظر شيئا و يعود الصمت من جديد الى الدوار مصحوبا بنسيم منعش قبل الفجر وهذه المرة نستسلم ثانية الى نوم عميق نتيجة الارهاق ؟إ .أخيرا طلع الفجر إنها اللحظة التي كلها إبتهاج في الفيافي أستيقظ على الهمس الرزين للمخازنية فيما بينهم ,و هم يؤدون صلاة الفجر خارج الخيمة و في فضاء طلوع النهار بأنواره الغامرة و المتقزحة . نخرج من الخيمة و نمتطي فرسا بغية العودة الى هجرث ؟

وحول الدوار و على بعد ماءتي مترا أو أكثر المخازنية يقتفون أثار الجيش الذي إعتقدوا حاول اقتحامهم و مما جاء في محصلة اقتفائهم أن حوالي عشرين راجلا ثبت مرورهم .و نحن نواصل طريقنا صعودا نحو الأحجار المكسرة لهجرث مغيل

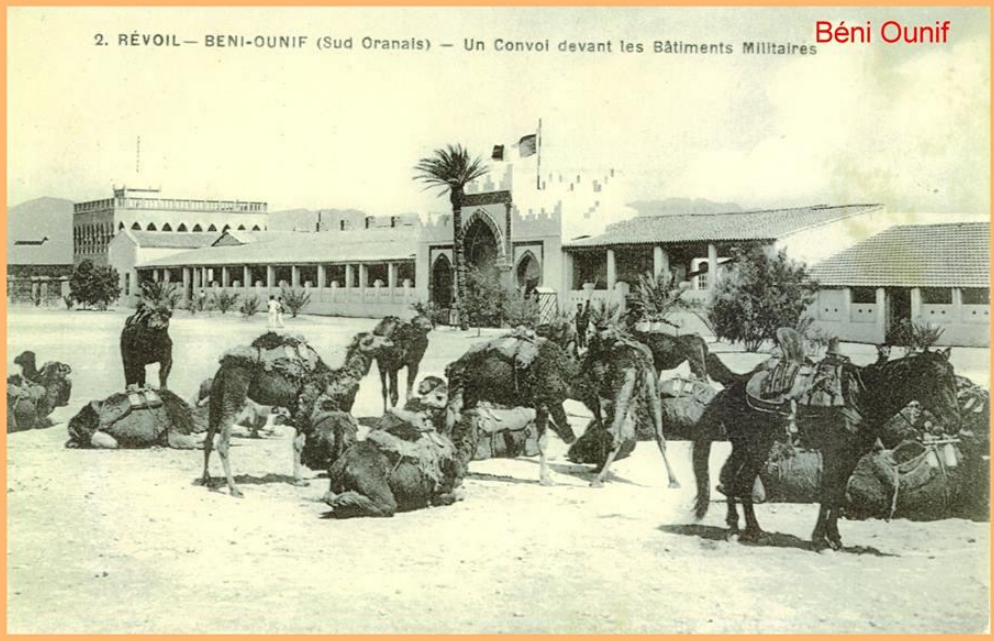

مدينة بني ونيف

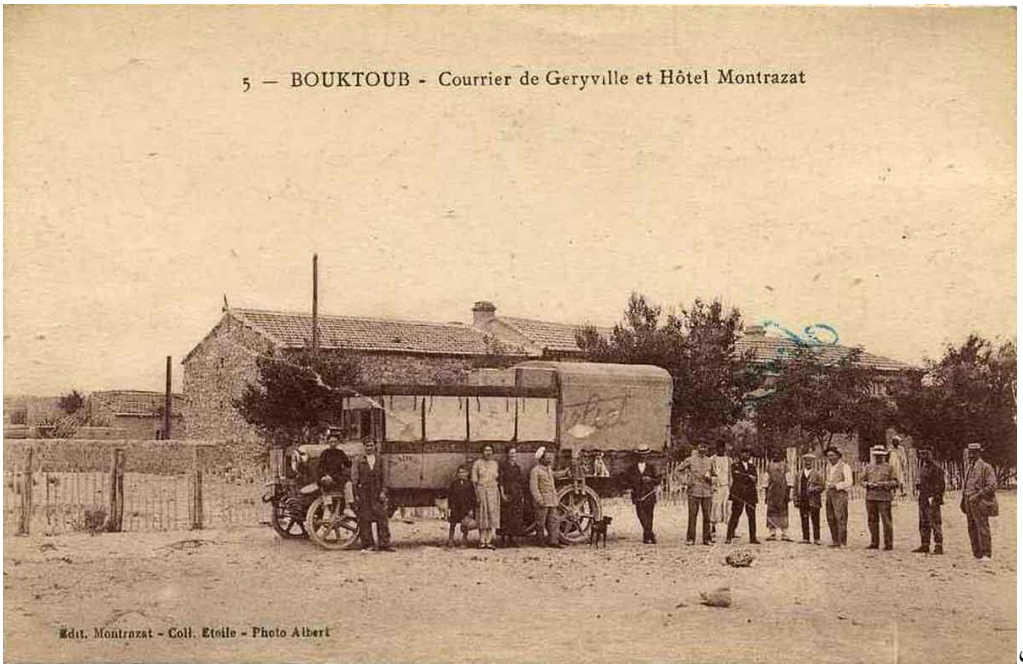

بوقطب

لالا اليزابات تواصل طريقها الى بني ونيف 1902م

==========

من جديد القطار الصغير يستأنف سيره البطيء عبر العزلة ...و المحطات التي مرينا بها مع توقفات طويلة . جنان بورزق . ومنه سهل قاحل و حصن محمر اللون و بعض الاكواخ معزولة و الآن . دفريي . مزبلة العرب . و في ساحة من التلال الموحشة ذات الحجر الأسود و بعد لحظات طريق السكك الحديدية الصحراوي ينتهي هنا ؟إ و القرية الحديثة العهد كلها من الطراز الأروبي تلوح من فج حيوي و منازلها ذات الطابق الأرضي مرورا بالأرض الرمادية التي تتضارب مع أغاني الفيالق العسكرية الأجنبية المنفية .... المطاعم و الحانات مفتوحة و أكواخ من الخشب و صفائح بقايا البترول و كوابح عريضة اضافة الى جلب بقايا السفن و اكواخ من سعيدة و سيدي بلعباس .

نظريا البعير تحاول أن تبرك في شوارع رملية . و . دفريي . هي منبع لنهر تدفقه يصب في الصحراء .... ظاهره إطمئنان ساده منذ بعض الأشهر حيث الناس بدؤا يستثرون و ينزحون اليه من كل مكان لممارسة تجارة و التهريب السهل و تحدث به أيضا بعض الإضطرابات و يتهامسون في . دفريي . أن إسما يملأ اصداءه الجنوب الوهراني منذ خمسة و عشرين سنة و هذا الإسم تقريبا عتيد و أسطوري الذي رنينه أكثر غرابة .... مزعج حيث هذا الإسم في الحقيقة . سيدي بوعمامة .

ثم , ممر صغير و عصي و الخطان للسكك الحديدية بلمعانهما في عزلة عبر الفيافي يتجاوزان دفريي لينتهيا بعيدا و قبالة . فغيغ . المبهرة ومن يوم لآخر تظهر مدينة على العجل مثل نبات الصحراء تحت أول سقوط لمطر الشتاء و الحياة الزائلة . لدفريي . تنقضي ليلتها الوصول من الجديد لبني ونيف .

اليوم و في الأضواء المتوردة للصباح دفريي تعطي انطباعا فريدا للهجر المبكر : منازل حديثة البناء و لكنها بدون أسقف مع مدارات سوداء و ابواب و نوافذ غائرة و الوكلاء التاجريين قد استقدموا كل ما بامكانهم من خشب و قواطع و بلاط في سفرهم المستعجل و أيضا دكاكين المشروبات أو المرطبات في حالة خراب و مرملة فعلى ما يبدو كارثة حريق أو فيضان حل بمنازلها المتباعدة و الحديثة المبنى أعاد لها الصمت الأبدي للصحراء .

انه حزن لاذع من ركن الوطن المهجور تحت الأنقاض و حدها الثكنة العسكرية التي تظهر الحياة في دفريي وملدوغة على طول الشوارع بنبات الخشخاش أو ملمعة ببرنوس السبايحي و البسة القناصة . و في المحطة الكل يأتي في غفلة محزنة لرؤية مرور القطار و الحياة منهم تأخذ وجهة أخرى في دفريي مفاجأة تبرق من أشهر مزعجة ؟ : فرقة من القناصة مسلحة تصعد الى القطار في حالة تعرضه لهجوم ومع ذلك مرة أخرى مثل عين الصفراء وواد درمال فلا شعور بخطر حقيقي في فضاء كله سكون و اريحية بسهل مشمس .

في زوسفانة جسر حديدي مطلي باللون الرمادي و بشع جدا و غير مميز في ديكور الحلفة و اليراع و أشجار الدفلة وواد جريان مائه مخضب بالأتربة المحمرة و الحصى البيضاء مع تيار في وسطه و شبكة دقيقة من الترسبات لنباتات . و زوسفانة الذي مع رافده الوارد من الغرب مشكلا . اغير . في إغلي واد الساورة و الذي لا يجف على مدار السنة حوافه مخضرة حتى في فصل الصيف حول برج محروس من لدن قناصة مسلحين و اكواخ لخدمة المحطة ... الجو هنا حار و رطب مع بخار أبيض الذي يغطي كل الأبعاد .

بعدها ومن هنا على اليسار السهل الكبير لجنان الدار عبارة عن أفق أحمر صافي مع المظاهر البعيدة لجبل سيدي مومن ... ثم شرفة مربعة الشكل التي تتدرج عبر الجنوب .. و ندخل الى واد ناعم لبني ونيف المشكل من جبال جرداء و التي تتفرع عبر الغرب في أفق متوهج غير متشابهة و في موطن الحجارة و الغبار و تبقى المناطق الجنوب الشرقي محببة بكثبانها الرملية الواسعة و النقية و المتقزحة لواد سوف عكس واد اريغ ببحيراته المالحة الضخمة و اشجار نخيله الغامضة .

على اليمين انها فغيغ في دائرته للجبال العالية بخطوطه المتناغمة حيث لا نر دائما الا النخيل في عمق حيادي ذو اللون العديم التعريف و لكنه ناري و تمره المبقع بالأسود . أخيرا هنا المحطة الصغيرة لبني ونيف بمؤثراتها المحزنة و بسكتها الحديدية التي تتوقف بحدة قبالة مجال واسع و على اليمين حصن الرصيف ذو اللون الأبيض متداعي و أمامها ممر أخضر من عنق زناقة و في خطوط عادية واضحة و بنفسجية عميقة تؤطر غزو أشجار النخيل و على منحدر ناعم قصر بني ونيف عبارة عن ركام خربة منظرها جميل بلون مذهب مائل للشحوب و متوهج في مخملية أشجار النخيل .

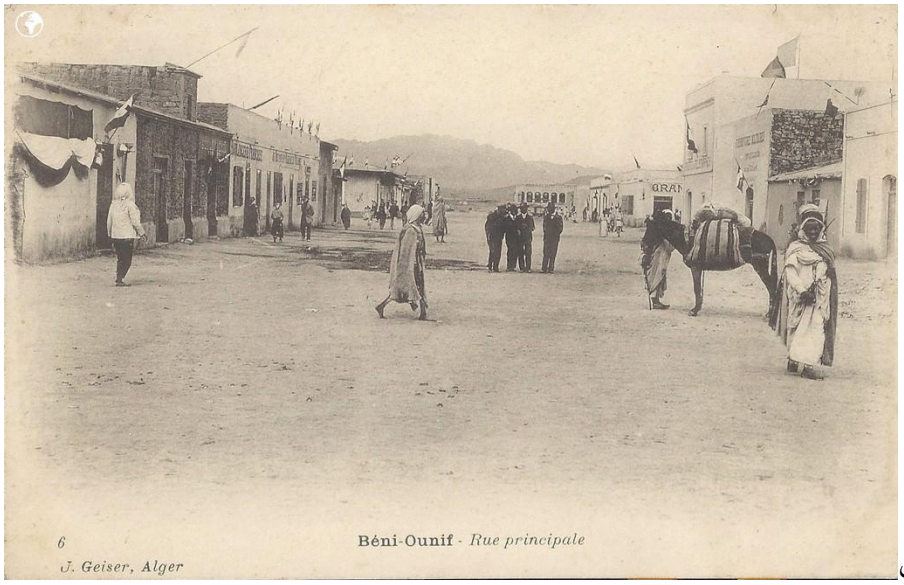

شارع بني ونيف

اليزابت في تغطيتها الصحفية لقصر بني ونيف

==========

وسط الأنقاض و هنا و هناك بعض الشوارع مازالت ماثلة مسكونة ومغطاة تقريبا مثل كل شوارع . القصوريين . بقواطع جذوع النخيل ثم شارع مظلم و منعش مع مقاعد ترابية تم إعدادها و لسيقة بالجدران حيث تجري الجماعة البربرية أحاديثها .و فجأة الشقوق المتسربة منها أشعة الشمس تقطع الظلال الزرقاء و ظلال الممرات الخاريجية المغطاة و علاوة على ذلك و بين الأنقاض منازل تظهر بقايا أسر عربية متواضعة و فخار من الطين المكسر و خرق معرضة للشمس قصد تجفيفها .

و آثار الأدخنة واضحة على الجدران .كأن الحياة تريد أن تنسحب من القصر لتنتقل الى القرية الجديدة و المرافق الصاخبة و البشعة عبر الجنوب و المنازل بأسفل الواد الجاف الى الضفاف الممزقة بجاذبيتها ...هنا توجد الإمارة الرطبة للحدائق المحدودة بجدران ترابية قصيرة للتصدي لحرارة الشمس .

و أيضا هنا و هناك . فوقرات . و هي عبارة عن منابع جوفية تجلب مياهها و توجه عبر دهاليز من الممرات لإستخدها عادة تحت الحدائق و الشوارع إنها مدينة من الظل الدائم و الغامض حيث أيام الصيف الحارق و حيث تندمج أصوات النساء و ضحكهن و اللائي يستحمن .و هنا المكان الذي يأخذن فيه شحوب الشمع لوجوههن و تعب حركتهن ...و من الأعلى و عبر الغرب هناك حفرة و سط الأنقاض و معبر لقطيع المعز يقاد الى صور قديم بهذا الموضع انها الذروة الوحيدة التي بقيت تتفتت ببطء أسنانها الغريبة.

باب صغير ضيق ومنخفض و لفتحه على المقبرة الكبيرة يتطلب ثنيه ,,,المقبرة ليست مسيجة و أجواءها ليست حزينة حيث الإحساس بالموت تلاشى في فراغ الديكور وما وراء القبور أشجار نخيل و أيضا قبة سيدي سليمان ....الساعات تمر و كلها رتابة في قصر ميت و ذو اللون المغمر وحده غير ناعم يقي قطعة من السماء التي تشق الباب المصرف الميال الى اللون البنفسجي المتقزح للصباحيات الى الأزرق الوهاج للأضاحي الى اللون الأحمر القرمزي و المبقع باللون الذهبي لغروب الشمس الى شفافية البحر لليالي القمرية.

مساءا الباب الصغير يبدو مفتوحا على فرن الذي ينعكس منه وهج محمر ينحدر الى أسفل الأنقاض للخرائب ....في القصر كما في القرية و في كل مكان من واد بني ونيف على الدوام الجير المحمر الذي يغشي و يلطخ الأشياء تلهوا مستبدة بها في الجو الحار و في أيام العجاج . حيث ندور المارة.

في بعض الأحيان فلاح يدفع بحماره الصغير أمامه محملا بأشجار جذوع النخيل التي حوافها تخدش الجدران في زحمتها الرجل يسير بعينين مبهمتين و عصاه على كتفيه مرفوع الهامة و في كامل القداسة مثل ما نراه في الشخصيات لنقوشات المصرية القديمة يغني لنفسه ببطء لحنا بربريا حزينا .و يتبادل بعض السلام و هو مشتت الذهن مع الأشباح البيضاء الثابتة على امتداد الجدران ...ثم ظهور إمرأة عجوز منحنية الظهر ومثقلة مرتخية على المقعد الترابي ... القصوريون البربر البيض و حيث الحراطين الأصليين السود يتكلمون ببطء و يبتهجون للظل و ديمومة ثباته
الزوا وة :اختلاط العرق العربي مع العرق البربري تكسوا أجسادهم الهزيلة منسوجات سميكة و صوفية يتدفق منهم الدم القديم للقصوريين عبر القرون الماضية و على الدوام في الظل .....

ومع ذلك الزواوة يتميزون بالفلاحة من الجنس البربري الخالص و يتكلمون فيما بينهم العربية و يقومون بفعل اللصوصية من جهة وهم سعداء باصولهم المرابطية . صوفيتهم . و يدعون في نسبهم الى سيدي التاج سليل سيدي سليمان بو سماخة و سيدي الشيخ و بالتالي هم اباء بوعمامة و الزواوة بقوا في بني ونيف بعد النزوح اليها و متابعة بوعمامة ويعيشون من منتوجات حقولهم و أيضا من عائدة . الزيارة . التي تم التقرب بها الى الولي الصالح سيدي سليمان حيث تقسم عليهم .

و زعيمهم اليوم هو بواب القبة هو رجل في الأربعنيات من عمره متفق عليه و موثوق فيه بلباسه البائس و لين طبعه و متخلق و ملمحه الهزيل المدبوغ من لفح الهجير بعينين مشحونتين بالدهاء و الذكاء و الارادة. .

و أسفل الزواوة افلاحة البربر هناك الحراطين الأهالي الأصليين الصحراويين و التي دماءهم سوداء خالصة و طويلي القامة ووجوه مستطيلة و ناتئة العظام و يشبهون كل القبائل السوداء المنتشرة في الصحراء و يتحدثون اللهجة الشلحية القريبة من اللهجة البربرية القريبة من الزناتية

للمزابية و السود الأخرون من العبيد من الذين ايضا جاؤا من قرارة و توات و حتى من السودان يتحدثون بلهجات مختلفة اصيلة . نغرتيك . و المعروفة باسم . القورية .

عندما غادر زواوة قسم كبير منهم بني ونيف بعد الإحتلال الفرنسي ...الحراطين بقوا دائما سادة البلاد و هذا ما يفسر بعض الأسباب السياسية لماذا واحد من اثنين . لبوشيتا . عين قايدا في غمرة سخط زواوة فكل البيض بما فيهم القصوريين البربر يحتقرون الحراطين ذوي البشرة السوداء و أيضا كانوا عبيد و مكانتهم اقل من اليهود و ايضا كلمة الحراطين لا وزن لها في الجماعة .

و القائد بوشيتا خارجي و أيضا مهرج و طويل القامة و سواعده أيضا و متعود على يسراه و عديم الكرامة في مواقفه و سشيتا لا يرتدي برنوسه الأحمر و يعطي انطباعات سيئة ايام الاحتفالات الفرنسية و عند امتثاله أمام القادة الفرنسيين و الزواوة يسخرون منه على الملأ و ينادونه بالحرطاني أو العبد لكن القائد بوشيتا دائما سعيد و مبتهج بابتسامته العريضة و أسنانه الصفراء و حركاته القردية غير مكترث بما يدور من حوله و محافظ بينه و بين نفسه على رهبة المرابطين .

شارع مدينة القنادسة

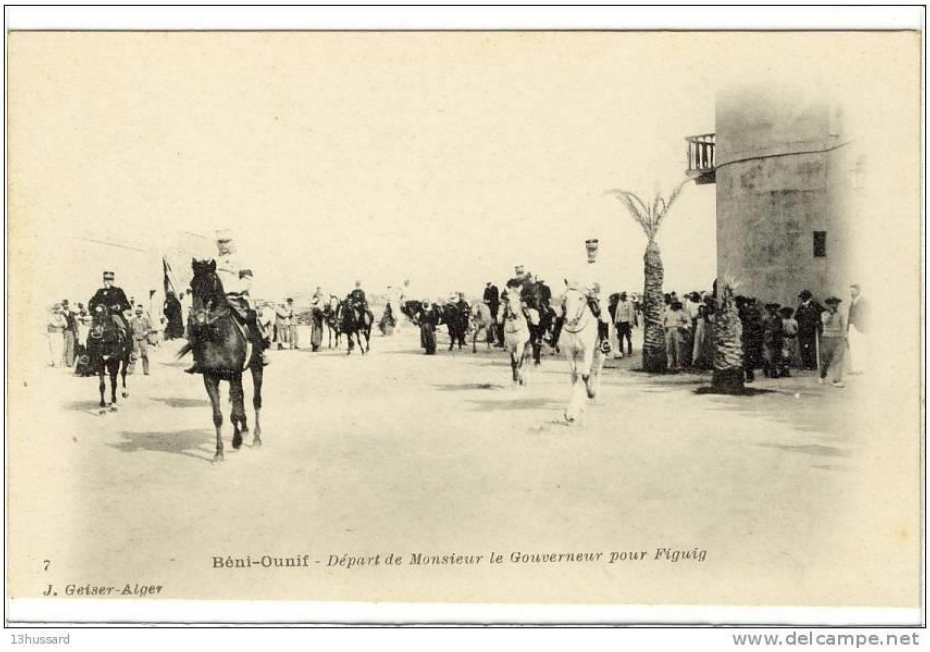

مدينة بني ومنيف

في بني ونيف لالا اليزابت تواصل تغطيتها

==========

الأطفال وحدهم على قيد الحياة ... الأطفال وحدهم سعداء في سكون المقابر و حنين الحزن للقصر ... و تحديدا الصغار في تهريجهم أغلبهم سود البشرة عراة في قمصانهم القصيرة جدا حليقي الرؤس حيث يعلوها جدائل الشعر تتخلها طواقم من الأصداف البيضاء و التمائم لقد تعودوا على التسول من المارة من ضباط المحتل , يقفزون من حولهم و يضربون بارجلهم الأرض و ينحنون شاكرين و مداعبين للقطط الصغيرة ثم يتقاتلون فيما بينهم بشراسة ازاء قطع نقدية التي ترمى لهم من الضباط بعد أن تتدحرج هذه القطع على التراب

الزعيمة الصغيرة فاظمة

==========

يتراوح عمرها في حدود إحدى عشرة سنة جسدها لم يبلغ سن البلوغ و في ليونته مثل القط الصغير ة المتوارية في أشلاء بالية من المنسوجات ذات اللون الأخضر تشد صدرها النحيف بمشبك جميل من الفضة مرصع بأحجار المرجان الأحمر اللون بشكل نادر .

فاظمة الصغيرة وجهها المستدير بوجنتيه الناعمتين بلون النحاس و على حد سواء بجح و عذب و بعينين محبلقتين و شفتين مثيرتين و في السنوات القليلة القادمة فاظمة ستكون جميلة و جريئة . تقود سربا عاصفا من الأطفال ذوي البشرة الصفراء أو السوداء تعدو عبر الخرائب بضحكتها الشفافة كأنها حورية و مثل الجنية ظهرت فجأة وتمظهرت إعتباطيا على حافة شرفة منهارة أو على قمة جدار آيل الى السقوط كانت تتضرع و تحاول لفت الإنتباه و تبتسم ..

ذات يوم رأيتها على نحو الإمتنان تأخذ يد رومي ضابط بين أصفاده الفاترة وتقول له قولا يطبعه الجد المزعج . أحبك يا سيدي . الرجل الرومي يبتسم مرجعا دعابتها الى المتعة للحصول على المال ثم فاظمة الصغيرة تستاء حزنا مع رفع رأسها عاليا . لالا ليس كما ظننت بل أنا أحبك لوجه الله . .... غرابة هذه المخلوقة الصغيرة مثل الروح

الجميلة ولكن ما انتظرته كان مخيبا للآمال و للأنقاض المحمرة .

سيدي سليمان

==========

شعرت اليوم شعورا مكثفا ’ من الإنكفاء في الزمن عبر القرون المنقضية لقد ذهبت لزيارة سيدي سليمان بوسماحة في أصبوحة محمومة بالحرارة ... هي سياسة حكيمة من المحتل الفرنسي

لإحترام مشاعر المسلمين فالى الآن قدسية القبة محمية ... و ابدا ولا مسيحي ولا حتى ضباط المحتل دخلوا اليها اما انا فمسلمة وا دخلونني لأن سيدي سليمان المشفي الكبير من جميع الأمراض إنه رفقة بن شيخ رئيس الزواوة حيث زرت ذريح كبير المرابطين فبعد ممر طويل و مرصوف نتجه يمينا و ننزع أحذيتنا و هذا هو المصلى تحت القبة و الذريح في غرفة صغيرة كلها بيضاء و يغمرها الخشوع و مضاءة من الأعلى و الذريح شكله هرمي و مصنوع من الخشب و مغطى بستائر من الحرير ذو اللون الاخضر و الأحمر .

مثل كل شيء في هذا المكان الا أن هذه الاقمشة فيها الكثير من سحر العراقة مع الوانها الباهتة و أكثر لطافة في الشفق الأزرق إضافة الى شبكة من الخشب قديمة تتفتت عند لمسها حول الذريح المرفق به عن قرب و سبحات من الخشب ثقيلة و معطرة و حباتها خشنة مثل حبات الطماطم الصغيرة تتدلى على السفح وعلى رأس الولي الصالح و فونتازيا غريبة و ضعت هنا عالية عبارة عن ساعة عتيقة من الطراز الأروبي حيث صندوقها من خشب غمست في أزهار حمراء بسيطة نيلية اللون و من الذهب .

أي فرصة هذه و أي ترحال هذا لتأتي هذه الساعة وتخفق هنا في هذا المحراب الفجيجي ربما حطام من بعض النهب الهمجي فوق السواحل الإيطالية أو الإسبانية جيء به في طابع نذور على ظهور دواب عبر المغرب لقد توقف عقرب هذه الساعة المنسية ذات منتصف النهار أو منتصف الليل لا شيء يحركها سوى الصمت الذي صار جدير بها .

و في قبة سيدي سليمان شخصيات من المسنين بلباسهم الأبيض العتيد أحنت السنون ظهورهم تغمرهم الطهارة و تملأ أرواحهم التقوى رافقونني بهمسهم الخافت كأنه آت من بعيد ثم نخرج الى ضياء مبهر في سهل عاري تناثرت به قبور لا تعد ولا تحص .

بني وميف

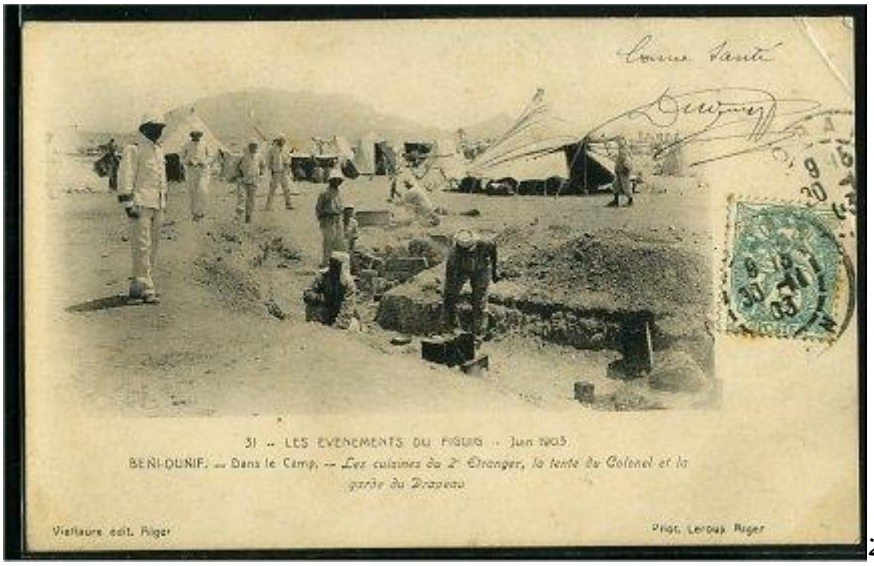

ورشة

لالا اليزابت ذات ويكاند في . الفيلاج . سنة 1902

==========

السماء مغيمة ' وريح السيروكو تنفخ أنفسها الحارقة , حيث توهجها القاتل بمداعبته للأجساد المتعصبة و المتعرقة .و تبعا للضجيج و صراخ المقاهي العربية ...عدت من بشار الى نجمة الجنوب .. والدة الجندي لواحة فجيج ...و في حانات الفيلق التي باطنها كله يأس و أسف و استفزاز من العربيدين بسكرهم من لدن الفيالق الأروبية و أبواب الحانات مشرعة أمام أمواج الأضواء الحمراء على الرمال و الشوارع الدكناء ...و هناك كومة من المعاطف الزرقاء قبالة مصرف خشبي و حيث دائما الشراب المسكر و نفخ رياح السيروكو .

و يأخذ النشاط في رقيه و الآن . بابل . الغناء المساير للطرب البطيء الجرماني و تغريدات الطبوع الايطالية و مقاطع من الروك و أخرى صاخبة من الطابع الاسباني .و فجأة و بدون سبب واضح تبدو للوهلى الأولى غنائية غريبة لكن في عمقها أحزان و بكائيات لأنها تنبع من رحم المعاناة و الأحزان الانسانية ففي أوساط هؤلاء اللاجئين في المنافي من المتواجدين من العسكريين في الجنوب .يبدأ العناق بين العسكريين في غمرة الخمرة و ينتهي بتشاجر و الضرب لبعضهم البعض عواقبها كلها جروح و دماء تنزف .و خارج هذه الفيالق دورية عسكرية مزودة بأسلحة تراقب عن بعد عما يجري للتدخل في الوقت المناسب ازاء الحوادث التي قد تقع و التي لا مفر منها .

و في كفيتريا شاب الماني شاحب يعزف على الة الكرديون و أخرون يرقصون ...أما المقاهي العربية بقاعاتها البيضاء الشاغرة و بمدخناتها في زوايا القاعات و أخشابها المثبتة بها و المزينة بالفناجين الفخارية و أكواب الشاي الملونة بالون النحاسي الشاحب.

هنا في هذه المقاهي القناصة المرتدين للبرانيس الزرقاء الدكناء المزهرة بالشيشيات . الطربوش . ذات اللون الارجواني و المزدحمة بالسبايحية حلقي الرؤس تعلوها عمامات بيضاء مخططة بخيوط سوداء و أيضا برانيس المخازني و الخراطيش حيث مصابيح نحاسية تضيء وحشود مقنعة بالرانيس البيضاء الدكناء للبدو .

و القناصة هم الأكثر ظهور يلعبون لعبة الورق و الديمينو في أجواء تغمرها البهجة و واحد منهم يغني

و القناصة هم الأكثر ظهور يلعبون لعبة الورق و الديمينو في أجواء تغمرها البهجة و واحد منهم يغني مستندا على كتف قناص كبير بحركته الوديعة و بصوته البطيء ثم شاب مخزني مخمور ينفخ في آلة . الغايطة . بكل أنفاسه ليصدر نغمة مشحونة بالحزن مخترقة ضجيج المحيط ...و قناص ملتحي ينهض و بعد أن يوشح جسده بفولرات حريرية يشرع في الرقص بين رفاقه في جو مشحون بالضحك رقصة فتيات جبل عمور مقلدا اياهن في تمايلهن المثير لجسدهن ثم و تبعا لحالة السكر العساكر يمارسون لعبة القتال في دوران أجسادهم بضراوة على الحصير و على الكنبات مثل الاطفال الصغار .

و في حدود التاسعة مساءا بوق يخترق الضجيج قصد تجمع الجميع للإستماع للتعليمات لتجنب الكوارث و المصائب و رجال سكارى متناثرين في الشوارع و يتوقف الغناء و الصراخ و يبقى الظلام وحده الخانق و حشرجة الموت و الشكوى المستعيرتين بالوجع في شكل زفرة عابرة بدون جدوى ...منذ شهور في عناق و مداعبة النساء .

زاوية سيدي سيليمان

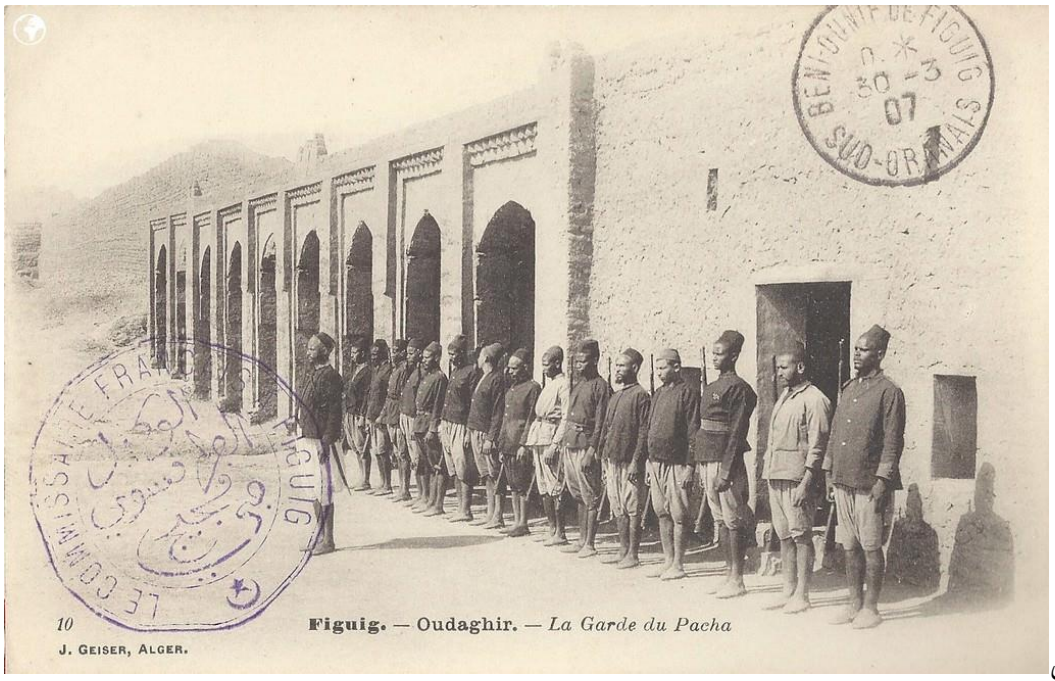

فيلق

لالا اليزبات في ضيافة المرابطين سنة 1902م

==========

مساءا في قصر بني ونيف , و في غرفة ليست مبلطة و قديمة جدا من الطوب و رمادية اللون . تطل على إسطبل جدرانه ليست منظمة . الغرفة سقفها من جذوع جريد النخيل الأسود .. متداعية و عارية و لا شيء يوحي بمرور الزمن بها وبركن يغلب عليه الجمود و اللا مبالاة المسلمين ... عند هؤلاء الناس الذين يشهدون بدون وعي و بشكل مختلف على تداعي الأشياء التي لا يستطعون بعث الحياة بهذه الخرائب .

ملتسقون بأرض وعرة ...و هناك شمعة نحيفة من الشمع الأصفر خافتة الإضاء ة في الغرفة ...و رياح المساء تتسرب من شقوق الجدران الغير مبلطة و اللهيب الأحمر للشمعة يتمايل محدثا ظلالا ذات اللون الأسود على الجدار الباهتة و الجزء الخلفي للقاعة تطبعه ثقوب مظلمة أو متراكم بها أشياء و على الجدار و تقريبا على مستوى الأرض نافذة صغيرة مربعة الشكل تفتح على سكون النخيل و على أعتاب الإحمرار الآيل للزوال للسماء و الصمت الهائل الذي يغمر السهل .

كنا مستلقيين على حصير بالية و سجاد قديم في حالة يرثى لها .. تتوسطنا صينية عليها أكواب ذات الألوان الناعمة و مزخرفة بروسومات لأزهار بسيطة و مذهبة و إبريق معدني ورغيف مسكر و أدوات طهي الشاي القديمة المتعلقة بالضيافة المغاربية و الشاي المعطر بالنعناع العذب و الثقيل و مثل هذا الشراب يتناغم مع الجلسات الحميمية ذات الكلام البطيء الذي تخترقه من حين لآخر الكثير من الأحلام .

المرابط بن عيسى الشاحب و الحكواتي و الجاثم قبالة عمود ترابي صلب كانت تعلو محياه أبتسامة عابسة . و في أشرعته الترابية يعد الشاي على محمل الجد حيث مرفقيه مسندين على ركبتيه و ساعديه العاريتين وحدهما في حركية و في عدم اللامبالة لبقية الجسد . حينها كنت متوسدة برنوسي المطوي أشاهد مضيفة الطمأنينة داخل ظلام لزاوية سيدي بوعمامة البسيطة جدا و الأقل براعة من نوع الدراويش المستقبلين و الضاحكين .

و بجانب المرابط بن عيسى رفيق الطريق من حين لآخر الطيب الخزايني السبايحي الأسبق مرتخيا في وضعية تشبه وضعية القط .. كان حينها ملفوفا في برنوسه الطويل بطياته الرقيقة الذي تبدو عليه النعومة و الجدة و ثغره الباسم يلوح منه بريق أسنانه الناصعة البياض تكاد تضيء الظلام الذي يغمر الوسط البدوي الجاف وظل العينين الكبيرتين و الصلبتين .. و بريق

ضؤ الشمع الغامض في غرابته يتمظهر فيه عصفور غنيمة المخزني الكبير عبد الحاكم بجسده القوي و المتواري في البسته الخشنة و الثقيلة و برنسه الأزرق و الصامت على الدوام هذا الأخير فظ و غير مروض في خدمة المخزن الفرنسي . ووراءه بعض الظلال الجامدة للفججيين و الشمعة المؤطرة بالصوف و في أقصى القاعة الطاهر الأسود البشرة و الحرطاني الأخ الغير الشقيق لابن عيسى .

الجميع في صمت مشدودين بسمعهم للمضيف الذي يتحدث بعذوبة و برتم سريع و تشنج فريد من نوعه في بعض الاحيان ..... مثل المستغيث أو المداعب للأطفال في ليونته يحكي لنا قصصا و أساطير من السنوات الخوالي أو قصص المؤمنين المسلمين و كرماتهم من السلف الصالح و معاناة الحياة الصعبة

للبدو و أسرار ما يحاك من مؤمرات ماكرة و الدم الذي يعتم حياة المخازنية .

. أ رأيت سي محمود . اليزابت . الصخرة التي في الخارج قبالة جدار المنزل ...؟ هذه الصخرة لها تاريخها القديم أنها الولي الصالح سيدي محمد عبد القادر شيخ فجيج و الله ينفعنا ببركاته ... لقد وقعت نزاعات مرعبة و بدون توقف بين الشرائح الاجتماعية لقصور الفجيج بسبب ساقية الفقارة للماء حيث كل قصر يريد جلب الماء اليه بكميات كبيرة و أكبر من حصته ليحرم بذلك حدائق جيرانه و هو ما ينجر عنه الجفاف و الموت لمزروعاتهم .

منذ زمن بعيد و سيدي محمد عبد القادر يحث القصورين على التعامل بعدل و انصاف في إقتسام الماء أخويا الذي هو هبة لكل الأملاك التي تدر عليهم بالخيرات و الرخاء مسترسلا في كلامه الذي كله طلاوة و حلاوة و المعطر بالعسل البري ... لكن الشريرين دائما عمي في عنادهم الذي لا تبهره حتى أشعة الشمس الوهاجة ...كان الدم على الدوام ينزف بسبب أقتتال الأخوة بالسيوف و المعاول ...و ذات يوم و بعد مذبحة رهيبة بين الحمامين .. حينها الولي الله الصالح تخلى عنهم بعد أن بلغ غضبه زباه من شرهم و دعا عليهم:

بقولة . اللعنة عليكم يا قصور فجيج لأنكم انحرفتم عن الشرع بمعاصيكم و فتنكم و قساوتكم على بعضكم البعض انتم ملعونون و أرضكم الى حدود صخور جبالكم ثم ثلاثة صخور انفصلت عن الأرض و تحولت ببركات الولي الصالح تعبيرا عن غضبه وواحدة من هذه الصخور لجأت الى قبة سيدي سليمان و التي مازلنا نراها الى اليوم و الصخرة الثانية بقيت عبرة في طريق المؤمنين لتذكيرهم و ارشادهم لجعلهم في الطريق السوي و الاعتدال و كل ما سلف ذكره من السلف الصالح ... رحمهم الله و من الصخرة الثالثة بني هذا البيت القديم .

. سي بن عيسى كم عمر مسكنك ؟

سي بن عيسى بلفتته الغامضة أجاب :

. علمها عند الله وهو الأعلم بحساب السنين و الأيام .... و جريناها و ما شابهها في الخلق و الاشياء الماضية .

منذ برهة كان الطيب منهمك بإعداد الكيف في قاع قصعة الكسكسي الخشبية ... كان حينها يقص أغصان و أوراق القنب الهندي بسكينه الطويل المغربي ثم يفركهما بين اصابع يده الى أن يحولهما الى الغبار ثم يخلطهما مع التبغ على الطريقة المغريبية . و في غليون صغير جدا من المعدن مثبت به أنبوب طويل ويقومون بتدويره من واحد الى الآخر فيما بينهم ...و شيئا فشيئا الجميع يستسلم للصمت و الى السكون الثقيل و بعدها لا مكان للإحتلام الذي يعزو في أروبا لمدخني الكيف المثقل به المسكن القديم و المتهالك ... و في القاعة التي يغمرها كل الدخان الأزرق ...و الوقت متأخر و ذوبان الشمعة في اطراد الى أن تنطفيء ...فنستسلم للنوم الهادئ و الناعم في حلم غامض الذي يطفو في النسيان .

أوه ...ما أبهج السكن العشوائي في الصعلكة و الوحدة و التجاهل لكل شيء في هلوسة مع الظل الصديق للمرافئ المؤقتة و الاقامات الطويلة في الطرقات المشمسة للمشردين و لذة الأحلأم التي ما لا نهاية لها في مهاوي الصمت .

مسلخة

1. - COLOMB-BÉCHAR (Sud-Oranais). - Le Marché
www.cartes-postales-anciennes.com
Collection Idéale P. S.

قافلة

لالا اليزابت و مرياما المثيرة للشفقة سنة 1902م

==========

تبدو السماء منخفضة ..بغيومها ووهج الشمس الشاحب و العديم الأشعة ومع ذلك ملتهبة على الغبار الذي يغطي الأفق وواجهات المنازل البيضاء الميالة الى اللون الرمادي و إختراقاته المكدرة و ما يسببه من عمى . و الذي يبدو منبثقا من لهيب داخلي ,,, و في قمم أركان التلال الجرداء ذات اللهيب الأسود للدير و دخان مبقع بالأحمر تراكم وراء جبال فجيج .

فلا شيء يلمع , ولا حياة في كل هذه الحرائق أحيانا فقط نسمة جافة تأتي حينها نعرف من أي فرن بعيد و ردت ,, من أجل بعث غبار العجاج ليتجه سريعا نحو الشرق و يتبدد في الواد .

و في محطة القطار و بين العربات السوداء و الجدران المبقورة ..هناك أناس في انتظار القطار من أروبين متكاسلين و عرب بحركاتهم المنهكة ... و الخيول و البغال الوديعة و الممددة أعناقها الى الأرض و رأسها متدلي و الدم في مناخيرها و فوق كل هذا هناك صمت لا يوصف الذي نحسه و الذي له وزنه ولا يعني الراحة ولا السكون ...بل هو صمت مقرف و يتطور الى حد القلق . كانت هذه واحدة من إنطباعاتي عن بني ونيف ,,, لا دليل ولا رؤية غريبة تفصل بين مشاعري و أشيائي و لا تفسير خامل في حين أجول لوحدي في هذا الركن من هذا البلد الجديد بالنسبة لي .

و في مخرج الفيلاج و باتجاه محطة القطار جدار عالي ذو اللون الرمادي من معدن منصهر و في الأقصى و الى ما أبعد السكك الحديدية الزرقاء اللون تنتهي في خندق و مساحة شاغرة رصفت عليها الحجارة السوداء و أيضا الغبار ,,,, هو فراغ ملتهب لا نهاية له على سفح الجدار و شبكة نحيفة ذات اللون الأصفر الميال الى السمرة شفاف و بدون طراوة .

هناك شاهدت مرياما جالسة أمام كومة صغيرة من مخلفات كل المعادن ,, كانت عبارة عن جسد عاري غير متوازن , منهارة ' بنهدين فارغين و متدليين و لحم أسود , و ملطخة بالقاذورات و الأتربة و شعر متجعد و طفل حليق الشعر قبالتها هزيل غمرتها التجاعيد و شفتيها السميكتين مفتوحتين على أسنان صفراء و عيناها تشبه عينا البهيمة المريضة كان مظهرها محزنا بسبب معاناة الحيرة و الخوف . تومىء في غرابة برأسها و تبحث بأصابعها الطويلة و الناتئة العظام في كومة من الخرق في قمامة و تتحدث بدون توقف في كل الإتجاهات و بكلام غير مفهوم ... بلهجة بربرية و الذي عرفته فيما بعد أنها لهجة السود الصحراويين أو السودانيين كلمتها بالعربية

لكنها واصلت الهمس كان مبعثه رثاءا ساخطا ... مددت لها يدي فامسكتها و تابعت و بدون أن تتوقف في حشو كلامها الذي كله تخاريف و منتفضة بوجهها ....

و رجل من فجيج بعد أن تفحص وجهها قال لي :
. عرفت هذه السيدة ليست من هنا .. إنما كانت آمة عند المسلمين لمدينة المشرية ..كانت متزوجة ...و كان لها ولدا إسمه محمود أنظري كيف صار مصيرها : هذه المرياما كانت تقية و مؤمنة و هانئة و سعيدة مستمتعة بين النساء و ذات سمعة في استقامتها ...

و ذات يوم أخذ الله منها إبنها ثم صارت مجنونة , تائهة وحيدة عارية و توقفت نهائيا عن الحديث بالعربية و عادت الى الحديث بلهجتها ....جاءت من بعيد و من أبعد من توات بعد أن قطعت المسافات و جابت الطرق و القرى معتمدة على التسول في الإسترزاق من المحسنين ...لقد حاولوا أكثر من مرة اعادتها الى قصر أودغهيغ في فجيج حيث تكفل بها بعض المسلمين و لكنها في كل مرة تهرب و تعود الى بني ونيف لعتش تحت أكوام الخشب ..

و على الرغم من أنه هنا الأطفال يضطهدونها و يسخرون منها و في أماسي عطل يوم الأحد و عندما يسكرون عساكر الفيالق و القناصة ينسون أنها معدمة و فقيرة و بريئة و يغتصبونها و هذا على الرغم من استغاثتها و شكواها ... الإنسان السكران يشبه الحيوان المتوحش ... الله وحده الحافظ من كل مكروه كالذي ابتليت به هذه المخلوقة ...

ذات صباح أرجاءه مضيئة و مشبعة برياح السيروكو على سهل نهاره مثقل بالغبار المبقع باللون الأحمر ,, و في حيز الفجر نسائم الشمال تهب من الشمال محركة الغبار العالق بتمور النخيل المتناثرة في الواد حول القصر بشفافيته الخضراء ... و النهار ينبعث من جديد .. و القناصون يمضون الى عمق الواد حيث بعض أشجار النخيل و أشجار الدفلة تزاحم جدران من الطوب الأحمر .

القناصة ببذلاتهم من الكتان الأبيض و معداتهم النحاسية و حيث الشمس ترتفع متوهجة باللون الذهبي وهم بتجهيزاتهم صارمين في أداء النوبة العربية : العازفون يشرعون في العزف للإيقاظ الى غاية التاسعة و الواد الميت يردد اصداء أبواق النوتات الحزينة و رنين الغايطة يثير دق الطبول .

يجوبون الفيلاج و أصبوحة الفجر تلقي بظلالها على ثغرهم الباسم و محياهم البني الذي تلوح منه اسنانهم البيضاء و أعناقهم المفتولة و العارية و بإيماءة جافة للتنبيه مكانكيا كل السواعد ترتفع عاليا موشحة بالنحاس و فجأة رنة موسيقية للتنبيه ذات إبتهاج و تليها طلقات نارية . وفجأة من فتحة ظل تبرز مثل دمية سوداء إنه ظهور مرياما حيث زينت بقندورة من الأسمال البالية و قباعة نسائية من القش و مزرقة بشريط و تليها ضحكات القناصة و تشرع مرياما في الرقص و النط و القفز مرسلة صرخات تنطوي على هيجان و عصبية مفرطة و تدريجيا يرتفع ريتم حركة التروا ح المحموم للعسكريين و مرياما تواصل رقصها و تمزيق قندورتها الى أن تصير عارية بإستثناء قبعتها التي بقيت على رأسها و المربوطة بخيط في عنقها .

و الى غاية أكوام الطوب مريما واصلت مرافقتها للفرقة النحاسية للقناصين هؤلاء الذين جاؤا في بهجة الأصبوحة العديمة الغيم . و ذات يوم يغمره السكون في الفيافي الصامتة .. في الفيلاج ضباب خفيف أبيض كان مخيما على السماء الذي يجوبه سربا من الطيور المهاجرة و في عمق الواد بين الصخور السوداء و تحت جرائد النخيل الحادة و عراجين من التمور الخضراء حيث كانت مرياما جالسة ,,, مع خرقها المتعددة و الملونة جمعتها من الشوارع و راحت تزين بها الأشجار و الأحراش تأهبا لاحتفالية غريبة لعبادة العصاة , و تبعا لأيقاع ذراعيها الطويلتين و النحيفتين و نتؤات منبعثة من فوق رأسها ....

كانت تدق على صفيحة قديمة متخذة منها طبلا و تغني في جو رتيب بصوت حاد و كله نشاز عن الطبقات الصوتية و كله إبهام و عديم الفهم . و دخان لاذع يتصاعد لولبيا رمادي اللون من مجمرة نحاسية لروث البعير أشعلته المجنونة مرياما قرب الأشجار و قرب أيضا المسلخ محيطه تنبعث منه رائحة حفظ الجثث و بركة كبيرة من الدم المتقزح و المتعفن .

لكن مرياما لا تر الذبح الذي يرثى له و لحم الخنزير القذر الذي يجيء مقنعا و غير مخلل و لحس دمه المتخثر و لا تتقزز من رائحة الموت ... مرياما تصلي تارة و تبكي تارة أخرى وطور ترسل تراتيل ... مريما مقطوعة من شجرة الكائنات الى الأبد .. غارقة في وحدتها الحزينة المخيمة على روحها .

التقيت مرياما لآخر مرة ذات مساء من رحيلي في وقت متأخر حينها كان القمر يرتفع تدريجيا باهتا متخفيا على سهل متزرق ,, و مرياما دائما ترقص عارية ببشرتها السوداء و و حدها على تلة من الرمل .

أسرة جزائرية

أسرة بدوية

لالا اليزابيت و حكايتها مع الوزغات

==========

قبالة الجدران المتداعية و التي تحمرت من جراء تقادم الزمن عليها . حيث تآكلت قممها صارت تتمظهر مثل الأسنان في غرابة ,و الرياح من جهتها رسبت تدريجيا الرمال على سفوح الجدران و تحتها حيث تستمر الرطوبة ... لذلك القصوريين غرسوا أشجار النخيل بجريده القوي و بنبع أرضها و أيضا يبدو هذا النخيل منحنيا و مقوسا. .

إنه بداية فصل الخريف و بعض الأعشاب هي الأخرى بدأت تتدافع أسفل أشجار النخيل و تحت ظلال الجدران القديمة و جو تغمره قليلا روائح الملح مع استمرارية حرارة الشمس و مرور نسائم عليلة ...و هذا المكان من واد أونيف هجره الفلاحون فهو عديم الحركة يطبعه ذوق السكون و مثل عدم الوجود المرجو .ولا أدري هل نمت بعض اللحظات أو بعض الساعات على هذا الرمل ...إن أدنى حركة مزعجة تناغم مشاعري الرهيفة و العابرة

وبالقرب مني صغيري :كلبي الأسود و هو في الحقيقة أجنبي تربى في ثكنة عسكرية يتقاسم معي وحدتي ..و في جلوسه يتمظهر في وضعية اليقظ في مراقبته لأي حركة مريبة من هنا و هناك و لحراستي ...الشمس في دورانها تنزاح و تميل على حافة الجدار حيث مياه الأمطار حفرت بعض الأخاديد الصغيرة ذات اللون الأسود .و لذلك في الطوب المهيأ جاءت بعض الوزغات ...انهم قبالتي ومنذ مدة يأسرون إنتباهي .ومثلهم الكثير من الصغار النحيفين مثل الإبر و ذوي الألوان الرمادية ...يلعبون و يتلاحقون بسرعة و أجاسمهم لينة و أيضا سارعين في تجوالهم و دورانهم بظلالهم الخفيفة على واجهة الجدار.

. ووزغات أخرى كبيرة زرقاء اللون تزحف و تتنفس و ينتفخ بطنها الخشن و أجمل ازهرارها هو الوانها النادرة مثل الأزهار الطويلة السامة و يوجد ما أكبر منها ذو اللون الأخضر الزمردي المحض ....جسمها مغطى بفقاقيع مذهبة تشبه لعيون اليعسوب على رأسها المسطح و مخططة برسومات معقدة و كل ما سلف ذكره من وصف هو لدواعي الحرارة للإستقرار و الكسل.....

و ذيلها رخوي و متدلي و متجمد كذلك و سعيد بسكونه و بدون أن يسقط و على الرغم من ذلك و في بعض الأحيان فمه يفتح مثل المتثائب في إشتهاهاته و يشبه المزدري لأجل الاثارة

الصبيانية لصغار الوزغات الرمادية اللون التي تواصل سباقتها الدائرية مثل المصابة بالدوار ...و فجأة الكلب يلمحهم ...

فينهض و يتقدم منهم ببطء و هدؤ و بدون إحداث أي ضجيج و يمد أنفه المشعر و عيناه المفتونتين و اذناه المنتصبتين و يجلس أمام الجدار و يتطلع بإستغراب للعب الوزغات لكن الشمس تغرق في الأفق مجسمة لظل الكلب المشوه على عائلة الزواحف المسالمة ,,لذلك الوزغات سريعا تضطرب خوفا و تتفرق في كل الإتجاهات بين شقوق الجدران القديمة و في ظلال الجحور حيث تأوي و يبقى الجدار عاريا و مذهبا بأشعة الشمس الأكثر شحوبا للأماسي .

وزغة

COLOMB-BÉCHAR. - Un Coin de la Palmeraie
www.cartes-postales-anciennes.com

لالا اليزابت : و سكرة الموت لمسعودة

==========

في منتصف النهار قافلة مدينة بشار رحلت محملة بالألواح و الخشب ..و مسعودة الناقة الرمادية لمالكها معمر . اولاد جليلي . أنهكها تعب الممشى الطويل و لا تقو على الذهاب بعيدا ..و فبالة النخلة الصغيرة للملياس :ارتعدت قوائمها الطويلتين ..و فجأة نوخت وراحت ترغي ثم إرتمت جانبا .

و من جهته معمر عرف أن ناقته ستموت و أنها تحتضر مودعة لأن حزنا كبيرا عانق قلبه البدوي ...توقفت القافلة تزامنا مع صرخات مضمونها الفاظ نابية حينها رجال القافلة سارعوا الى نو خي بعض الجمال لتوزيع حمولة الناقة التي تحتضر عليهم لقد جردوها من كل حمولتها بما في ذلك البردعة المثلثة الشكل و الأسمال البالية التي تحمي سنامها المتقشر و ما هي إلا لحظات و اذا بمعمر بذراعيه المفتولتين و المتدليتين و رأسه المقوس مثل النسر و في حالة ذعر و بعدها تحسر و أخذ عصاه وواصل سيره يسوق بعيره بنفس كلها حزن و آهة موجعة .

إنقضى النهار مكللا على واد قاتم محفوف بجبلين و عرين و تلال صغيرة جافة و جرداء و عديمة النبات و ذات اللون المدخن الميال الى الإحمرار و إنعكاس حرارة الجو العام على الصخور المسبوغة بزمهرير داكن.

و الحق أن الدموع البطيئة و الثقيلة للناقة المريضة كانت مؤثرة جدا فهي محبطة و محزنة إرتسمت على وجهها المدهش في غرابتها أن كرب موتها قريب من إنسانيتنا ؟إ .... ثم بعد تخبطها و طي قوائمها و كأنها تريد الفرار و بعدها .. عنقها المرن و الطويل يتمدد و تلقي به الى الخلف بحركية التخلي النهائي ...حيث عيناها البلوريتين انطفأت ووبرها شوه ملامحها الجافة ...الناقة المدللة بتسمية مسعودة . و التي تعني جلب السعد . ماتت ؟إ ...و منذ ثلاثة أيام تكون قافلة البعير لمدينة بشار عبر طريق واد ملياس قد مرت ...

منتصف النهار حيث الشمس تقذف بشظايا نيرانها على الصخور السوداء و هيكل الناقة الميتة يؤول الى التفسخ على طول عنقها و على رأسها بقايا الوبر ناعم و ملطخ بدم متخثر و على جنبيها جلد مشدود بشفافيته الحمراء ...ثم الصدف صنعت منها معارك غبراء بين الذئاب و ابن أوى حيث فتحوا بطن مسعودة و مزقوا أحشاءها بشراسة ...و دائما في الشمس حجت اليها جحافل الحشرات و الخنافيس بطنينها و الأكلة لعفن الجيفة ...و المستعجلة في تدميرها .....و

الى أعماق لحمها الهالك هناك أشياء مروعة و مخيفة للموت ..بدليل أن الخيول انتصبت آذانها و راحت تتسمع بعصبية و قلق و إبتعدت فجأة من بقايا مسعودة المهجورة على حافة طريق بشار مثل هيكل قارب تقطعت به السبل .

قافلة

لالا اليزابت في السوق :1902م

==========

سوق بني ونيف في كل صباح:
أمام المكاتب العربية حوالي عشرون قصوري و فجيجي بملابسهم النسيجية بلون الترابي يجلسون جلسة القرفصاء أمام ملابس قديمة معروضة للبيع و برانيس بمنسوجات خشنة و أقمشة العمائم و جلود الفيلالي و سلال البيض و خضار البصل و اللفت و شكاوي جلدية مملؤة بالدهان و قرب القطران و تمور و حزم خيوط الطعمة المسبوغة بالألوان الحمراء و الزرقاء و الخضراء و هذا كل شيء .

و بعيدا و تحت خيم البدو الضيقة و الحافلة بالاسمال البالية و القمل هناك يهود القنادسة يصوغون الذهب و يرتدون القندورات ذات اللون الأخضر أو الأبيض و المتسخة و يتعممون بعمامات سوداء على كامل شعرهم الأحمر و هؤلاء ملامحهم شاحبة و متورمة في بشاعتها تغزوها الشحوم الغير الصحية ...و في جلستهم القرفصائية يعملون في المحلات الصغيرة للحدادة في وسط الدخان و الروائح الكريهة للمعادن المنصهرة و بأصابعهم الناتئة العظام يصممون خواتم ثقيلة و مشابك للنساء أو مرشات صغيرة من الفضة لتنكيه الشاي. ..

يعطى لهم لويس من معدن الذهب أو دورو من معدن الفضية لتذويبه و تحويله الى مجوهرات و أيضا مساومات في شكل القبول و الإيجاب بلا نهاية تملأ فراغ الساعات الضائعة و بداية هذا السوق هو واحد من ضمانات السلم لهذا البلد وواحد من النوادر التي يتنفس فيها الرجل الونيفي للهروب من تراكامات الضيق و الإكتئاب. .

و الجموع السالفة الذكر حولها السبايحية و المخازنية يأتمرون بأوامر الاسبانيين الذين يتسوقون في استعجال و شديدين البأس على رجال الغرب و بإجاباتهم المختصرة و الرؤس المنحنية عن أخرها . و طعم الكسب يبدأ في استقطاب و رغم ذلك إنهم متعودون تدريجيا في السكينة و الأمن غير المألوفين عندهم . سوق البصل . تبعا لسخرية السباحية و أطفال التل و الهضاب العليا في كامل الإزدراء و الكره المتوارث للجزائريين لناس الغرب .

سوق بني وميف

لالا اليزابات و طلائع الحضارة ؟!

في الديكور المرعب لبني ونيف و أماسيه الثقيلة ..هي أماسي جنائزية حيث الغبار الرمادي المتناثر على الأشياء و الأرواح التي تغزوها الكأبة و منطوية على نفسها و مشحونة بالقلق الجاثم على الصدر .

فلا صمت أبدي له اشتهاهاته ,حيث الوجود في مناظر عديمة الطراوة بخطوطه الثابتة تشابكت مع الوان باهتة ...في هذه الأماسي و للبحث عن مظاهر معروفة و محبوبة . لغارا . تتقدم و تنتهي في شكل دائري حاد و متورد ممزقا للطيات الرحبة التي عبارة عن صخور .

و هنا وفي هذا المنعطف كل شيء قد تغير فجأة ..أرض جرداء قاحلة و محمرة , إنه فضاء بلا حدود مع خطوط ناعمة ومبهمة لا تفرض نفسها على العين هاربة الى الضؤ المهجور .. و رتابة متناغمة مع الأشياء ؟ هناك أرض جرداء محمرة ..و فضاء ناري متغير .. فقط الغطاء النباتي الوحيد متمظهرا حول نفسه و الآثار التي لا تعد و لا تحص . للقاعة . للبيدر الفضي ,,, لذلك العساكر اطلقوا عليها إسم القرنبيط لغرابة مظهر الحمادة .

و التي هي عبارة عن حصى صغيرة متراسة في تكتل ودائرية صلبةو مدببة مغروسة في الأرض بجذر واحد صلب وفقط و بعض الخصلات من الحلفة ,,وعبر الشرق الرحب ركام من الغيوم الزرقاء و السلسلة الجبلية و الكثبان الرملية لزوسفانة المبقعة بالأسود و التمور المتناثرة للجنوب ..ولا شيء ما عدا الفضاء الذي يترنح في الفراغ بروعته .

و بعيدا جدا و بالكاد تمظهرات في شكل خطوط يمكن تمييزها لجبل سيدي مومن الذي يخمد اشعاعه الكئيب في السماء,,, و الجنان هو عبارة عن قلعة رمادية جديدة التشييد ووحدها في تموج منخفض الى اليمين قطار مخيم العسكر و حيث أحياء مؤقتة من حشود لخيمات بيضاء في تطور و اطراد و البعض منها يتجدد بإستمرار , عساكر الفيالق يقصدون هذا المخيم في انتظار توزيعهم في المواقع الجنوب الغربي ...إنها حياة قصيرة لرسم عادات مؤقتة لسلكها ثم في اليوم الموالي ينتهي كل شيء بعد كنسه و نسيانه سريعا .

و الأبعد من ذلك و على أرض منخفضة و خصبة الى حد ما بعض العراجين من التمر بجذوع النخيل المتعددة و العالية جدا و النحيفة وهناك قلعة جنان الدار المضيفة على زربيتها بعض الضباط وهو مكان منعش و منسي حيث ساعات الترقب تمر بطيئة أمام شراب الحنين و أيضا

مساحة عارية منثور عليها حصى و بعدها الجدران المنخفضة مشققة و يعمها التفتت و قد كان في القديم حصن و مزال ملجأ للسبايحية و الفيالق العسكرية .

و الى اليمين ركن مخصص لمكتب العرب عندما كان جنان الدار مركز الناحية ...و حوالي اربعة أو خمسة أكواخ صغيرة مبنية من التراب و الألواح في وسط فناء يفتح على الفيافي و في هذا المكان سوف أتمدد داخل خيمة من القماش حيث لحاف لنوم آمن لليالي طائشة و في الموقع نفسه سبايحي و مخزنين يحرسون الطريق و يديرون النظام العام في مدخل القرية وراء الحصن العسكري القديم و صفين من المقصورات الصغيرة مهلهلة ومطعم و محل تجاري و مقهى عربي و جزار و كل ما سلف ذكره يبدأ من الرمل و ينتهي على الفور في الفراغ و هذا كل شيء و أيضا أشياء قليلة بجانب بني ونيف .

تزدهر بنشاط .و مع ذلك قلعة حصن جنان لا تحوز مواصفات عريقة انها مجرد قرية عسكرية و جدت لأغراض حربية و تزول بانتهاء الحرب ثم أنه كل من في جنان الدار بدؤا يستشعرون مثل هذا الإحساس بالعزلة و البعد و الجمود لديكور المكان و أيضا حضور خط السكك الحديدية سيخفي بني ونيف و يحولها الى بسكرة جديدة .

بعض الباعة المتجولين الإسبانيين أو اليهود الهزيلي الأجساد و الذين مصدر عيشهم عساكر العرب أو العساكر الأجنبية ...في داخل أكواخهم مواد قديمة يكونون قد قدموا خدماتهم في أماكن آخر ى و في قرى أخرى . لطلائع الحضارة ؟إ إ . دفع الأكاسير المنسية لشرفات الخاطئة الهدف ؟إ.

رجل اسباني هزيل الجسم كان جالسا أمام باب كوخه الأسود هو شاب أنفه صغير و يده صلبة سوداء اللون ينتظر مستسلما ومتعبا الجنود في أماسي الحارقة و الأماسي العديمة الراحة و المتوحشة ,, كان متواري في جسده الكئيب .
و ما أن يدخل رجل ...المرأة سريعا تغلق الباب ذو المصرعين ومنه المشاجرات تندلع عنيفة و في بعض الأحيان تتحول الى معارك بين الرؤس السيئيين لعساكر الفيالق الكل يصرخ لرغباته بدون خجل و هذه الأشلاء المتمظهرة في أنثى تخطف أعينهم بفتنتها تقريبا و جمالها في محنتهم

و بعد عدة ساعات من المشي البطيء في جنان الدار .. و الجلوس على أحصر المقاهي العربية أعود الى خربة مكتب العرب ..هنا ضؤ شمعة انها البهجة حيث طبخة شكشوكة الفلفل أعددناها : أنا و ثلاثة عرب ثم نتناول القهوة في فناجين من المعدن الأبيض و بعدها رحت أسمع سكون الليل الذي يسقط في الصحراء ,و المخازنية و أطفال السهوب . لجري فيل . , بدائيين جدا

و حالمين جدا وكلهم في صمت و السبايحي الضحاك (تلمسان) يغني في تشكي ووهن تارة و يقص القصص و الأساطير أحيانا أخرى لبلاده .و ببطء شيئا فشيئا إستسلمت الى النوم في سكون الكوخ حيث بابه لا يغلق في فناء بدون حراسة و مفتوح على مصرعيه في الظلمة الليل .

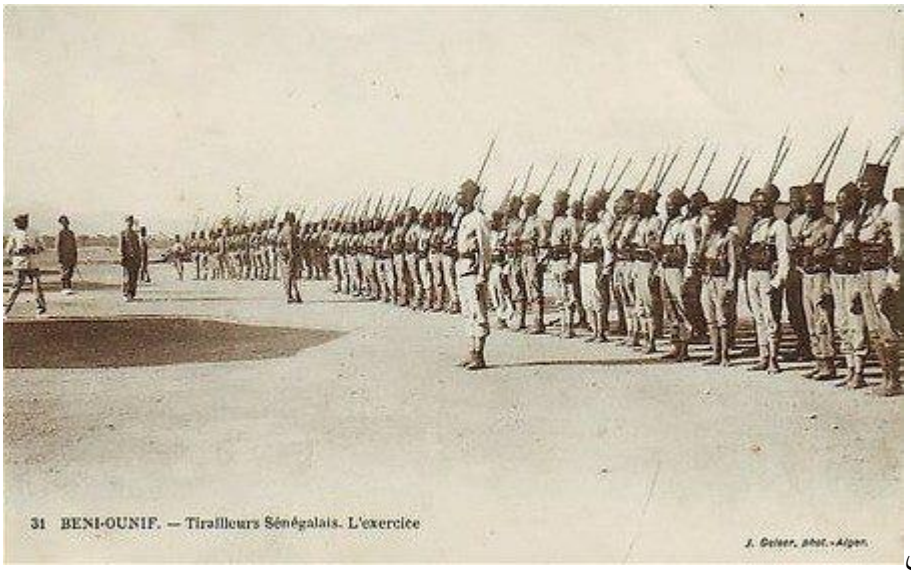

فيلق

مكتب العرب

لالا اليزابت في دوار المخزن

==========

كما في عين الصفراء, كما في واد درمال , كما في كل المواقع لناحية بني ونيف . في دوارهم للمخزن . فإن خيمهم مخططة و مشيدة في العراء و ملامسة للأرض ...حيث تبدو هذه الخيام في كامل سكونها و نائمة في تمظهرها ..و هذا الدوار المتموقع في الجنوب الشرقي للقصر على حافة الحدائق ومع ذلك يحجب أبواب المكائد للقيل و القال والمآسي الدرامية ؟

أن الحب لدائرة عين الصفراء , و حميان لمشرية ,وطرافي لجري فيل , و الكثير من بني مخزني , في مصاهرة ووراءهم سمالة النساء و الاطفال و إحتياجتهم القديمة التي لم تلب منذ شهور ,,,ومنه فرسان من المتطوعين عقدوا العزم على عدم الإلتزام بالتعليمات و التدريبات العسكرية ,,و كما هو متعارف عليه المخازنية هم الجنود المسلمين و المشكلين لبنية الجيش الفرنسي . خونة . و الذين بقوا محافظين على برانيسهم الزرقاء و عاداتهم التقليدية .

و المخازنية أيضا بقوا محافظين على عقيدتهم الاسلامية على عكس بقية المحاربين و السبايسية ..نراهم ينزوون في الفيافي خمس مرات في اليوم لأداء صلواتهم في جدية و في اختلافهم عن كل من حولهم ..و يبدون رائعين بحركاتهم النبيلة في هذه اللحظة عندما يصيرون هم أنفسهم و بشخصيتهم (..؟إ.. و ليس خونة وهذا ما ارادت قوله لالا اليزابت).

ومع ذلك و من خلال التواصل منتظم مع السبايسية أو المحاربين الكثير من المخازنية يحوزون القليل من روح الخفة و الأكثر رماة للفرق العسكرية للأنديجان ...بدون أي وازع أخلاقي ومحررين من بعض الشعائر الأبوية و احتياطي التعبير للبداوة .

و في نهاية المطاف يمكن اعتبار خيمهم في تمددها مثل دور البيوت الاحتمالية ثم في وجود ديمومتها المنبهة و المرهقة في عدم اليقين لما يحمله المستقبل ...دسائس الحب في الدوار مسقط الرأس الذي يخطف نكهته الجميلة حتما و الوازع الأخلاقي في تناقص في دوار المخزن بشكل صارخ متخذا طابع السرية في بلد و ظلام الياللي حيث الحب جنبا الى جنب قرب المقبر ة.وفي كل الأماسي الجميلات بوشمهن و لونهن الميال الى سمرة بفعل عامل أشعة الشمس و النظرة الشرسة يتنقلن في مجموعات و متواريات في خرق نسيجيةمتقزحة و متزرقة الألوان و جميلة بإتجاه فوقارة الواد .. يثرثن و يضحكن بينهن ...و متى مر بالقرب منهن رجل مسلم فقط عدن الى صمتهن و جدهن .

أما الفرسان الذين بلباسهم الأزرق و الأحمر و يقودون خيولهم الصغيرة الى المشرب ويمرون بالقرب منهن و من النوافير بدون أن ينبسوا بكلمة واحدة للبدويات .ومع ذلك يحدث الكثير : من غمز و همس و إشارات ووعود و الرفض و كل هذا يتم تبادله بين البدويين و البدويات بحركات سرية ....

مثلا هذا رجل في جده و حزمه يمرر أصابع يده على كامل لحيته و معناه : هل باستطاعتك حلق لحيتي و ازاحة سمة ذكورتي اذا لم تكوني من نصيبي ؟إ. و تجيبه المرأة: بنظرة و إبتسماة عريضة مع تحريك الرأس يمنة و يسرة للدلالة على الرفض ثم خلسة و بحركة مشبوهة عن رفيقاتها تلمح له بيدها بحركة خفيفة لدلالة على القبول و تأكيد الموعد.وكل ما سلف حدوثه لا يكلف سوى بعض الأقمشة البالية و الملونة يتم شراءها من المزابي أو بعض القطع النقدية البيضاء ....و هذا ليس بالكثير .

و لاحقا الرغبة الحبيسة تتم بين العشيقين . و ربما في الغالب الشغف العربي معذب و مشحون بالغيرة و غالبا ما يأخذ طابع الجنون بسبب اتخاذ أحاسيس الرجال في عدم اللامبالاة الظاهرة و العادية .

و هكذا دواليك و في الوقت ذاته المكان هو مخيم للعسكر شديدي البأس و مؤدبين قليلا ,,و دوار المخزن أيضا هو عبارة عن حي للحب و خطير لأن هنا الرصاص يلعلع ببساطة و بسهولة يتم الايعاز به الى أي جيش ,, البلد ليست به أصداء و المخازنية من الشباب العزاب ينامون مع الهزيع الأول من الليل في فناء مكتب العرب المؤقت .

و الرجال بأنفسهم يحرسون في طوافهم و سباتهم ببرانيسهم في تهور مطلق للجنوب إعتادوا على الدوام إستشعار الخطر المتسلل من ظل الليالي هؤلاء المخازنية المعزولين يطاردون بجرأة كل تحرك في ضواحي الدوار... قد يعرض غالبا أقرانهم المتزوجين الذين يغارون على ازواجهم و يحتقرون قليلا الزوجات المساكين .

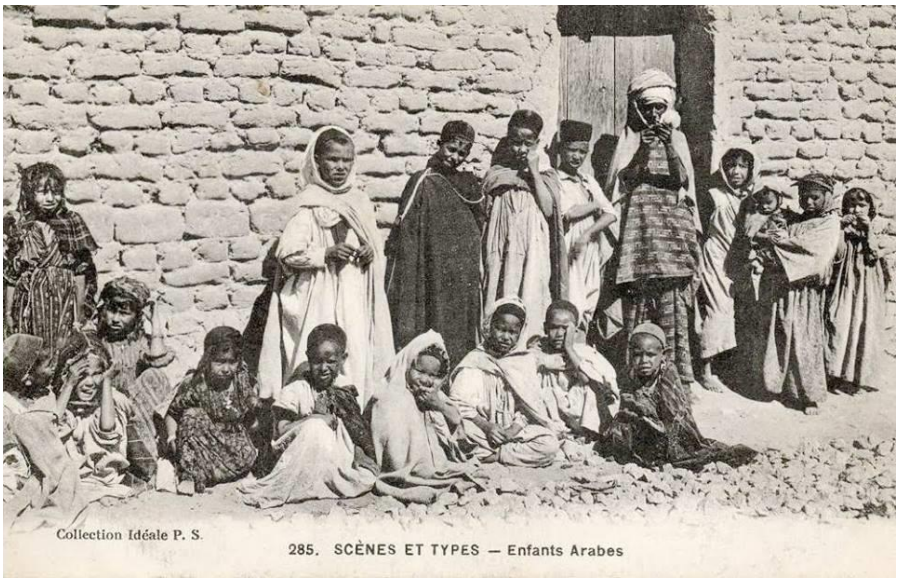

فتاة بدوية تجلب الماء

لالا اليزابات :و تخييم البدو 1902م

==========

تنبيه: لالا اليزابات في هذه الورقة و في حلقات سابقة تكاد تقدم لنا دراسة سوسيولوجية عن ما آل اليه حال الشعب الجزائري أيام الاحتلال الفرنسي ؟ فهذا الأخير نجح في تجفيف منابع الثقافة و الفكر و الفن أمام العقل الجزائري الى الحد الذي قتل فيه الوعي و تحاول لالا اليزابات دائما تذكيرنا بأنه اذا اردت أن تستعبد شعبا و تستغله و تحوله الى حيوان يكفي أنك تقتل فيه الوعي من خلال تجفيف المنابع السالفة الذكر ؟إ.

قافلة كبيرة للإبل يشرف عليها فرسان . القومية خونة . وصلوا ذات يوم من أيام الخريف الشاحبة . و خيموا في في واد بالقرب من بساتين النخيل .. و من بين الخيم بعض الخيم ذات اللون الأبيض لضباط حيث . القواد . في وسط محشود بفوضى الأشياء و صهيل الخيول و نوخ البعير و رغائها .

و ركام الأكياس و الزرابي البالية و الأغطية و القدور المدخنة بفعل نيران الطهي و. قرب . الماء من جلد المعز معلقة بين ثلاثة هراوات . الحمارة . , ووميض صحن معدني جديد في ركام الاسمال البالية للبدويات بألوانها الزاهية و الداكنة : الأزرق و الأحمر و الأرجواني ....و كل هذه التراكمات في تمازجها الفضوي تبدو جميلة .. و كل الرجال في وضعية التعارق و الطواف و تنظيم التخييم .

أما . القومية الخونة . ببرانسهم البيضاء و أحزمتهم المرصوصة بالذخيرة و الصخار . الذين يقومن بالشحن و التفريغ . إنهم رجال الصحراء الحقيقين فهم نحيفي الأجساد و بشرتهم سمراء من لفح الشمس و أقوياء و متوارين في قصمان رثة و ترابية اللون حيث الخصر مشدود بحزام جلدي أو حبل و بأرجلهم نعال بها أثار جراح قديمة و على رؤسهم عمامات من القماش و أحيا نا مسترسل منها ظفائر من الشعر على كامل الوجه ... إنهم رجال بقوا على نهج السلف .. زمن الرسل و الأنبياء بعد فجر الاسلام .

و . باشحمار . قائد فرقة مكونة من ستة عشرة . صخار. الممتطين لخيولهم النحيفة و الراكضة يصرخون بأوامر و خلال ساعات ووصول هؤلاء . القومية . و القافلة غيرا مظهر الواد الرمادي الذي يبدو لخدمة اقامة مؤقتة لشعب دائم الترحال .

انه مشهد عتيق ومؤثر جدا . هذه التدفقات البشرية من الماضي التليد لم تتغير عبر القرون ..وهؤلاء الناس القادمين بأزيائهم و حركاتهم الماضوية .. جاؤا الى هنا لبضعة أيام و بعدها صباحا يرحلون من جديد بعيدا.. بأمتعتهم التي توحي بالفقر و مع ذلك فهي جميلة في عالم البدو .

يوم شتائي طلع على الحمادة ذات الحصى الأسود في أفق يعلو كثبان الرمل لزوسفانة و بريق كبريتي ينعكس شحوبه على الغيوم الرمادية و الجبال و التلال المضببة تتمظهران في ظلال غامضة و بلون محايد في سماء معتمة ..و أشجار النخيل المرتعدة و المغبرة قممها و غلاتها من التمور . و المنازل الطوبية القديمة قائمة وسط الخرائب و المصفرة اللون و في طور نشوئها مثل المتسخ و المقزز للواد و ماوراء هذه المنازل مقبرة كبيرة و معزولة .

حيث الصحراء جردتها من ثوب أنوارها ووشحتها بوشاح حزين غطى كامل أرجائها ..في المخيم وحول الخيول المجللة بأسمال الحرير البالية و حول البعير . قومية . و . الخصور . مستيقضين و همس يتصاعد من أكثر من برنوس تغمره الرطوبة حيث كلهم مستلقين على أرض صلبة . و بعد الاستيقاظ المصاحب لتقلب المزاج و تدافع الجمال و رغيها و في سكون و دون حماسة البدو يسارعون الى إشعال النار في الرطوبة الباردة و الجريد ينبعث منه الدخان دون توهج .

الرياح الباردة إجتاحت المخيم فجأة مثيرة لتصاعد العجاج و الدخان محدثا تصفيقا لقماش خيمة قائد . القومية . منمق بعلم ثلاثي الألوان ..و ظل الضابط الفرنسي يمر مسالما و حزن في عينيه و يداه في جيبي سرواله من القماش الأزرق يدخن غليون و يفتش في شرود الرجال و الحيوانات . و هو أيضا يشعر البثقل و الإنزعاج بدأ هذا الصباح و بعد أشهر و أشهر لهذه الحرفة . قائد للجمالة . مثلما قال : دائما على الطريق ..دائما دائما وحيد و عزائي الوحيد هو هذا الغليون الحزين حيث استهلك دخانه الخفيف في ساعات الرتابة للحياة .

يعدون البدو القهوة في أوانيهم الصفائحية ثم تحت عواء الريح الذي يصعد بطيئا و يقوى كأنه يهز الأرض و يزيد برانيس البدو ثقلا وهم منشغلون برعاية أعمدة الخيم . . و القومية . و . الخصور . يرمون بحزمات الحلفة الى دوابهم ومنهم من ينظف الحصان الرمادي للضابط ..و البعض جالس وسط الدخان المنبعث منه النيران حول النار و البعض الآخر منهمك في سرج الخيول او ارتداء البرنوس و أخرون يتنقلون الى الفيلاج للتسوق من التجار اليهود أو اللقاءات حول شرب الشاي المغربي في قاعات غير مهيئة للمقاهي العربية و أضا هدير الإبل و عض الأكياس .

و هناك حصان تحرر من قيده ثم يركض على نحو غاضب صوب المخيم ,, و رجلان يتعاركان من أجل حزمة حلفة و هذا كل شيء مثل سائر الأيام , من الملل لساعات الطويلة ,, ساعات الانتظار ..منذ فترة نسي البدويون الوحدة في وجودهم التقليدي في الهضاب العليا و لم يعودوا مهتمين بأي شيء باستثناء قطعان الغنم و النزاعات الأبدية لجموع الكواسر الذي يفرغون فيه بعض الطلقات النارية بدون أصداء .

ومنذ فترة أيضا يقطع البديون مسافات طويلة في الصحراء مع الأرتال و القوافل في الأماكن الغير أمنة من الوطن و ابتزاز العصابات الجائعة حيث يتم الإنقضاض عليهم مثل الخراف فهم على الدوام محروسين في الفجاج التي يصعب الوصول اليها في الجبال .

أقبل الآن الشتاء فلا مأوى في ليالي الشتاء المظلمة و الباردة . أمام نيران بلا حرارة مع تخلي هؤلاء الخونة عن عرقهم ؟إ ...لقد تعودوا على هذه الحياة لأن كل شيء يبسط يأتي من الله ,,فهذا التجاور لصدف المحبة و الغذاء و النوم ولدوا بين البدو و لكن هذه الأخوة السريعة مع عساكر المحتل سينكشف أمرها في يوم ما و للوهلة الأولى و التي لا تدوم .

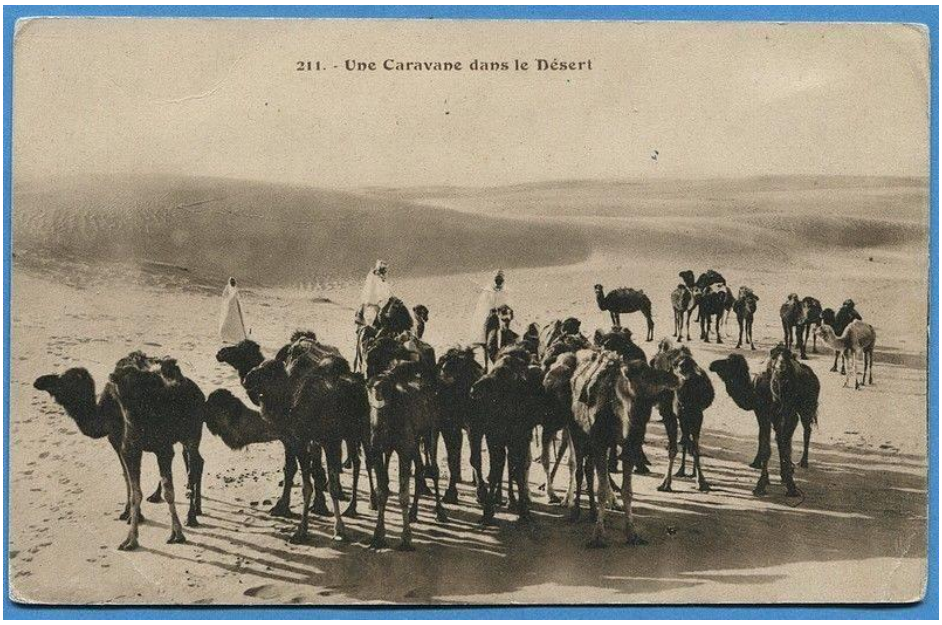

قافلة

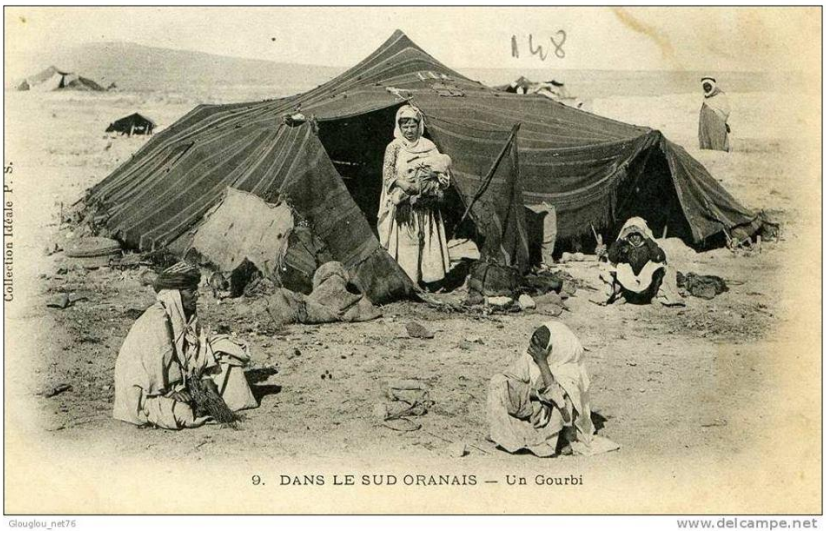

اسرة بدوية

لالا اليزابات و الأغاني الصحراوية 1902م

==========

تنبيه : لقد ضمنت لالا اليزابات ورقتها هذه بأغنية بعد أن ترجمتها الى اللغة الفرنسية و قد اجتهدت في البحث عن كلماتها بلهجتها الجزائرية الأصلية في الجهة الغربية للجنوب الوهراني باستعانة ببعض الأصدقاء و لكن للأسف لا أحد يعرف كلماتها و على ما يبدو إندثرت و لحسن حظها أنها وثقت باللغة الفرنسية ... و حتى يكتب لها الوجود من جديد فقد حاولت ارجاعها الى لهجتها الجزائرية و للتذكير كلمات الأغنية ثرية بالمعاني الهادفة و كان لها وقعها في نفسية لالا اليزابات .. و كلمات الأغنية أيضا تحمل في مقاطعها رسائل للذين تم تغليطهم فانضموا بذلك الى الجيش المحتل لمحاربة سيدي بوعمامة ؟ ...نعم هي رسائل مضمونها أن : من يخون الوطن و شعبه هو آثم و الله يغضب عليه و لا يجد من يقف على قبره ولا من يصلي عليه مثل الجيفة ؟ و كلمات الأغنية ثالثا هي عبارة عن بكائية لها الكثير من الهوامش لتجذير الوعي .

إنه المساء ومنه الحيز الزمني للغناء و التهاليل ... الذي يغلب عليه الطابع الارتجالي الساذج ؟إ ... و فيها ما يثير المشاعر ازاء الحرب و الحب و المنافي و الموت كلها تدار في الرحبة أو الطحطاحة .

. قادتنا للبعيد بعثونا .

. ولأني عاصي .

. ربي عني غاضب .

. هجرت عرشي و خيمتي .

. وللبرنوس لزرق لابس .

. و تزوجت البندقية .

. . قادتنا للبعيد بعثونا.

. و قلبي هو أخبيري ..

. على موت قادم .

. أشكون يحضر موتي ؟ أشكون علي يصلي ؟

. أشكون يتذكرني ؟ أشكون يتصدق على قبري ؟

. آه أشكون يعلم واش مخبيه الغيب ؟

. غزالي لبيض ينساني ؟

. و عودي لغيري راكب ؟

. آه أسكت يا قلبي ؟

. ومتبكيش يا عيني ؟

. لأن الدموع متنفعشي ؟

. ومتلحقكك الا الكاتبة ؟

. و المكتوب على الجبين ميمحوه ليدين ؟

. أهداي يا روحي ياك رحمة ربي واسعة ؟

. واذا خانك الصبر الموت كاينة ؟

من جهتهم المغنيون يصعدون بطبقات أصواتهم بالمقاطع السالفة الذكر الحزينة و المرفوقة بنغمات الجواق المثيرة للواعج الصدر و من حين لآخر يعقبها صياح و صخاب الغايطة ...و بعد غسق مضطرب تحت قوس كل شيء يغمره الظلام للغيوم السوداء و يسدل الليل ستاره الثقيل و تشعل نيران جريد النخيل الجاف و الكثيف بلهيبه الضخم و الزاهي مخترقا الظلام و معها يحترق روث الإبل مشكلا مباخر متوهجة .. تهب عليها نسمة عليلة فيمزق بريقها المترنح للظلال و الأشكال الغامضة و الغريبة

و جموعة الأشباح ؟إ.... خيال حاد و أسود لجمل مشوه .. تقريبا مروعا و ظل حصان أبيض يرتعش جسمه ... و حول زمهرير نار مجموعة رجال من البدو مقنعين بالأبيض وواقفين يلوحون بأجنحة برانسهم و أخرون في جلسة دائرية منشغلون بإعداد الطعام بملامحهم الحادة لرجال الصيد بعض الوجوه تبدو عليها الرزانة و العفة حيث دمها الأسوي الممتزج قليلا محتفظا بالجمال العربي .

وضعيات الراحة و الهجر ... و تجمعات الأجسام المتموجة في نومها ... ثم فجأة و بدون سبب واضح نتيجة آثارة لحركات رائعة تحت ستائر حادة الإضاءة ... ومنذ وقت طويل و البدو في رهان مع حمى الوصول .

لكن في القمة و على هضبة الحصن الأبواق تشير الى التعليمات لإطفان النيران و تدريجيا اللهيب يخفت و ينطفيء و الليل يتكثف سواده على المخيم و البدويين يلتفون في اسمالهم البالية و يتمددون على الأرض مستسلمين للنوم و متوسدين نعالهم أوبنادقم أو هراواتهم .. و بالقرب من آخر مشعل للنار هناك شاب بضفيرتيه ذات اللون الأسود و النازلتين على طول خديه القويين يحرك الرماد بطرف عصاه و هو مازال يغني تقريبا في سكون .

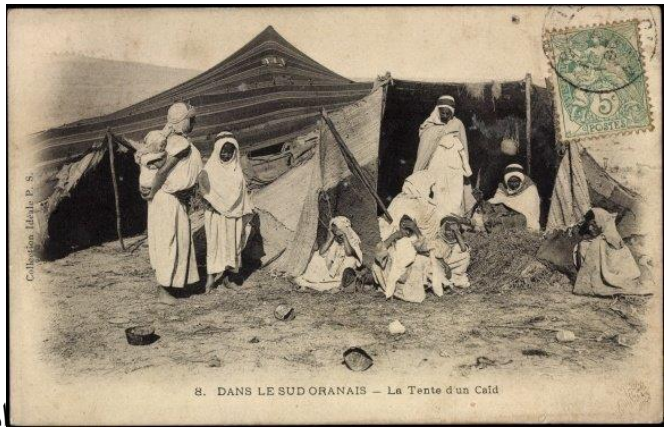

امام خيمة القليد

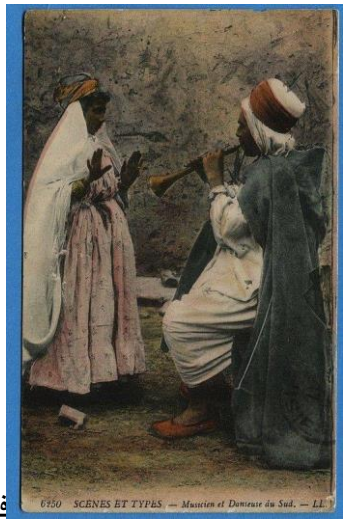

فلكلور جزائري

لالا اليزابات تمهد للقاء سيدي بوعمامة

==========

إبتسامات كلها ود إرتسمت على الوجوه ... و حركات بطيئة و جدية تحت أجنحة البرانيس البيضاء ..و صمت يطبعه التدبر , في ساحات واسعة , حيث الرجال ينسلون بدون ضجيج مثل الأشباح . و همس الصلاة في تمظهرات منتشية . و ثبات الأشياء عبر العصور,

للوهلة الأولى لا يمكن للمرء أن يتبين شيئا في الزوايا الغربية العتيدة إنها الحصن الوحيد في الظروف المضطربة حولها بين الخرائب في عالم مغمور ...ورغم ذلك وراء واجها تها , عدم الإكتراث المتشامخ في هذا الإغتراب لأشياء القرن ...و هناك شيء آخر يتمثل في مكائد غامضة التي في المغرب و غالبا ما تنتهي بحمامات من الدماء نتيجة لأحقاد قديمة و الإنحياز المطلق للخيانات و مشاعر العنف الرهيب الكامن في القلوب المخمور بالحروب و المجازر ؟!

و لكن للتمييز في خضم هذه المخفيات ..يجب عليك التقرب من الزوايا للعيش بها و إكتساب بعض الثقة لأن مظاهرها الخارجية كلها بيضاء و ساكنة ... ففي الزاوية القديمة لسيدي بوعمامة و في الحمام الفوقاني بعد يوم قائض و عبور رياح عاصفة في مساء رتيب و هادئى مع ضيق خاص و في صمت ...تغيب الشمس بدون تقزحها الشفاف المعتاد ....و بدون إشتهاء زمهرير صارخ يمر بدون أن يتحمر في الأفق الى لون أخضر كبريتي على قمته حيث تخفق بعض الغيوم المتوردة .

متموجا ومحترقا بنار كئيبة كأنها مبخرة كبيرة مغطاة برماد لم ينطفء .. و يمينا و أدناها ..و في وسط الواد صخري قاحل تظهر قبة سيدي عبد القادر محمد الولي الصالح لفجيج بقبته البيضاء تحوز الوان نحاسية ذات لمعان معدني منصهرا على جدرانها.

قبالة القصور و تحت الألسنة الملتهبة للجبال هناك خط أسود بالكاد يمكن تمييزه انه نخيل العرجاء و بالقرب منها جدا الدار البيضاء :ثكنة المخزني الشرفي التي تلمع و حدها في سهل يتلاشى بالفعل ...و من اليسار و غرب الجدران السميكة لقروز المخيم عليها الظلال المائلة لجبل مليلس على نار هناك ديكور رحب حيث تتلاعب الأضواء و الليل يسدل ستاره و آذان المغرب ينبعث بصوت بطيء و المآذن البيضاء العالية للماعيز وواد غهيغ و سريعا ظلال زرقاء

تخرج من أخاديد الأرض باتجاه القمم التي تنطفئ تدريجيا و تغرق في شفافية بحرية و حتى نتجنب خلسة جدران لوادغهيغ ...

وبعدها يظهر الغير المتوقع و المقلق إنهم رجال هزيلي البنية يلبسون خرقا لم يكشفوا عن أسمائهم كانوا مدججين ببنادق ذات ماسورة و يدفعون أمامهم ببعض الأغنام الهزيلة و بالقرب مني واحد من خدام الزاوية بحزمه وودية نظره .

إن بستان النخيل المجاور يتوارى في ظل سريع متزرق و تقريبا أسود بالفعل و تقريبا على عراجين التمر المغبرة ..ومنه فقط بعض نبراس المذهب مازال يسبح ..و ما وراء الجدران المنخفضة للفناء ...انه السهل الكبير الممتد وراء فجيج الى غاية جبل قروز المترمل و قليلا

قاعة جدارها عاري و أرضيتها مغطاة بسجاد نسيجه سميك .. مع وسائد طويلة من الحرير ذو اللون الأصفر و الأخضر و مزركشة بالورود المذهب كانت موضوعة بشكل فوضوي و شماعة من البرونز بها شمعة واحدة تضيء القاعة و على السجاد ضؤ متميز يتدفق في تموج أرجواني و أخضر تنزلق منه ومضات بنفسجية تبعا للتلوين الخالص و النسيج الدافء

و في ركن من أركان القاعة وميض ضؤ بنفسجي يشتعل في جناح محدب لبراد شاي مغربي من معدن النحاس المزخرف بأشكال لرسومات على حامل لثلاثي القوائم على الأرض و سينية تلمع مثل نور القمر الشاحب و مياه معدنية تتقاطر من جرة من الكريستال الأبيض و بجانبها أكواب شاي مرصعة و ملونة ...و سي محمد بن لمنور ابن عم و شقيق سيدي بوعمامة المدير الحالي للزاوية متمدد على السجاد ببنية جسده القوية و في حالة إرتخاء مقنع ببرنوس رمادي و حائك صوفي ناعم يؤطر وجهه الأسمر البشرة و النحيف ذو الملمح القصوري بلحية سوداء حيث ثلاثة اطفال ذوي البشرة البيضاء بدؤا يختلطون.. .

قناع الذكاء و الدهاء الماكرين في النظر المتبادل و تقريبا ودودا حيث فجأة ابتسامة يطبعها جفاف و صلابة غالبا ما تكون ساخرة ..أ مع حركة كثيرة و حيوية دون نطاق خطير ومع فرض الإحترام لبقية المرابطين الجنوب ... سي أحمد يحب المزاح و الضحك عندما يكون مع الأروبيين و أنه يحب تقليد لهجتهم و الاستهزاء بها و يظهر مشاعره الإيجابية إتجاه الفرنسيين و يعلن خدمتهم .

و في هذا الحيز الزمني عنده ...بدا منشغلا كلمني مطولا عن النخيل لملياس و كلمني أيضا عن ناس الفوقاني بدون أن أطلب منه ذلك و كان مصرا بأنه لا يوجد هناك عادي بل الذي يرد

من السهل في المواضيع التي لا يحب التعامل معها ....و كان أمامنا بن الشيخ حارس سيدي سليمان الذي جئت معه بمظهره الهزيل و الذي صراحة زاهد ..هذا الأخير بطاقته الغير عادية للحياة في عينيه المشحونة بالدهاء ..كان يتكلم بحرية أمام الذي سيخلف الرئيس المنفي ...هو أيضا له قيمته و لأنه الخادم المخصص لسيدي بوعمامة في بني ونيف ...

و قال لي أن هناك من المؤمنين من ذهبوا هذا الصباح لتبرك ببركات الولي الصالح في زاويته البدوية و التي تقع حاليا في سفح جبل تالج ..مسافة خمسة أو ستة أيام مشي شمال غرب فجيج بتنهيدة عميقة ...ومن جهته بن الشيخ تأسف عن القدر الذي ينتظره و هو التواق لرؤية سيده ثم أردف قائلا : للمرة المئة ربما منذ عرفته يقولها لي بابتسامته الساحرة .

. سي محمود يجب عليك الذهاب لرؤية سيدي بوعمامة برفقتي و تحت حماية سي أحمد و لا تخش شيئا أ ذهب الى زاويته مثل ما تزور هذه الزاوية تماما و بخصوص سيدي بوعمامة فسوف يستقبلك بذراعين مفتوحتين مثل إبنه الحقيقي عليك أن تفعل ما أقوله لك... سي محمود و بعد عودتك بإمكانك التصريح للفرنسيين :أنك زرت بوعمامة و لم يؤذيك ..و أنه استقبلك أحسن الاستقبال مثلما يستقبل كل المسلمين الجزائريين و أن لا عداء بينه و بين الفرنسيين ,,و أن ما بينه و بينهم مجرد سؤ فهم . حينها كنت أستمع اليه و أجيبه إجابة المتهرب .

ان شاء الله سأزوره في يوم ما .
بعدها نغرق في صمت و سي أحمد يبتسم و إبن الشيخ بدا غارقا في أسفه من تعصب الخادم ؟إ و الضؤ يترنح و يطوف بظلال كبيرة لتتشوه على الجدار الأبيض ..و أنظر في مظهر هذين الرجلين المهذبين و الجذابين أنهما يخفيان مهاوي ,و هذان الرجلان ذوي الأرواح المغلقة و ارادة عنيدة مشدودة الى هدف واحد :و هو خدمة سيدي بوعمامة ؟إ و أفضل كذلك أن اصير مثلهما جاد و ملتزم للصمت و أكثر انسجاما مع المكان و الزمان .

كان الباب مفتوحا على الرواق واسع مغطى و المحيط بالطابق الأول و قبالته عرصة مربعة الشكل ثقيلة من الطوب مفصولة عن الظلام و تحت الوهج المحمر للشمعة ...و شكل جلسة قرفصائية على الأرض بمظهرها الأبيض و حتى هذه الكتلة الثابتة بأجنحة ثقيلة لا نميزفيها بين الخدام السود ..ففي الفناء نتكلم بصوت خافت و أرجل حافية تمر مع مسحة خفيفة و اضطهاد كبير مثقلة به و واحات ساكنة فوق هذا المنزل .

يسري الوقت في جنح الظلام بلا نضارة . و سي أحمد ينسحب الى غرفه و ينسى بجانبي مسدسه المخفي في غمده المخملي متعمدا في صدفته ..و بن الشيخ يلتف في برنوسه القديم و تسمعت من باب بقي مفتوحا أشياء غامضة و رؤى و مقابلات هنا تخفق في خاطري و بعدها يصير ما سلف ذكره اكثر وضوحا :هؤلاء الرعاة المددجين بالسلاح و الذين جاؤا خلسة بعد أن أسدل الليل ستاره فمن يكونوا ؟...و على الرغم من ذلك ليس هناك ما يدعو الى الخشية و يمكننا أن ننام في أمن تام ... و مع ذلك أيضا النوم جفاني ؟إ.

ان الجو حار هنا ,و روائح حمى تسبح في الجو.. أنهض و بدون ضجيج أنزل الى فناء يغمره الظلام .. رجال نيام ...وجدت بابا مفتوحا جزئيا ؟إ هنا في البريق النجوم الغير مؤكد رعاة ملياس نيام و تحت رؤسهم بنادقهم و الخراطيش مشدودة الى بطونهم الخاوية و على مدى قشبياتهم الرثة و هم في استرخاء بوجوههم النحيفة و المطبوعة بالمعاناة و القساوة و خدودهم جوفاء و عيونهم غائرة و مغلقة من التعب.

و في ركم كتلة بيضاء منتفخة و تتموج أحيانا أنها أغنامهم ..بعدها أدخل و أنام في الأعلى تحت سطح الرواق و بعد هنيهة الخادمان النائمان في الأسفل يتحدثان بصوت منخفض .
. هل بني اغيل يغادرون غدا ؟
. سيدي قال سيغادرون وقت الفجر وواصلا كلامهما باللهجة البربرية و لم افهم بوضوح ما يقولان و ما فهمته أنها كانا يتكلمان عن باشا اودغهيغ و سيدي بوعمامة و ما فهمته من هؤلاء الرعاة هم فعلا من بني اغيل أنشقوا عن بقايا جيش أنحل بسبب الموت أو الجوع و جاؤا على ما أظن من بعيد مع ما اقتنوه من اغنام و الله أعلم بحالهم ..و جاؤا الى هنا يحملون أخبارا عن الغرب ربما من جبل تالج و من أجل التموين ...لكن النعاس داهمني بسكونه و عذوبته في هذه الساعة الأكثر انتعاشا .

جيش بوعمامة

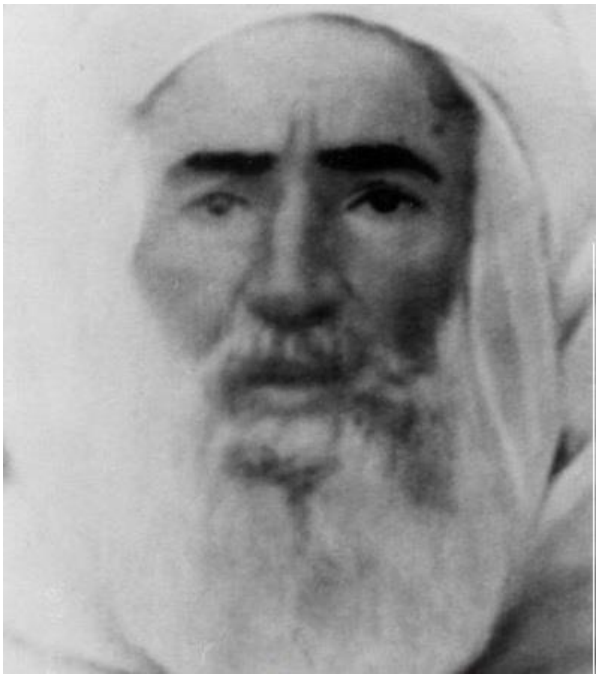

بوعمامة

لالا اليزابات : تتجول في بني ونيف 1902

زقاق مظلم يؤدي الى مفترق طرق مفتوح على السماء , حيث يسبح بريق مذهب , على طول الجدران الشاحبة المنظر . و جماعة الماعيز .. و منه بعض المحلات الضيقة و حيث ندخل من أبواب تشبه أفواه السوامع , و هنا أجيال من القصوريين بشحوبهم منهمكين في أعمال و قائمة من النشاط التجاري الممل في لف الصوف الأبيض و البعض جباههم مائلة بعيون كبيرة و سوداء على مجلدات عربية إنهم الكتبة رجال الشرع أو الكتاب العموميون .

و أخرون يداعبون بأصابعهم الرشيقة جلد الفيلالي الأحمر و يسحبون الحرير بألوانه الزاهية و يخففون من لمعان الجلد بالتكبيب الأبيض الشاحب و ذاك الأصفر المذهب بتعويضة بالون الأخضر المتقد أو البنفسجي اللامع . و كل كدهم يشبه اللعبة الى الحد الذي تصير فيه حركاتهم سريعة و سهلة و مقتصرة على المعصمين بجسد ثابت و ساقين متقاطعتين .و أحيانا معلقا بمسمار و جبيرة . حقيبة سرج الحصان . مرتدية لبقعة الابتهاج مضيئة على جدار عاري ـ

تحت رواق قديم جدا بعرصتيه السميكتين المربعة الشكل , مسن كان جالسا على حصير و في كامل سكينته و مبتسما .... العجوز البربري كان يرتدي لباسا أبيضا و كل يوم عند الفجر يأتي ليجلس في هذا المكان ساعات طويلة و أمامه جرار مملؤة بالماء و في كل واحدة منهم يسبح قمعه من النحاس و مثقوب من الاسفل و الذي يمتلئ ببطء .

فيما مضى القصوريين العباقرة حسبوا الزمن الري الذي يجب تخصيصه لكل جزء من أجزاء النخيل و أخترعوا هذا النظام الغريب للمعق . المحقن . الذي كل جزء منه يناظره الجزء الممنوح أي القدر من الوقت للمعق حتى يمتلئ و لإستقبال الماء الضروري لتجنب النزاع المستمر و غالبا ما يكون داميا و لهذا الجماعة عينت مسنا هاديء و عاقل و الذي يقضي بقية عمره في مراقبة هذا العتاد العتيد الذي عفا عنه الزمن .

و قبالة المسن جدار من الطوب عليه رسومات زخرفية و على سفح هذا الجدار مقاعد ترابية و أفراد الجماعة ياتون لمناقشة قضايا القصر و هنا يقررون السلم و الحرب و هنا أيضا في بعض الأحيان يصدرون الأحكام بالإعدام و منذ سنوات و سنوات و شيخ الماء يحضر صامتا هذه

المناقشات الصاخبة و ينظر مبتسما و غير متأكد من الجرار و على الجدار المقابل فوق رؤس ما زالت تزخر بالشباب و كلها نشاط و حيوية في رقصات لمعان الشمس.

الفيالق

وذات يوم لوداعي و على رصيف محطة القطار مرفوقة بنظرات الفيالق المشحونة بالحزن في جيئتهم و ذهابهم أمامنا و اذا بضابط مسن يخاطبني قائلا :

– مجموعة من ذوي السوابق القضائية فروا من الزنزانات من خارج الحصن ... و ما أعرفه ...هكذا نحاكم عموما الفيلق حقا لدينا هنا الكثير من المحطمين و المبوذين من الحياة و صحيح أن الفيالق يشربون و معداتهم خاوية و في حالة سكر و لكن اللعنة ليس هذا فقط و الرجال ليسوا دائما خطائين ... اه و الى جانب كل هذا إننا نعرف حياتهم القاسية في كل يوم في مدينة أمام الحاجة الى كل شيء و حيث نموت و لا شيء مشجع أو مرغب و هذا كل شيء ..سنصعد من بني زيرق حيث نبني و نحمي المواقع ... و حيث منذ شهور لم نرتاح ولا يوما واحدا و قد تركنا مجموعة كبيرة من العساكر و هذا كله على حساب راحتنا ومع ذلك ها نحن نرسل الفيلق و بعد لحظات سننتقل الى تونكين و هذا كل شيء .

و الضابط المسن رسمت على محياه حركة غامضة حركة ذات طابع عربي التي تعني المكتوب و لا يمسنا الا ما كتبه الله لنا ... و قبل بضعة أيام كنت قد لمحته يدخل فيالقه من الذين تم فصلهم عن بني زيرق و كان ذلك على كثبان رملية منخفضة وراء بني ونيف المهيمنة على طريق الغربي بعد ظهر شتائي صحراوي وكله كسل و شحوب و حزن الأشياء .

في البدء بعض البعير منتشرة و بعض باش حمار السبايسية يجتثون حجر الواد ثم التحقت بهم الفيالق بمحياهم الجاف و و المدبوغ من لفح الشمس و عيون غائرة و ستراتهم البالية و الرثة و بمعداتهم القديمة المنهكة و مغبرة إنهم ضباطه و كلهم على المقاعد لمصافحة اصدقائهم جاؤا للقائهم و أيضا كانت عيونهم مشحونة بالفرح لرؤية ناحية بني ونيف وحينها كان مثلهم كمثل الذي يدخل عاصمة الأحلام بعد شهور قضوها في المنافي .

كانوا جميلين بأسمالهم المحزنة في مطلع النهار الساكن ثم الفيالق صارت شرسة في الحمادة الكئيبة و التي تقريبا يشبهونها و تحديدا العساكر في موكب استعراضهم للنط في ترواحهم دون جدوى على رصيف المدن الصديقة و في التهديد و التألق و كابة الأفاق و على هذه الأرض المهللة و القاتلة حيث حياتهم قاسية ومع ذلك العساكر يلتقطون نظرة اخرى .

بني ونيف

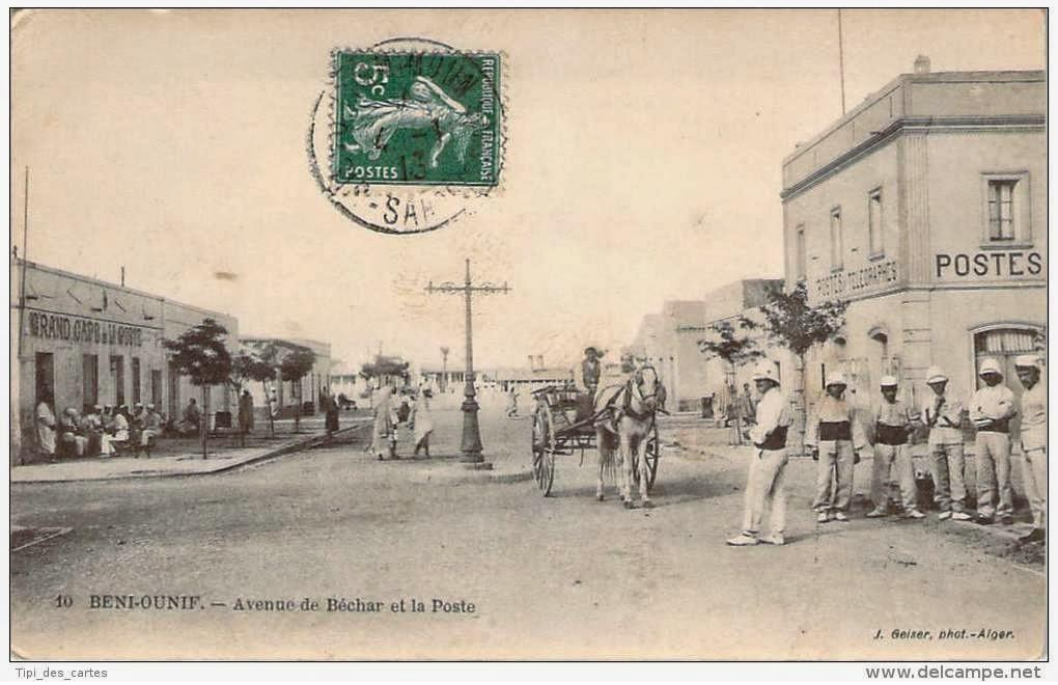

قافلة

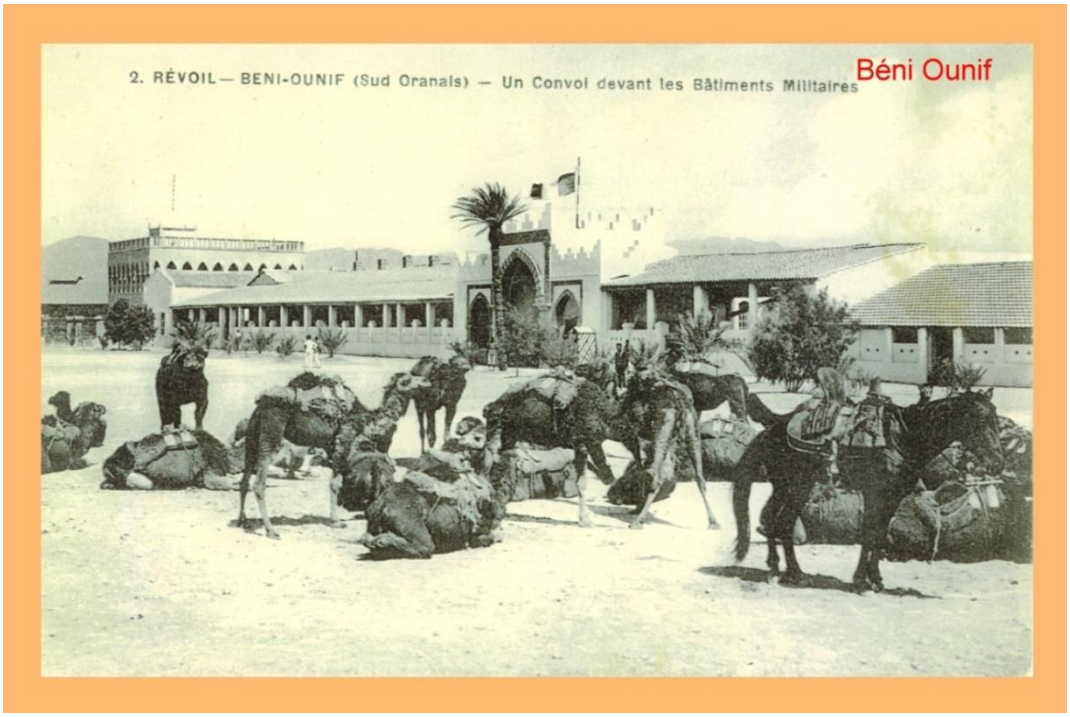

لالا اليزابات :مساء رمضاني سنة 1902م في بني ونيف

==========

إنه اليوم الأول من صيام المسلمين , هو يوم طويل و شاق . و الى الحد الذي يبدو فيه بدون نهاية ؟ . ففيه يمتنع الصائع عن تناول أي شيء ,, و لو لسيجارة و الرجال من جهتهم ملتفون في برانسهم بين التمدد و التقلص .. في فوضى عاداتهم و آخرون ملقون عند سفوح الجدران في تمظهرات كلها شراسة و تذمر ونزاعات و إندلاع لمشاجرات تحوزها ساعات من العصبية المرهقة و آخيرا النهار يأخذ في تناقصه .

و بعدها تتشكل جموع الصائمين في شوارع الفيلاج لإنتظار لحظة الفرحة بتلهف حيث تلتفت الأنظار بإتجاه الغرب و ونحو الوديان الصخرية و الجبال المتعرجة للمغرب و حيث أيضا غروب الشمس و هي تغطس تدريجيا في عالم الأبخرة النحاسية .

ان ناس الجنوب رائعون ببذلاتهم الملفتة للإنتباه و وقوفهم في ضباب محمر كانه يتصاعد من أرض حمراء و إمتداد ظلالهم المتفاوت في الغبار المتلاطم ببطء , و من الخارج يبقى الإنتظار دائما سيد الموقف .. حول نار مشتعلة بين البعير في مخيمات البدو : . ضوي مانيا و أولاد جرير و واد أغير ...و البارحة أيضا منشقون و لصوص يكونون قد تمظهروا في هيئات الجمالة السلميين جاؤا من أجل ا لتموين من الأسواق بعد مجاعة الشهور الأخيرة .

ومن حولهم أخرون من البدو يروون قصصا و هم في قمة الضحك إزاء المعاصي الماضية لرجال من . ضوي مانيا . ومضمون الحكاية : أنه أثناء عودتهم من الحرب في أيام الصيام و قد عانوا الأمر من الجوع لأن الأيام التي قضوها في المشي كانت طويلة في الصحراء وكانوا أيضا مقبوضي القلوب لأنه بقيت لهم خمسة أيام من المشي للوصول الى مقصدهم و في طريقهم إلتقوا بأعرابي وحيدا في سيره و عصاه على كتفيه ثم طلبوا منه أن يعرفهم باسمه فكان رده المسكين إسمي: رمضان ... فالقوا عليه القبض و احتجزوه بعد أن اوضحوا له السبب بقولهم : إذن أنت رمضان الذي في كل سنة ننال منك الإرهاق و الجوع و العطش و اقدموا على قتله المسكين ثم سارعوا الى الإفطار في أوضح النهار ...و ومباشرة بعد دخلوهم الى قبيلتهم .... هناك راحوا يسخرون من الصائمين بقولهم : لم نعد بحاجة الى الصيام لقد التقينا برمضان و تخلصنا منه !؟.

. نعم قال آخر من رجال . الضوي ما نيا . قتلوا رمضان ومع ذلك مازال الناس يصومونه و

يتفقون على عدد ايام صيامه بثلاثين يوم و قد نال جزاءه و على الرغم من كل هذا المزاح ... يبقى اللصوص غير مبالين في ظهورهم و ملفوفين في صمتهم و خرقهم الرائعة .

وفي مقاهي العرب هناك اطفال حيث كل واحد يشد خصره بفوتة تتخذ شكل المئزر و يخدمون الزبائن المسلمين الذين يلفون السجائر . يبرمو الشعرة . و في هذا الحيز الذي يمثل إنتظار اللحظات الأخيرة و المحمومة بالحماس و التي تنعكس آثارها على الوجوه الشاحبة المشدودة الى الضجر سرعان ما ينمحي .. و تعلو الضحكات و يكثر التنكيت و أنا مثلا في مزحهم لي بعبارة منوية لأنني كنت ساذجة لما اقترحت عليهم الافطار ما داموا رؤا ناس . ضوي مانيا . شرعوا في الاكل .

المساء الآن ينطفيء في جنح الليل البنفسجي و الأشياء ترتدي الظلال الزرقاء ... الزرقة الشديدة و المرفقة بالبرودة و بعد ذلك ومن بعيد خرائب القصر و أسفل الواد هناك صوت حزين يعلو انه صوت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب و الشروع في الافطار .

و منه يتنفس الصائمون الصعداء و الجميع بصوت عال يردد عبارة و لله الحمد و الرجال الأتقياء بحركاتهم البطيئة يخرجون لأداء صلاة الشفع بدون تسرع عكس الشباب الذي يرتمي في تناول التبغ و القهوة .. و الأماسي الاولى لشهر رمضان لها نكهتها انه جو غير عادي كله الفة و أخوة يسود المقاهي العربية .

اما أنا من جهتي فانزوي في ركن محاولة العودة بذكرياتي لأشهر رمضان التي قضيتها في الماضي من سنوات عمري في أماكن مختلفة كنت قد طرقتها في هذه الأرض ... بديكورات التي تخفي أحاسيس تونس و الحمى المضطربة للجزائر و المدينة الرائعة بتطرفها لواد سوف و قبابه الصغيرة المنشرة في العرق الناري .

59 -- LES EVÉNEMENTS DU FIGUIG
BENI OUNIF. -- Après l'entrevue. -- La tente où eut lieu la soumission des chefs du Figuig
Vialfaure édit. Alger
Phot. Leroux Alger
Laminedor1
www.delcampe.net
خيمة

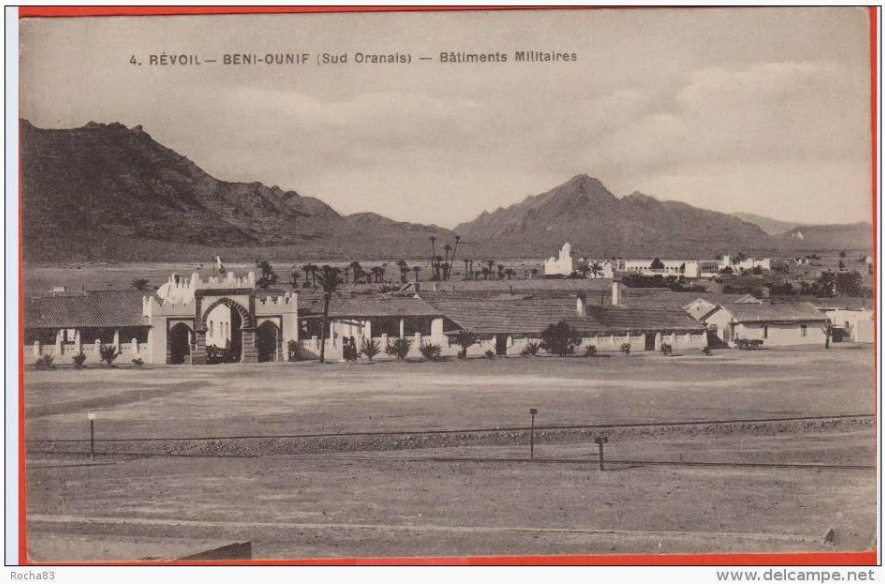
4. RÉVOIL — BENI-OUNIF (Sud Oranais) — Bâtiments Militaires
Rocha83
www.delcampe.net

لالا اليزابت :و الإنجيل الذي تبددت رؤاه في الفيافي ؟

==========

عند الغسق و حيث يتصاعد السكر من كل يوم أحد في جنان الدار , و يفعل الكحول فعلته من نفث للإحزان في شكل غنئيات المنافي عبر بارات و الشوارع الرملية و مع ذلك يوجد هناك ركن هادئ حيث سأنعزل في ساعات لا أكون فيها بحاجة للتجوال بين الجموع السالفة الذكر و الغرق معهم في جهنم.....

سوف أنزوي خلف المقهى العربي الوحيد على مقعد قديم أعرج و الذي هو عبارة عن صفيحة بترول . هنا بعيدا عن أي ضجيج أو شيئا آخر ما عدا واد صغير عاري وتلة رملية منخفضة , و خلفها ضياء غروب الشمس ... من قاعة مدخنة كانت تنبعث منها غنائيات حزينة بطيئة و نغم الغايطة لينتهيا الى صمت الضياع.

أنا هنا في أحسن حال لأتمدد و أحلم في فضفضة لذيذة بغية الإحساس بالوجود , و ذات مرة وجدت عسكري من الفيلق جالسا على مقعدي . و يبدو من ملامحه أنه :من الجنوب الألماني لونه أشقر و بنظراته الحزينة تقريبا و التي تنم عن التفكير و التدبر و التيهان في مسارات الماضي ... و ما هي إلا لحظات حتى شرعنا في المحادثة بجمل قصيرة ... و كنت أجيبه و هو في حالة ذهول كونه يصادف لأول مرة عربي يحدثه بلغته الألمانية و يفهمه و رحت احكي له أي شيء يخطر ببالي .. ثم راح يستذكر ذكرياته البعيدة بطريقة فنية و تلقائية عن ملحمة حياته المهدورة في أنحاء العالم و التي من خلالها أكسبني الكثير من الود.. .

ولد محدثي الألماني في مدينة . دوسلتروف . و درس الحقوق و عند بلوغه السن العشرين من عمره كان بحاجة ماسة الى السفر و المغامرة. فالتحق بالجندية و على أثرها أرسل الى الصين بأمر من المريشال ولدرسي .. و ذات يوم فر في طريق عودته بسبب الجو المقرف للثكنة العسكرية ... و بقي مترددا على الموانئ الصينية و موظفا في قنصلية ثم بحارا ... و أخيرا في الخمس سنوات البعدية التي غادر فيها مدينته ... انتهى به الفشل الذريع في الجزائر ...بدون مصادر مالية فأضطر الى الإلتحاق بالفيلق العسكري للمحتل الفرنسي.

وعاد محدثي الألماني . سإيمان . الى إحياء أسفه عن السنوات التي إنقضت من عمره و حياته التي هدرت في لا شيء و هذه هي الحقيقة ... و لكن لا يهم إنه لا يشعر بالضجر مادام قد زار الكثير من الأوطان و تعرف على الكثير من البشر.....

و سريعا صرنا صديقين و تقريبا في كل المرات عندما أمر بالقرب من حصن جنان الدار يحرص على الإتحاق بي في المقهى العربي الذي يفضله عن الحصن العسكري لجنان الدار بحكم أنه لا يتعاط المشروبات الكحولية ... و ذات مرة حدثني سإيمان بقوله:

. المشكلة هنا أننا لا نجد ما نقرأ .. لا شيء ؟إ... و حتى جريدة لا أثر لها هنا ... نعيش بوحشية مثل الحيوانات ..آه سيكون من الجميل في هذه الساعة لو نجد ما نقرأ مع بعضنا و نحن نتناول فنجان القهوة ..؟إ. ... لدي كتاب لكن أنت لست مسيحيا ؟إ ...و لكن بدون شك أنت لا تريده ؟

حدثته عن العلاقة الوثيقة بين الإسلام و الديانة اليهودية القديمة و و عنفوان الوحدنية بينهما ... ثم بسعادة كانت تغمره هرول نحو حصنه وتحديدا القاعة الطوبية المرعبة و المتهالكة . و عندما عاد كشف عن وقار المتمثل في فولارة قديمة من الكشمير ذات اللون الأصفر أنه المجلد الأسود المغربي لنسخة كتاب الأنجيل و مزخرف بصليب شكله مائل عليه منظر طلوع فجر مذهب وو أيضا منظر طلوع شمس تضيء أفقا مظلما و أسماء المانية و تواريخ قديمة مشحونة بذكريات الماضي مكتوبة بحروف جرمانية جميلة على دفة الكتاب الصفراء و بين صفحاته الرقيقة رسومات أزهار بسيطة الوانها باهتة و أفكار و بصمات خواتم مغبرة التقطت من البراري البعيدة.

ثم خاطبني قائلا :هذا هو الكتاب المقدس الذي سلمه قس مدينتنا الى أمي يوم زفافها و هذا كل ما احتفظت به من مزلنا الغالي هناك...

و في لحظة عصيبة بدا صديقي العسكري بصوته المرتعش ثم فتح الكتاب على صفحة أدعية الأنبياء و قرأها بتمعن في هتاف تقريبا و في الفيافي الشاغرة و الغارقة في شفافية متوردة في مطلع المساء لأفق آخر بموج وهجه الصافي عبر السماء الخضراء و المذهبة اللون و الصوت البطيء للجندي يرتل الأيات بلغته الالمانية التي ترن بغرابة في هذه الساعة و في هذا الديكور الصحراوي

الكتاب ذو اللون الأسود و بتعويذته يحاكي ضباب الشمال حيث قرون المنفى شوهت روعة نوره وتحول تدريجيا الى كتاب الإسرائليات مصمما على أرض مماثلة و أيضا قاحلة للآثار اليهودية القديمة الزاهية . يهودية موسى عليه السلام قبل أن تحرف مثلما حرف الأنجيل .

و في الإشاع الأخير للمساء و على التلة الرملية المنخفضة مرت جيوش و قبائل مقنعة بالأ بيض, و خيالات الأنبياء الحادة و المتوهجة مرفرفة ثم أغلق العسكري كتابة و المساء انطفا في الصحراء البنفسجية اللون حيث تبددت رؤى الإنجيل ؟إ

القنادسة

واحة القنادسة

لالا اليزابت : و رسمها الجميل للواحة سنة 1902م

==== ==========

يفتح واد (فجيج) , تحت الشمس مثل مزهرية كبيرة حينها ... كنت جالسة على حافة شرفة ترابية ,و مذهبة ببرج عال . حيث يبدو هشا و مهلهلا لقدمه و بين الفينة و الأخرى قد تتساقط أتربته.. البرج كانت صورته منعكسة على الماء البركة و على حواف حدائق (اوداغير) , و هي تقع في الأعلى مهمنة على كامل الواد..

حينها كنت وحدي في روعة ميلاد النهار الجديد . و حلمت أثناء مشاهدتي (لفجيج) ملكة الواحة ..التي لم أرها من قبل بهذا الجمال و الروعة ,, ربما مرد ذلك لأنني سأغادرها بعد غد ... بعيدا و عبر الجنوب و على قمم جبال (تاغلة و ميلاس)... الفيافي الحمراء تتصاعد عاليا في السماء , و المطلة على أفق ذو الخيط الداكن مثل البحار العالية و تفرعات الزنقة تفتح على روافد الواد .حيث يلف المد الأسود لأشجار النخيل بين جبل (تاعغلا) النيلي اللون المكثف و جبل (زناقة) المضاء بشكل غير مباشر يعمه التورد.

و يمينا جهة رقبة اليهود قاحلة و صخرية , و بين التلتين العاريتين و رقبة (مجابدين)..حيث يتراقص السراب بعد الظهر للصيف المهيمن للمدخل المعقم و الوديان المتلألئة في ضياء الشمس و غير بعيد و تحت قدماي بستان النخيل لزنقة تلف أكوامه الضخمة و المتموجة و الذي يأتي مزاحما للجرف الرمادي العالي حيث يفصل بين الشرفتين (لفجيج)

و عراجين التمر المكثفة لأشجار النخيل و التي تتلون بلون الأزرق الشاحب و في إنزياحها ينعكس ضؤها الفضي على مظهرها العام و يمينا القصر القديم (للزنقة) و الذي هو عبارة عن منظر مبقع بلون أصفر ميال الى السمرة في شحوبه و على الجبال و في الوديان شمس الصباح تغمرهما بالضياء الأزرق بوضوحه الذي لا نهاية له و على سفح البرج مسن أعمى كان واقفا و ظهره مسندا الى جدار غير مصقول يمد يده للمارة المؤمنين.

العجوز الكفيف كان طويل القامة و وسيم الوجه بعينين غائرتين و جسد ناتئ العظام و مرتديا لخرق بالية ذات اللون الترابي ... ومن بعيد و في طريق مشمس توقفت امرأتين بربريتين حيث الضياء يتراقص في طيات لحافهما الصوفي الثقيل و الساحبين للآتربة ومن فوق الجدار رأس جمل صغير عذب المنظر يتمايل مع هديره الذي كله كأبة و غرابة مكشرا عن اسنانه الصفراء الطويلة ... و شظية من الطوب الجافة إنفصلت عن قمة البرج و سقطت في بركة ماء راكد مشكلة دوائر تتسع و تزول في النهاية على حوافها الرطبة و نزلت باتجاه الزنقة عبر ممر الجرف ... حيث الخيول و هي نازلة في حالة إنزلاق و إرتعاش خوفا من السقوط في الهاوية على نحوما اذا خفضت من خشخشة جدران أشجار النخيل المخفية تدريجيا لإشعاعات الشمس البعيدة....

وأسفل ظلال النخيل المتزرقة سيلان لساقية يطفو عليها زبد و طحالب و للتذكير بساتين القصوريين فاخرة باخضرارها الشاحب و الشمس تصفي عبر جرائد النخيل الجافة التي تحركها الرياح بالكاد و تنثر لألئ مذهبة على الرمل الأحمر و الحصى البيضاء و قريب منها تنفتح ممرات لذيذة تغمرها الظلال المنعشة بين الجدران الطوبية للبساتين.

و أسفل أشجار النخيل المنحنية أيضا و المطوقة لأشجار التين في ميلها لأشعة الشمس و أوراقها المتاثرة بفعل مناخ الخريف بلونها الرمادي حيث تمازجت أوراق الكرمة المتفحمة جنبا الى جنب مع الأزهار المتوهجة بتفتحها على حبات الرمان و الخوخ.

و روعة شبه الظل الموهن للخطوط و الألوان في متاهة الشوارع الشاغرة من الساكنة و في أريحية تامة: أن نسمع سجع هديل الحمام البري ببطء من الأشجار القريبة و أحيانا في منعطف مفاجئ و المتمثل في بركة ذات المياه الزرقاء تشبه المرأة الثابتة حيث تتجلى من أشجار النخيل بجرائدها المائلة و حيث تغزوها الاعشاب الطفيلية.

و في كل مكان نسائم على الدوام و خرير مياه السواقي و تدفق مياه الجدران تختفي فجأة تحت الأرض بخرير شلالاته المنعشة لتظهر على بعد مسافة خطوتين تحت رابط الفقارة الأخضر اللون و الشمس في صعودها البطيء مثل المنتصر للسلام و السعادة للواحة اللذيذة.

ووراء بستان النخيل دخلت الى الظل الأبدي للشوارع المغطاة للزنقة حيث أشكال بيضاء مرت مختلسة و في صمت معانقة للجدران ... و أبواب سميكة بالكاد مفتوحة و ساحات صغيرة غير مهيأة و بأخاديد مناظرها اضواء ذات اللون الازرق ... و في كل هذه الريبة و هذا الصمت نسمع فقط في بعض الأحيان عبر شقوق الجدران المظلمة طنين أصم لطاحونة قديمة ذات ذراع أفريقي و صيحة رتيبة باللهجة البربرية لنساء القصوريات المختفيات....

مررت ببطء و في حالة تدبر حزينة و محصلته أنه من المحتمل و خلال السنوات القليلة القادمة فان الربح الفاسد وولوج عالم الكحول الغبي سيتلوث هذا المكان مثلما تلوثت بسكرة و سيأتي التدمير على هذه الأماكن الساحرة بعذريتها و التي تعني أحد المعالم الصحراوية التي حافظت عليها بغيرة عبر القرون البعيدة إن واحة فجيج تبدو لي مثل الؤلؤة ذات الجمال المثالي.

و على الطريق الترابي و في العراء المتوهج للواد . فجيجيون . على خيولهم جاؤا في مواكبة أحمرة محملة بأكياس القمح و الشعير يدفعها العبيد . الحراطنية . من ذوي البشرة السوداء . ... و البربر ببشرتهم البيضاء و الهادئ الطبع تحت لحافهم الصوفي يتقدمون ببطء و عمامتهم متدلية على اعناقهم و مركوبهم من الدواب في كامل الأريحية ... و نظراتهم الغامضة لعيونهم السوداء و الهائمة بعيدا في رحابة جبال وطنهم ...

حيث ينطفئ الخيال المتورد للصباح ... مروا بالقرب مني و من رفيقي المرتدي للبرنوس الأزرق و ألقوا علينا السلام الذي يعد بمثابة أمر في الاسلام و مؤشر للتضامن و الأخوة بين كل المسلمين من حدود الصين الى المحيط الأطلسي

وأنا أنظر الى هؤلاء الرجال في الواد فهمت بعمق لا نظير له .. و أكثر من أي وقت مضى روح الإسلام و شعرت باهتزازاته في أعماقي و تذوقت حدة مشهد جماله و الأحلام الغامضة ... انها الرقة العميقة لأشياء الحياة و الموت ... و فهمت لماذا الشحاذ الكفيف كان نبيلا و هادئا... كانت يده ممدودة للمارة الذين لا يراهم في ديمومة ظلامه بسبب عمائه لماذا؟إ ... بدلا من النشل كان عليه أن يكدح بعرق جبينه ؟ إ. العرب في سباتهم في الأيام الرتيبة الهادئة ممددين عند ظلال سفوح الجدران القديمة و المهلهلة ولا أحد يريد النهوض على الأرض التي هي حلوة بهم.

قافلة

قافلة

لالا اليزابات : (بالعبرية: בני ישראל بنيْ يسرائيل)

==========

كل ما في(فجيج) كان في سبات و سكون , فلا صراخ ولا ضجيج , في أزقتها المنتعشة بالحفيف المنبعث من أروقتها حيث الخيول توقظ الأصداء المتعدة و البعيدة و(فجيج) أروقة أسقفها من جريد النخيل الداكن اللون, و المنجور هنا و هناك في تقاطعاته على سماء مفتوحة حيث يتصادف مع يوم ضبابي مشابها لآبار العميقة أحيانا .. أو لجدار بلون الرصاص.... و شعاع شمسي مائل في توترات الظلمة في المنعطفات الفجائية للأزقة المنخفضة , و المظلمة ... مندفعة في المجهول و حيث الخيول يستحيل عليها المرور مما يتوجب عليها الإنزلاق بحذر.....

أشباح بيضاء في تقدمها في ريبة .. بدون صخب و أخرى في جلستها القرفصائية على مقاعد ترابية بحجم الجدران في تحجرها مثل التماثيل .. و في متاهة هذه الشوارع (لزناقة) هناك ركن ليلي عميق مختنق بقذورته و مناقض للأحياء الأخرى ذات الإستغراب الواضح ...حيث تطفو الروائح الرطبة من الأتربة وفي بعض الأحيان روائح الجاوي المنبعثة من قباب أولياء الله الصالحين و المساجد أنه (الملاح) الحي المكتض ببني إسرائيل المحتاجين تحت رحمة المسلمين لا صوت ولا كلمة لهم في مجلس الجماعة .. إنهم مثل العبيد الحراطنية ذوي البشرة السوداء و في اضطهاد....

وذات مرة دخلت الى بيت يهودي لحي(ملاح) للزنقة برفقة رفيقي المخزني و يهودي من القنادسة فقد طرقنا منزل اليهودي للإطلاع على مجوهراته ,,,و من الخارج في بستان النخيل المتدلية منها عراجين التمر الزرقاء في الأضواء المتوردة و أشعة الشمس المذهبة تتراقص على سطح الماء الساكن في الأحواض العكرة....

و في الظلام الدامس لحي (الملاح) و اذا بالروائح الكريهة تحبس أنفاسنا و للوصول الى باب المغلف بصفائح البترول و الذي تطلب منا إشعال عود كبريت لتبديد الظلام و أخيرا فتحنا الباب ببطء و حذر... و الباب كان مطلا على فناء غير منتظم الأضلاع و ضيق و عميق شبيه بالغرفة ذات طابقين و التي هي عبارة عن مقصورة واسعة مغطاة و لسيقة بغرف منخفضة...

و في ذاك اليوم الرمادي و المزعج من جراء مياه الغسيل المتساقطة و هناك ... تجمع لأطفال عراة الا من (قنادرهم).. المتسخة حيث تفرقوا هاربين عند مدخلنا و احتشدوا وراء الأعمدة المدسمة من جراء اللمس و ما أفرزه من لمعان ...و دخان خانق كان ينبعث من جريد النخيل الجاف و الزاحف على كل الجدران .. و في كل زوايا المكان كانت هناك قذورات مكدسة و خرق بالية لم تعرف الحراك منذ سنين ..

و نساء يجلسن حول موقد التفتن فجأة نحونا لرؤيتنا كن حينها يرتدين ملاحف واسعة للبدويات لكن من القطن الأبيض المتسخ و مربوطة حول خصرهن بحزام ونصف جباههن مغطاة بعصائب سوداء و فولارات من الحرير الأسود اللون تشد به رؤسهن ومتدليةمنها سلاسل من معدن الفضة باضافة الى الحلقان من معدن الذهب بأذنهن و زيادة على هذا النساء القصوريات المسلمات جميلات بوجوههن المستديرة و عيونهن السوداء الكبيرة و بجفون سميكة ... ووحدها مجوهرتهن اللماعة تعطينهن الحياة و الفرح و لكن كل هذا السحر يختفي وراء قناعهن ... إن هن الأجمل بعيونهن المحمرة من جراء الدموع على وجه الذي كله إشتهاء في عزلة المرارة بركن الاضطهاد .. هكذا لمحتنا المرأة القصورية بنظرتها السوداء

وحينها كانت إمرأة بالقرب منها عجوز في وهنها مثل المحنطة إنها الجدة الكفيفة بلباسها الرث و صوتها العالي تلوي يداها الثقيلتين ... و (حائيم) الصائغي غادر كيره و معداته من أجل استقبالنا والتمس منا قبول عذره على الحالة التي وجدناه فيها في مسكنه بسبب خطب نزل عليه عشية البارحة لأن (إستهيرا) زوجته أثناء ذهابها برفقة أ مها الى بيت أبيها .. بقصر(وادارهير),, إعترض طريقهما رعاة من البدو الذين دفعت بهم الوقاحة الى كشف عن وجه (إستهيريا) .. و اغتصبوها و عند مرور الفرسان المخازنية (للباشا وادارهير).. البدو الرعاة فروا و لهذا السبب المنزل مازال مخيما عليه العار و الأن (إستهيريا) مازالت مكلومة...

و عندما غادرنا (حائيم) لإعداد لنا القهوة ... رفيقي المخزني شرع في الضحك ...

. عندنا و عندما تحدث مثل هذه الأمور الرجل لا يتردد في غسل العار بالقتل لكن عند اليهود فهم يكتفون بالنحيب مثل الفئران في السوق على ذيلها ... ثم لا ننس المرأة اليهودية جميلة و

الرعاة لا يلامون..؟إ و أيضا و لو لم تكن غبية لقاومت الرعاة البدو ... انظري الى هذا اليهودي كم هو قبيح ؟إ

.حائيم).. جثة ضخمة غزاها الشحم الأصفر متوارية في قندوة مبقعة بالزيوت و عاداته اليهودية بدون شك مازال محتفظا بها من العهود الغابرة (لفجيج).. و إزدراء المسلمين لهم ... (حائيم) بمنديله الطويل المبقع باللون الأزرق و عمامته السوداء و المتوارية تحت سترته على شاكلة النساء المسنات ..

ثم عرض علينا (حائيم) مصنوعاته (بزايم) والتي عبار عن قطع من المعدن الفضة والذهب .. هي أشكال لأوارق و نجوم و خواتم سميكة و حلقان الأذن من معدن الذهب و دبابيس ذات أجراس و أحزمة من معدن الفضة

و عند دخول مضيفنا (حائيم) خيم الصمت و الأطفال من تلقائهم كانوا يتحدثون بإحتشام و يمكننا سماعهم و هناك أصوات رتيبة متسربة من الفناء المجاور من معبد إسرائلي كانت تقام به الصلاة و بتراتيل للغة القديمة لإسرائيل ... و هذا المنزل اليهودي و هذا الصوت الغريب و كل ما سلف ذكره أ نتج لدي شعورا لعالم مغلق خاص و قديم و غير قابل للتغيير وسط كل الجمود العلماني (لفجيج) ...(

. بدأ العجاج يتصاعد مشبعا برياح السيروكو مشوها بذلك السماء المتوهجة و أعضاء جماعة الزناقة تجمعوا و جالسوا على مقاعد في مفترق الطرق بإستقامتهم المعهودة وضياء خافت بين جدارين و الجو المختنق للسيروكو وما يحيط بهم من فتور (حائيم) من جهته عند مدخل مفترق الطرق توقف و نزع نعاله و أنحنى الى الأرض و راح يقبل أسفل برانيس . الذفارة . القصورين الغير مبالين به... حائيم) اليهودي جاء الى مجلس الجماعة بغية إنصافه ضد الرعاة الذين إغتصبوا زوجته و كان أمله ضئيلا في إيجاد من ينصفه , و مع ذلك جلس على الأرض و راح يعرض قضيته و عندما إنتهى و اذا بمسن منحني الكتف نظر اليه من تحت حاجبيه السميكتين و اللذين غزاهما الشيب ورسمت عليه لفت غامضة..

. ماذا باستطعتنا فعله ؟ إن الذي اغتصب المرأة هو منا و سنعاقب هذا المذنب ؟ لأن ما اقترفه هذا المذنب هو فعل يدينه الإسلام ... و أنت من جهتك يا (حائيم)كنت مذنبا لأنك تركت إمرأة تتجول وحدها في القصور ... لا يا يهودي لا يمكننا فعل أي شيء ؟

ثم حاول اليهودي (حائيم)..مواصلة ترجياته بإحتشام لكن المسن عبس في وجهه و رد عليه بقسوة : لقد قررنا هيا إنصرف ؟إ ... و بعدها (حائييم) إنصرف متراجعا الى الخلف و هو في و ضعية الركوع ومودعا ... و كان عليه ان يختفي لأن الذي لا يحوز الذراعين القويتين و لا تجيد إستعمال البندقية ما عليه الا الصمت في بلاد البارود.

و عند الفجر الأطفال الاسرائليون.. ذوي البشرة الحمراء و نصف عراة يتجهون الى الحدائق حيث تفتح ظلال الفوقارات الرطبة المغطاة بالزبد الخفيف و ينزلون بحذر و بدون ضجيج عبر السواقي تحت الأرض راكعين في الطين يترقبون لساعات ظهور الأسماك العديمة اللون و العمياء التي تتفرق في الماء المخضر اللون كلما لاح الضياء و الأطفال بأيديهم يحاولون القبض عليها لكن و لمجرد بقبقة الماء الأسماك تفر حيث الظلام الدامس و الى أدنى الأروقة التي يصعب سلكها. و بعد الظهر و حينما يكون الصيد مثمرا و ذو مردود تتعالى أصوات الفرح منبعثة من تحت الأرض إبتهاجا و منتشية به الحدائق تحت عناق أشعة الشمس لها و الأطفال يلوحون بعناقيد السمك و و يجرون و السعادة تغمرهم بين جدران حي(الملاح)المظللة حيث تنظرهم أمهاتهم بوجوههن الشاحبة.

اسرة يهودية جزائرية

لالا اليزابت : سهرة رمضانية سنة 1902م

==========

ليلة باردة و صافية الأديم ... و فيها إكتمل القمر لشهر رمضان . .. و إشعاعات لأضواء شاحبة تنساب على الفلاج و حيث لهيب الفوانيس أمام النوادي العسكرية يحترق بشكل فضوي .... و هنا في ساحة مكتب العرب و بين الأكواخ المتداعية خيول مقيدة و مستسلمة للنعاس و أحيانا فحل من الخيول يتحسس بمنخاريه الواسعتين متحرشا ببقية الأفراس المتواجدة بركن و هي تقظم القش الجاف ....

هناك حفل كبير عند المخازنية لقد تجمعوا في شكل دائري على الرمل و تعدادهم يربو على الخمسين نفر ... و في وسط الحلقة نعل مقلوب ثبتت عليه شمعة بنورها المتمايل ينبعث منها إبتهاجا طفولي ..و إنه من الروعة أن نتمدد على الأرض في ليلة صافية الأديم و الإلتفاف في برنوس . خيتوس . من وبر البعير الأسود لناس الجنوب ... فعلا الأجواء رائعة بصمتها و ثباتها لأننا سنقضي ساعات في استماع لغنائيات البدو ومواويل تعبر عن العزلة و الحب و الموت و النغم العذب للجواق ....

إنفرد إثنان من المخازنية عن الحلقة (لجيريفيل) و أطفال السهوب جلسوا قبالة بعضهم البعض و شرعوا في غناء غنائيتهم الحزينة و التي تنطوي على صرخة عميقة و بإقاع خفيف .. في البدء كانوا يبدون و كأنهم مستسلمين للنعاس حيث عيونهم كانت نصف مغلقة و أصواتهم مثل همس نفخ الرياح ...

. حمامتي الصغيرة واه على حمامتي الصغيرة

. حرقتيني و قتلتيني

. و خليت قلبي أمريض

. من هجرك ما نبرا

. حمامتي الصغيرة آه على حمامتي الصغيرة

. قلبي مات و دفنت في القفار

. و اليوم الي دفنتو ولا واحد كان حاضر

. و لا واحد أضحك علي

. كنت وحدي و برنوسي مغطي راسي و بكيت

. آه يا ربي كم بكيت يا ربي

. حمامتي الصغيرة آه على حمامتي الصغيرة

. . و خليت قلبي أمريض و أقتلتيني

. نتوجع ولا من ايشافيني

. على الي جرحت قلبي

. و مننساها الا اذا هجرتني او دفنوني

. حمامتي الصغيرة آه على حمامتي الصغيرة

. في ليلة موتتيني

. ومع لفجار لقيت روحي مجروح

. ومنك ما نبرا

وبعدها ينبعث صوت من حلقة المخازنية ... صوت أجش و أكثر اتزان انه لصديقي عبد القادر بن شهرة

. علي إبكي يا رفيقي و أبكي على نفيي

. كي هجرت الدوار مباركة خرجت

. عمرت راسها بالتراب وعلي حزنت

. ياك كل واحد مصيره معلوم و انا غادرت

. و للجنوب صوبت

. بكيت ربعين يوم و بكيت ربعين ليلة

. حتى أرجع قلبي فاحم

. وصار قاسي مثل الحجرة

. أمام جميلة الجميلات إلي على الأرض

. يا قلبي متبكيش

. آه لما ايموت القلب

. ولا من يحييه

. الا نظرة الغزال

. الي تشبه الغيث في الصحراء

. و يدرا انشوفك يا مباركة ولا انموت

تعددت الأصوات متصاعدة الى عنان السماء في ليلة هادئة تتقطر منها الأحزان و البدو الأميين حرفوا المعنى الحقيقي لشعار . بلاد البارود . بعشوائية أغانيهم التي ليست في محلها ؟إ ... أغلقت عيناي في مهب الرياح الباردة المنبعثة آناء منتصف الليل .. و إنه من المستحسن أن أنام هكذا في أي مكان تحت أضواء النجوم و في إعتباري أنني سوف أغادر بعد غد و لن أعود أبدا و دوام الحال من المحال و مهما غنى البدو و مهما إنبعثت الأنغام الحزينة من الجواق فكل شيء مآله الى التبخر و لا طائل من ورائه ولا بد من التفكير ....

سهرة بدوية

سوق المواشي

لالا اليزابيت : وصول الكولون و استغلال الأهالي الجزائريين ؟؟إ

==========

أقام (جيلس بيارارد ا) الإبن الأصغر للمالك (لجراسيان) في المدينة مفضلا العمل في حديقة و منتصرا لأفكاره التحريرية ... و هو الذي يريد إضافة للأرض الجديدة التي ورثها عن والده و كانت تخطر ببال (بيرارد) فكرة جمع الفرنسيين الذين في الجزائر .. و هي الفكرة التي أغوته و مثل هذه التجمعات تتحول الى طاقة قوية ذات فائدة على أرض عذراء و سيكون لجمع طاقتهم و تضامنهم مردودا و بعيدا عن أي روتين للحياة الحضرية ....

و بالتأكيد ستكون هناك الكثير من الصعوبات مثل المناخ القاتل في بعض الأحيان و الجهل بمكوينات الأرض و الجفاف و رياح السيروكو , و الجراد و السكان الأهالي و كل ما سلف ذكره يكون بيرارد قد قرأه في الكتب لكن هناك في الجزائر فقد وجد نوعا آخر من الكولون من الذين أكتسبوا تجارب و هذا ما يؤهله على التزود بمشوراتهم .. و بعد خوض الكثير من الإجراءات الطويلة و المكلفة .. برارد إستفاد بإمتيازات في مركز . مورو . حيث تمكن من التوسع في المدينة بالتل القسنطيني ....

و صل برارد الكولونيالي الى (مورو Moreau) ذات مساء خريفي حزين بسحبه السوداء و برده الشديد ..

أنت الفرنسي صاحب الإمتياز على أراضي* الخامسة * قال صاحب الحانة الثخن و الايطالي الجنسية مخاطبا برارد الذي كان حريصا على ربط علاقاته مع أبناء وطنه .. و بعدها دخل الى غرفته في الفندق ؟إ ثم راح يتصنت لهدير يصم الآذان و في خضم هذا الضجيج برارد ضاع في تمييز بعض الكلمات التي صارت دخيلة على القاموس الفرنسي الى الحد الذي صارت فيه اللغة التي يتكلمون بها غريبة ..

. عندما قلت لكم انه مع سانتوس رئيس جماعة (B) ,,,

. هكذا سيصير لنا قواد (caoued) *لعمدة البلدية ... و تكلم ثالث بصوت غاضب*

. كلهم بياعة و أوغاد و لصوص .... و يتصاعد الغضب من جديد ....

ثم انضم رجل في الثلاثينيات أاسمر اللون الى برارد و جلس قبالته ... و سريعا شرع في الحديث معه ...

. و اذن أنت وصلت للتو و هذا ما يبدو عليك ؟ فقط و بما أننا فرنسيين لا يجب أن يتم تضليلك ؟ ... نحن نعلم أنه سيتم إرباكك من طرف نواب العمدة ... كن واثقا من نفسك ...انهم جميعا أوغاد ... و عديمي الوطن و سوف يستولون على كل المستعمرة و عليه يجب أن تفكر في الانتخابات لمجلس البلدي ... و قد إ نتخبوا شخصا يخدم لصالح الأاهالي (les bicots) ضد الكولون و نحن مع عمدة البلدية الحالي لا تتركهم يضللونك ؟

. و لكن أنا لست هنا لممارسة السياسة الأمر لا يهمني ... أنا جئت من أجل العمل ... محدثه الكولونيالي نظر إليه بإندهاش وإستغراب ...

. آه هذا معلوم .. لكن الحكومة تعطي المنح و الإمتيازات لأناس فرنسيين من الذين لا يعيرون إهتماما لمصالح المستعمرة و للذين لا يسايرون الكولونياليين في حين يضطر أبناؤنا للعمل كأجراء مع الأهالي .... ثم ينهض و يستخلفه كولونيالي آخر و هذا الأخير راح أيضا يحدث برارد عن مواصفات عمدة البلدية بأنه سخي و أنه رجل طيب و يعمل لمصلحة الكولون و محدث برارد لم يتوقف على التنديد بتهديدات الفرنكوماسونية و اتباع نائب العمدةMolinat . من اللصوص حينها كان برارد يستمع له بملل ....

لأن برارد كان همه الوحيد هو معرفة مناخ المنطقة و نوعية تربتها و عقلية سكانها لكن محدثه الكولونيالي كان يجيبه على مضض :

سترى ... كيف هو المناخ ؟ ... حسنا هو ليس سيئا ... و سوف تتعود عليه ... مثلنا تماما ...

و سريعا يعود الى إجتراره السياسي ,, بفصاحته الاستثنائية ؟ و بمناورة من برارد في محاولة منه للتخلص من محدثه ثم يخرج الى الشارع الذي كان خاليا و أسودا ... و بعد جولة قصيرة يجد برارد نفسه ثانية في خضم أخر من الضجيج .. و في هذه الحالة ما عليه سوى اختيار ركن أقل ضجيج ... حيث اختار طاولة بقرب من أشخاص كانوا يلعبون بالورق ...

. حسنا أيها السادة ... هل أموركم على ما يرام ...؟إ... أنا مثلكم أرغب أن أكون كولونياليا في هذه الجهة ؟إ... و فجأة لاحظ بعض الإنزعاج من أحد اللاعبين ؟ إ

. أين تقيم ؟إ ..

. أقيم في نزل *** على يمين الشارع .

اللاعبون نظروا في وجوه بعضهم البعض باستغراب كأنما برارد قال شيئا غير معقول

. آه انهم يسجلون أناسهم بالقوة ؟ و لكن يا سيدي أنت لا تعرف أين تقيم ... فهذا المكان هو وكر للصوص و قطاع الطرق .. و حاليا هناك إجتماع لعصابة عمدة البلدية ؟

. لا يهمني ... أنا نزلت بهذه الجهة في انتظار ترتيب إمور اقامتي ..

. لكنك أنت لا تعلم ما ينتظرك من إهانات ...اذا بقيت مع هؤلاء الناس ... أنت لا تعرف العمدة(جيرو Girot,) على ما يبدو ؟إ

ومرة أخرى حاول برارد تأكيد حياده السياسي و صمت ؟إ

. هذا غير مقبول ... فنحن هنا من أجل وضعية صريحة ... إما أن تكون مع الطيبين أو مع اللصوص ... و ليس هناك إختيار ثالث .. هي هكذا الأمور ؟إ .

. أنا دائما مع الطيبين ... قالها برارد من باب الهروب ؟إ

و معمر(كولونيالي) آخر الذي توجه الى برارد بالحديث لمعرفة بعض التوضيحات فاذه به عقد له الأمور حيث كان عدائه واضحا بقوله :

. نحن أبناء المعمرين .. نحاول كل ما في وسعنا بالاعتماد على إمكاناتنا ,, و عليه إفعل مثلنا ما داموا يعطوننا الإمتياز فقط .. و ما دت جئت الى هنا ؟إ ... فهذا يعني أنك لم تقدر على إدارة أمورك في فرنسا ؟إ ... و هذا ما لا تريد الحكومة فهمه عندما ترسل محاولة إغراقنا في أكوام من الناس من الذين لا يعرفون البلاد ...و تستعمل معنا الخبث ... و عندما نرى الفعل يتجسد... حينها نتكلم ؟إ و الى الآن من المستحن أن نصمت ؟إ...

بعدها برارد يغادر المكان مفضلا التجوال في الظلام ... أثناء مروره بالقرب من متجر مفتوح مضاء بمصباح يتصاعد منه دخان ..حينها توقف .. فاذا به يرى عرب يحتسون القهوة ...و من باب الإستطلاع و الفضول ... دخل و طلب فنجان قهوة بعد أن انزوى في ركن ... حيث لاحظ أنه بين أناس من جنس آخر ,,,و من الذين حدثوه عنهم بأنهم أعداء له .... كانوا يرتدون خرقا قديمة من الطراز الأروبي و كلهم بؤس و فقر ... و عند دخوله الى المقهى لفت انتباهه همس العرب فيما بينهم و هو يتفحصون وجهه بعيون شبه مغلقة ... بعدها برارد راح يكلم القهواجي الذي يجيد الفرنسية :

. إنهم ليسوا سعداء .... أعتقد أنهم لا يحبوننا ؟إ .

. لا ابدا لماذا ؟ (كيف كيف Kif-kif) بين هؤلاء من كان يمتلك الأرض و القمح ...قبل التوسع ؟إ أما حاليا لم يبق لهم شيئا ؟إ و حتى و إن لم يكونوا سعداء فهناك مبرر لتفهمهم ... و لكن هذا لا يهم ؟إ

رد القهواجي ترك برارد يشرب قهوته على العجل بعد أن فهم نفسه بأنه مجرد دخيل متطفل ...و بعد وصوله الى الفندق وجد الكل يشتكي من أبناء الكولون الذين يريدون حق الإمتياز في إمتلاك الأراضي المنزوعة من الجزائريين ... حزن كبير ألم بقلب برارد إزاء هذا الوهم و العمل العدواني ...و على هذا الفلاح الذي ينام ليلته في الصقيع ؟إ

عائلة كولونيالية

الفهرس	الصفحة
. التقد يم.....	5
. ابرهاردت / سيرتها الذاتية و تاريخ أسرتها	7
. اليزابات : وفاة شوشينا (...جيرا ...سويسرا.....	13
. اليزابات : حب بذوق طعم العرعار (تمقاد 1900م)....,.....	22
. اليزابت : تونس موطن العطر سنة 1889 م.....	47
. اليزابات : بين سوسة و المنستير سنة 1889م.....	56
. اليزابت : موكنين تحت اضطهاد تحصيل الضرائب	62
. اليزابت . موكنين عاصمة الأميرة ؟.....	68
. ليزابت ابرهاردت في طريقها الى مدينة المسيلة ؟إ 1903م).....	75
. اليزابت ابرهاردت: في طريقها الى مدينة بوسعادة.....	82
. اليزابت ابرهاردت في ضيافة لالا زينب بزاوية الهامل 1903	88
. اليزابات ابرهاردت الى تنس . الشلف . ثم العودة الى بوسعادة.....	92
. اليزابيت فيفري 1900م باريس.....	97
. اليزابات : الاقلاع من مرسيليا باتجاه الجزائر سبتمب1900.....	102
. اليزابات تتعرض لمحاول اغتيال في واد سوف 1901م	106
. ا ليزابت تصف حالتهاعشية نفيها الى مرسيليا 12ماي1901م م.....	109
. اليزابات تستعيد ذكرياتهافي واد سوف من مرسيليا	113
. ا ليزابت ابرهاردت تستذكر واد سوف في منفاها بمرسيليا	118
. إرهاردت تستذكر واد سوف في منفاها من مرسيليا.....	123
. إبرهاردت: تستذكر واد السوف في منفاها بمرسيليا.....	128
. سليمان يسافر الى مرسيليا و يتزوج اليزابت ابرهاردت.....	133
. الا اليزابت ابرهاردت في طريقها الى عين الصفراء ماي 1901	138
. تقارير الصحفية لـ لالا اليزابت . تخضع للرقابةو تحج 1902.....	143
. اليزابت تحاول إجراء حوارت مع جرحى معركة المغرارالفوقاني.....	150
. اليزابات تواصل تغطياتها الصحفية في فضاءات البدو و الرحل.	154
. اليزابت تسمي جيش سيدي بوعمامة بالجيش الشبح 1902م.....	158
. اليزابات تواصل طريقها الى بني ونيف 1902م.....,.....	162
. اليزابت في تغطيتها الصحفية لقصر بني ونيف	165

. في بني ونيف لالا اليزابت تواصل تغطيتها.....	169
. لالا اليزابت ذات ويكاند في . الفيلاج . سنة 1902م.....	172
. لالا اليزبات في ضيافة المرابطين سنة 1902م.....	175
. لالا اليزابت و مرياما المثيرة للشفقة سنة 1902م.....	179
. لالا اليزابيت و حكايتها مع الوزغات.....	183
. اليزابيت : مسعودة و سكرات الموت.....	186
لالا اليزابت في السوق :1902م	189
. اليزابت في دوار المخزن.....	191
. اليزابات :و تخييم البدو 1902م	195
. اليزالات و الأغاني الصحراوية 1902م.....	198
. لالا اليزابات تمهد للقاء سيدي بوعمامة.....	202
. لالا اليزابات :مساء رمضاني سنة 1902م في بني ونيف.....	205
لا اليزابت :و الإنجيل الذي تبددت رؤاه في الفيافي ؟	216
. لالا اليزابت : و رسمها الجميل للواحة سنة 1902م	220
. لالا اليزابات : (بالعبرية: בני ישראל بنيْ يسرائيل.....	224
. لالا اليزابت : سهرة رمضانية سنة 1902م	229
. اليزابيت : وصول الكولون و استغلال الأهالي الجزائريين.....	233

الكتاب مسجل بحقوق التأليف والمجاورة الجزائرية

ومسجل أيضا بحقوق التأليف الدولي فحذار من النقل والإختلاس